

عزيزي القارئ

مع طرح هذا العدد في الأسواق سيكون العالم قد شهد ذلك الحدث الفريد الذي لا يأتي إلا مرة كل ألف عام، ألا وهو أفول قرن وألفية وبزوغ شمس قرن وألفية جديدين. لكن الحديث عن القرن المنصرم يرتد في معظم الأحوال إلى الماضي، حيث إن تصور المستقبل أمر ينطوي على الكثير من التخمينات وعدم الوضوح.

وغني عن القول إن التغيرات والتحولات التي شهدها القرن العشرون تعد أكثر أهمية - ودراماتيكية - من تلك التي جرت على مدى عدة آلاف من السنين. كما أن القفزات الهائلة التي حققتها البشرية، على مختلف الأصعدة، في هذا القرن، لا يمكن مقارنتها بأي تقدم آخر على مدى التاريخ الإنساني كله.

إنه قرن الدبابة والطائرة والصاروخ والقنبلة النووية - لأول مرة في تاريخها تمتلك البشرية القدرة على تدمير نفسها تماما - كما أنه قرن السينما والتلفزيون، قرن سفن الفضاء والأقمار الصناعية، قرن الكمبيوتر والإنترنت وثورة الاتصالات، وعلى الرغم من الخسائر البشرية الفادحة في الحربين العالميتين فإنه أيضا قرن الانفجار السكاني، فقد ارتفع تعداد البشر فيه من بليون إلى ستة بلايين نسمة. ولا ننسى هنا أنه أيضا قرن الهندسة الوراثية والاستنساخ و... والقائمة تطول.

وعلى المستوى الفكري كان القرن العشرون قرن الأحلام الكبيرة والإخفاقات المدوية. وإذا كان قد بدأ بصعود الاشتراكية وحركات التحرر الوطني ويوتوبيا المساواة بين البشر، فإن نهايته قد أذنت بـ «نهاية الإيديولوجيات» و«نهاية التاريخ»، ونهاية اليوتوبيا ذاتها. ويذهب البعض إلى أنه إذا كان هناك من محصلة لكل هذه التطورات فيمكن القول إن الرأسمالية والديمقراطية قد حققتا انتصارا ساحقا وأثبتتا أنهما القوتان العظميان في القرن العشرين بما تمتلكانه من دينامية وقدرة على إطلاق العنان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقدرات الإنسان الكامنة وطاقاته الخلاقة. لكن البعض الآخر يقول إنهما أيضا قوتان تدميريتان: تدمران الأنظمة القديمة الراسخة، والتقاليد، والاستقرار، بل وسلام العقل ذاته. وإذا كان أبطال الماضي هم الجنود، ورجال الدولة، والفنانون والكتاب، فإن أبطال نهاية القرن العشرين هم المستثمرون المغامرون الذين لا يقيمون أي اعتبار لغير الربح المادي . وإذا كان نابليون قد لجأ يوما إلى تعيير البريطانيين بأنهم أمة من «البقالين» فإننا اليوم قد غدونا «عالماً من البقالين».

لكن بغض النظر عن المكان الذي يذهب إليه هؤلاء المستثمرون، فإن استثماراتهم توسع الهوة بين الأغنياء والفقراء، وتحرم فقراء العالم الثالث من أبسط حقوقهم الإنسانية، وتلحق الضرر بالبيئة، وتتعامل بلا رحمة مع أطفال البلدان الفقيرة الذين حولتهم إلى عمال في مصانع الشركات الكبرى. واللافت للنظر أن الأيام الأخيرة من القرن العشرين قد شهدت تظاهرات عاصفة في مدينة سياتل الأمريكية ضد منظمة التجارة العالمية ارتفعت فيها شعارات تندد بالرأسمالية التي تمتص دماء الشعوب، وتسحق الفقراء.

إننا ندخل إلى القرن الواحد والعشرين وقد تحول النزاع بين الشرق والغرب إلى نزاع بين الشمال والجنوب، وبؤر التوتر التي خمدت وحلت محلها بؤر توتر جديدة أكثر تفجرا وعنفا. وباستثناء الولايات المتحدة وأوروبا واليابان، يبدو العالم متجها بإيقاع متسارع نحو مزيد من التجزئة والتشرنق والتشرذم. ومع تفاقم المشاكل العرقية، واشتداد أزمة الخواء الروحي، وصعود التيارات العنصرية والفاشية - في الشمال والجنوب على حد سواء - وهي التيارات التي تنكر الآخر وترى في الخلاص الفردي حلا لمشاكل المجتمع والعالم، أصبح عدم اليقين يغلف كل شيء، بدءا من واقع البشرية اليوم، وحتى مستقبلها ذاته.

إن البشرية بأسرها تقف اليوم عند مفترق طرق حاد. والتاريخ في مثل هذه المفترقات القاسية يضع الشعوب والثقافات في حالة من التشوش والقلق، ويشيع جوا من الخوف من اندفاع المثقفين نحو الانطواء الفردي والانكفاء على الذات، وبالتالي الابتعاد عن الالتزام بالقضايا الاجتماعية والسياسية الأوسع. لذا فإننا جميعا مطالبون اليوم بطرح حركة إنسانية جديدة تتبنى مبادئ الإنسانية الكلاسيكية: وحدة النوع البشري، كرامة الإنسان واحترام حقوقه، الدعوة إلى العقل كقوة للتصالح بين الناس، التضامن العالمي بمعناه الأرحب، والحد من العلاقات غير المتكافئة بين الشمال والجنوب، من أجل تأكيد مثالية الإنسانية المتصالحة مع نفسها ومع الطبيعة.

رئيس التحرير*

---

* العنوان الإلكتروني لرئيس التحرير: mrumaihi@kems.net.

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

عشر سنين على نهاية التاريخ

يعتبر صيف *1999* الذكرى العاشرة لنشر مقالي «هل هي نهاية التاريخ؟» في جريدة *The National Interest*. بهذه المناسبة طلب مني التراجع عن أطروحتي الأصلية. وفي فترات منتظمة، منذ النشر الأول، طالب نقادي أن أعيد الاعتبار أو أن أتنكر- كان ذلك ما يأملون - لفكرتي القائلة بنهاية التاريخ. وإليهم أبادر بطرح هذه المسلمة الأساسية: لا شيء مما طرأ على السياسة العالمية أو الاقتصاد الكوني مدة العشر سنوات الأخيرة يشكك- حسب نظري- في صحة ما انتهيت إليه، ألا وهو أن الديمقراطية الليبرالية واقتصاد السوق هما وحدهما المنقذان للوجود بالنسبة إلى مجتمعاتنا الحديثة.



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بقلم : فرانسيس فوكوياما*
ترجمة : د. المنصف الشنوفي

العنوان الأصلي للمقال :
La Fin de L'Histoire dix ans aprés ونشر في جريدة Le Monde عدد 17 يونيو 1999.

* فرانسيس فوكوياما هو أستاذ علوم سياسية بجامعة جورج- مازون- GEORGE MASON.

وأشد الطوارىء الدافعة إلى الاهتمام، طوال هذه الفترة، كانت الأزمة الاقتصادية في آسيا والتوقف الظاهر للإصلاحات في روسيا. ولئن كانت هذه الأحداث تنطوي على عبر سياسية عديدة فإنها وجدت أيضا في السياسة حلولا لها وهي تشكل تحديا منتظما للنظام العالمي الراهن.

على عكس ما تقدم، فإن الحجة التي عمدت إليها لكي أبين أن التاريخ موجه ومتدرج ويجد منتهاه وتتويجه في الدولة الليبرالية الحديثة، هذه الحجة كانت جوهريا مغلوطة، وهناك ناقد واحد، من بين مئات المفسرين المحللين «لنهاية التاريخ» قد تفطن إلى نقاط الضعف في هذه الحجة: إن التاريخ لا يمكن أن ينتهي طالما لم تصل علوم الطبيعة المعاصرة إلى منتهاها، ونحن على أبواب اكتشافات علمية جديدة من شأنها - بحكم ذاتها أصلا- أن تمحو البشرية باعتبارها بشرية.

جزء كبير من النقاش حول نهاية التاريخ كان مرده إلى قضية حمقاء متعلقة بسوء الفهم. لم يفهم جانب كبير من القراء أني أستعمل مفردة تاريخ في دلالتها الهيجلية- الماركسية أي التطور التدريجي للمؤسسات البشرية والسياسية والاقتصادية.

وحسب هذا المفهوم يكون التاريخ- حسب تحليلي- تقوده قوتان جوهرتيان: انتشار علوم الطبيعة والتكنولوجيات المعاصرة وهي أساس التحديث الاقتصادي والكفاح من أجل الاعتراف بحقوق الإنسان وهو يتطلب، في خاتمة المطاف، نظاما سياسيا يجيز عمومية حقوق الإنسان.

وخلافا لما ذهب إليه الماركسيون فلقد أصررت على وجهة النظر التالية وهو أن هذه العملية التطورية التاريخية تجد منتهاها، لا في الاشتراكية، ولكن في الديمقراطية واقتصاد السوق.

من الصعب أن نتصور إلى أي حد كل الآفاق الممكنة والمتخلية قد استعملت لنقد أطروحتي التي حوربت وهوجمت بكل وحشية في أوائل التسعينيات، كان التنظير يحوم كثيرا حول الاتجاهات التبادلية في السياسة العالمية، وهي اتجاهات كان أغلب الملاحظين يرون أنها سوف تبعدنا عن الليبرالية، عوضا عن تقريبنا منها.

وكان الهم الأكثر إلحاحا يتعلق بالحركة الوطنية والصراعات الأثنية وهو موقف معقول أمام حروب ما كان يسمى بيوغسلافيا ورواندا والصومال وأماكن أخرى ساخنة من المعمورة. ولكن كان بعضهم يرى في بعض الأنظمة منافسا ضمنيا للديمقراطية الليبرالية: الأصولية الإسلامية، الحكم السلطوي المخفف بالبلدان الآسيوية وحتى العودة إلى بلشفية جديدة.

إن أحداث النصف الثاني من العشرية- ومن بينها الزوبعة المالية التي انتهت إلى الأزمة الاقتصادية بآسيا والتوقف الظاهر للإصلاحات الديمقراطية في روسيا والاهتزاز المفاجىء للنظام المالي العالمي- كانت أكثر تهديداً لأطروحة نهاية التاريخ- من أحداث النصف الأول (من هذه العشرية).

لم أصدع قط، بعد كل هذا، بأن كل البلدان سوف تصبح أو يمكن أن تصبح ديمقراطية في المدى القصير، ولكن فقط بأن التاريخ كان ينخرط في منطق تطوري من شأنه أن يؤول بالدول الأكثر تقدما إلى الديمقراطية الليبرالية والأسواق.

إن وجود بعض البلدان مثل صربيا أو إيران خارج هذه الديناميكية لا يعني البتة حجة مضادة مهمة.. ليست الأزمة الراهنة لكوسوفو، مهما كانت درجة المآسي فيها، حدثا ذا أبعاد عالمية من

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شأنه أن يعيد هيكلة المؤسسات الجوهرية إلى الأبد.

من جهة أخرى، إن اتضح أن المحرك الدافع لعملية التغيير التاريخي أصبح ذا عطل، فآن الأوان حينئذ لمراجعة فكرة أن التاريخ يتقدم ويتدرج. ولكن رغم كل الصعوبات والعوائق، التي ذهبت ضحيتها المكسيك وتايلاند وكوريا الجنوبية وروسيا بحكم اندماجها في الاقتصاد العالمي، لا يوجد، على عكس ما يؤكده جورج سوروس George souros «أزمة عالمية للرأسمالية».

إن العولمة حاضرة بيننا لأمد طويل ولسببين جوهريين على الأقل في البداية: لم يعد يوجد نموذج آخر أمثل للتنمية بإمكانه أن يعد بنتائج أفضل مما أتت به العولمة، حتى بعد أزمة 1997 - 1998. ولنلاحظ على الخصوص أن المنافس الرئيسي للعولمة، النموذج المزعوم الآسيوي للتنمية، فقد مصداقيته من خلال أحداث العشرية الأخيرة. لقد برهنت الأزمة الاقتصادية التي اجتاحت آسيا على خواء السلطوية المخففة للبلدان الآسيوية، تلك السلطوية التي تريد أن تركز شرعيتها على اللياقة الاقتصادية ومن ثم هشاشتها في حال التراجع.

أما السبب الثاني الذي يجعل توقف العولمة قليل الاحتمال فيكمن في التكنولوجيا، يساند الحركة الراهنة ثورة تكنولوجيا المعلومات التي نشرت التليفون والفاكس والراديو والتلفزيون والإنترنت في أبعد أصقاع العالم. إن هذه التحولات تمنح نفوذا أكبر للأفراد وتقرب ساعة انتشار الديمقراطية في المؤسسات على جميع الأصعدة اليوم، ليس هناك من بلد بإمكانه أن ينقطع عن وسائل الاتصال الجماهيري الكونية أو عن المصادر الخارجية للمعلومات. إن الموضات التي تظهر في بلد ما سرعان ما تقلد على مدى آلاف الكيلومترات.

إن الذين حاولوا أن يروا في الأحداث السياسية والاقتصادية للتسعينيات العيب الجوهري لنهاية التاريخ قد ضلوا الطريق. إن العيب الأصلي لأطروحتي يكمن في أنه لا يمكن بحال من الأحوال وضع حد للعلم، ذلك أن العلم هو الذي يقود المسيرة التاريخية. ونحن لسنا إلا في بداية الدرب لانفجار جديد للاكتشاف التكنولوجي في مجال علوم الحياة والتكنولوجيا الحيوية.

إن الفترة التي فتحتها الثورة الفرنسية عاشت ازدهار مختلف النظريات التي كانت تطمح إلى الانتصار على حدود الطبيعة البشرية، وذلك بخلق نموذج جديد للكائن (البشري) غير خاضع للأفكار المسبقة وإلى حدود البنائية الاجتماعية مع التأكيد -على العكس- على نظام ليبرالي مرتكز على السوق وعلى حقائق لا غبار عليها تنتمي إلى الطبيعة وإله الطبيعة. ومن الممكن جدا أن أدوات «البنائين» الاجتماعيين في هذا القرن (المنتهي) منذ انتشار الاشتراكية في العمر المبكر إلى التشويش والدعاية وحقول العمل مروراً بالمعالجة الطبية بالتحليل النفسي، كانت أدوات فظة لم تفلح في تغيير عميق للجوهر الطبيعي للسلوك البشري.

إن الطابع المفتوح لعلوم الطبيعة المعاصرة يسمح لنا أن نتوقع، من هنا فصاعدا، إلى الجيلين المقبلين، بأن التكنولوجيا الحيوية ستمنحنا الأدوات التي ستنجز ما عجز عنه اختصاصيو الهندسة الاجتماعية. في هذه المرحلة نكون قد انتهينا نهائيا من التاريخ البشري لأننا نكون قد قضينا على الكيانات البشرية ككيانات وعندئذ يبدأ تاريخ جديد، ما بعد البشري.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مائدة مستديرة للخبراء

هل يتجه الاقتصاد العالمي نحو الركود؟

ترجمة : د. شهرت العالم

في الفترة الواقعة بين باكورة ومنتصف أكتوبر 1998، طلبت مجلة واشنطن كوارترلي *Washington Quarterly* من عدد من أقطاب الفكر الاقتصادي بالولايات المتحدة طرح تصوراتهم حول مستقبل الاقتصاد العالمي على المدى المتوسط. ونقدم فيما يلي أدناه نتائج تلك المقابلات، والتي تعد بمثابة المائدة المستديرة الأولى في سلسلة جديدة من الموائد المستديرة التي سنوالي تقديمها في الأعداد التالية، وتجدر الإشارة إلى أن آخر المقابلات المنشورة هنا قد أجريت في السادس عشر من أكتوبر.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جيمس جلاسمان Games Glassman

(دو ويت والاس De Witt Wallace - زميل بمجلة «ريدرز دايجست» Reader's digest في مجال «عمليات الاتصال في مجتمع حر»، معهد المشروعات الأمريكي - American Enterprise Institute).

أعتقد أن التوقعات المتعلقة بالاقتصاد وتوجهاته عادة ما تكون خاطئة، فالاقتصاد شديد التعقيد، ولذلك فإنني أعتقد أن هناك العديد من العلامات التي تشير إلى وجود حالة بطء وفتور في اقتصاد هذا البلد، وتوقعي أن هذه المسألة سوف تستمر. ترى، هل سنصل إلى الركود؟ إن توقعاتي بالنسبة لاحتمال حدوث الركود تصل إلى 50٪ خلال السنتين المقبلتين - وربما تزيد النسبة على ذلك. وإذا ما حدث الركود، فإنني لا أتوقعه ركوداً عميقاً، كما لا أعتقد أنه سيظهر واضحاً بالضرورة. إنه نوع من التغير الدوري.

ولا ينبغي، في رأيي، أن تتضافر الجهود الدولية

العنوان الأصلي للمقال:
Is World Economy Headed Into Recession? ونشر في مجلة Washington Quarterly شتاء عام 1999.

لمقاومته، بل أرى ضرورة تيسير القروض، وأعتقد أننا قد بدأنا في ذلك بالفعل عن طريق تقليص معدلات الفائدة. أما الشيء الوحيد الذي يتأتى علينا القيام به من منظور دولي فيكمن في أن ندرس بجدية إمكانية عقد مؤتمر نقدي Monetary conference على غرار موتمر بريتون - وودزBretton - Woods .

ديفيد هيل David Hale

(من كبار رجال الاقتصاد، صندوق كمبر المتبادل بـزيـوريـخZurich Kemper Mutual Funds).

سنشهد في العام المقبل اقتصاداً من طبقتين، سنواجه ركوداً في أغلب دول السوق الناشئة، وذلك نتيجة لأزمة تكلفة رأس المال الناجمة عن التطورات التي شهدتها روسيا، وآثارها شديدة العمق. نحن نشهد الآن الشيء الذي أدى إلى اضطرام الكساد الكبير في أعوام الثلاثينيات. لقد انخفض الاستهلاك المحلي في كوريا، خلال النصف الأول من هذا العام، بمعدل 28٪. أما في الولايات المتحدة عام 1931، فقد كان معدل الانخفاض يصل إلى 14٪، هذا هو الكساد الكبير. إنه كارثة، إذ ترتفع البطالة ارتفاعاً صاروخيا، وتتدهور الظروف الاجتماعية، وتتعاظم المصاعب، أما في حالة أندونيسيا، فإننا نشهد خطر المجاعة. لا يوجد وصف كاف لمدى الآثار السلبية لمثل تلك الكارثة.

ولكن اقتصاد الولايات المتحدة لا يزال في وضع معقول، أعتقد أننا سنواجه عجزاً تجارياً يزيد عما عليه الحال الآن - الحساب الحالي للعجز في العام المقبل يصل إلى 300 بليون دولار- ولكننا سنشهد، في الوقت نفسه أيضا، انخفاضاً في معدلات الفائدة وانخفاضاً في التضخم، وهو ما سيساعد الاستهلاك المحلي. وتتمتع الولايات المتحدة وأوروبا الغربية بوضع جيد إلى حد كبير، فهذه البلدان تستفيد من انخفاض معدلات الفائدة وانخفاض التضخم، أما باقي بلدان العالم فتتعرض للعقاب، إذ يجري إغلاق أبواب تدفقات القروض. ويمكننا أن نصف حالة الاقتصاد العالمي، في فترة 12-18شهراً المقبلة على الأقل، كاقتصاد من طبقتين.

ويمكن القول بوجود ثلاثة ردود أفعال على مستوى السياسة. الأول شهدناه بالفعل: انخفاض معدلات الفائدة. ويتمثل الثاني في تقوية وضع رأس المال بالنسبة لصندوق النقد الدولي، حتى يتمكن من الاضطلاع بدور أكثر فعالية كمقرض أخير. أما الثالث فيرتبط بتغيير بنية النظام المالي العالمي، هل نعمل على تنظيم تدفقات رأس المال؟ هل نحاول تغيير قدرة البنوك على تقديم قروض كبيرة لتمويلات التغطية، والمضاربة في العملات أو أسواق السندات؟ إن هذه التساؤلات تتسم بأهمية كبيرة، وإن كانت تتعلق بفترة بعيدة المدى.

مايكل ماندل Michael Mandel

(محرر الإيكونوميكس Economics، أسبوع الأعمال التجارية Business Week).

إنها مع الأسف قصة تحمل أنباء جيدة/ أنباء سيئة. فقوى التغير التكنولوجي سوف تنتج، على المدى البعيد، نمواً كبيراً، وخاصة في البلدان النامية. وبالنسبة للولايات المتحدة، على سبيل المثال، يمكنني القول إن معدل النمو المستدام الذي يصل إلى2.5٪ سوف يصبح 3 ٪ أو حتى أعلى من ذلك. ولكن هذه العوامل تقود في عصر التغير التكنولوجي والعولمة، إلى تقلبات واضطرابات عديدة في مجال الاقتصاد- وهو الأمر الذي يتعذر تجنبه إلى حد كبير. إن التغير التكنولوجي يقود إلى مزيد من التقلب وعدم الاستقرار، ذلك أن دخول التكنولوجيات الجديدة يتطلب تكييفاً وتعديلاً في الاقتصاد وفقاً لها.

والأزمة المالية الحالية ليست سوى جزء من ذلك، ولا يثير الدهشة أنها بدأت في شرق آسيا، حيث كانت الاقتصادات ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالإلكترونيات الدقيقة. فالإلكترونيات الدقيقة هي

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

التي أدت إلى ازدهار تلك البلدان، ولكنها - من الناحية الأخرى - تعرضت للانهيار عندما ضعف السوق. وفي واقع الأمر، من الممكن أن تمر الولايات المتحدة بخبرة مماثلة، فحوالي 30٪ من نمونا الحالي ناتج عن التكنولوجيا العالمية، والتكنولوجيا العالمية هي صناعة ترتبط بحالات الانتعاش والكساد.

لا أستطيع أن أقول لكم ما إذا كانت هذه الأزمة الراهنة سوف تتحول إلى حالة من الركود، ولكن اندهاشي سيكون كبيراً إذا لم تشهد انخفاضاً شديداً في النشاط التجاري خلال السنوات القليلة المقبلة. لقد حدث الكساد الكبير خلال فترة لا تصدق من التغير التكنولوجي - دخول الكهرباء، والسيارات، والمذياع، والسينما - وفي وسط ذلك كله شهدنا الانهيار الكبير. أعتقد أننا نتحرك نحو فترة من نوع مشابه، حيث سنشهد، من ناحية، أزمات مالية واقتصادية عديدة، ولكن من الناحية الأخرى، سنكون في قلب اتجاه صاعد بشكل عام. ولذا، يمكنني الحديث عن العديد من التقلبات وعدم الاستقرار، والحديث أيضا عن الكثير من النمو: نمو عال، ومخاطر كبيرة.

هناك مجموعة معينة من الأشياء عرفنا أن علينا القيام بها. نحن نحتاج إلى سياسة اقتصادية نشطة للحفاظ على وضوح الأمر برمته. وبالتأكيد لن أقول إننا يجب أن نسلك طريق حرية النشاط الاقتصادي، بمعنى الحد من تدخل الحكومة في النشاط الاقتصادي، ولكن علينا أن نتعلم كيف نختار موقعنا. فالتدخل الذكي بين الفينة والأخرى أفضل كثيرا من عبء التدخل. فالكيف أفضل من الكم. ومن الناحية الأخرى، نحتاج أيضا إلى سياسة تهدف إلى الحفاظ على استمرارية الابتكارات التكنولوجية ومساعدة البلد على التكيف معها. ولذا، فإننا نحتاج إلى دعم البحوث والتطوير، وخاصة البحوث الأساسية، إلى جانب تقديم الكثير من الدعم للتعليم. وعلى نحو خاص، إذا كنا سنرسم خطوط اقتصادنا في ظل كثير من التقلب وعدم الاستقرار، فإننا سنحتاج بالفعل إلى التفكير بشأن ما إذا كنا نرغب في شبكات أمان أقوى. وربما يكون من الضروري التفكير بصورة خلاقة في هذا الموضوع، حتى لا نصل في النهاية إلى تقويض الحوافز. فنحن لا نريد إضعاف الأمن الاجتماعي، وإذا ما تسارع النمو، فلن نحتاج إلى ذلك بالفعل، إذ سنكون قادرين على دفع الثمن.

ألان ملتزر Allan meltzer

(أستاذ زائر ورئيس لجنة سوق الظل المفتوحة Shadow Open Market Committee، **معهد المشروعات الأمريكي**- American Enterprise Institute).

سنواجه ركوداً في أغلب دول السوق الناشئة

لا يزال من المبكر أن نصل إلى نتيجة مفادها أن العالم يتجه نحو الركود. يمر الاقتصاد بحالة فتور وتباطؤ، ولكن التباطؤ كان ضرورياً، فالطلب المحلي كان يتعاظم، في النصف الأول من العام، بمعدل يصل، من الزاوية الاسمية، إلى حوالي 6 ٪ أو أكثر، إذن كان يتأتى عليه أن يتباطأ.

وعادة ما يتماثل تقريباً نمو الطلب ونمو العرض، أو على الأقل لا يكون الفارق بينهما كبيراً. ولكن، مع تعاظم العجز التجاري، نجد فارقاً كبيراً بين ما يقوم الناس بشرائه وبين مقدار إنتاجه في الولايات المتحدة. ومن هنا، يمكن أن يتباطأ جانب العرض أكثر من جانب الطلب، ويستمر الطلب في القوة، ويستمر الناس في شراء السيارات والبيوت، وهلم جرا. وتتباطأ هذه المسألة أيضا، ولكن دونما اندفاع أو تهور. إن إنتاج السلع المحلية هو الذي يتباطأ، ذلك أن الكثير من السلع يأتي من بلدان عبر البحار،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هل يتجه الاقتصاد العالمي نحو الركود؟

وهذا أمر لا يثير الكثير من القلق طالما نستمر في الحفاظ على تلك الدرجة العالية من التوظيف والنمو المالي السريع التي نتمتع بها في الولايات المتحدة. وفي رأيي أن هذا التباطؤ لن يصل إلى درجة تؤدي إلى حدوث مضاعفات، سواء هنا أو في أوروبا.

لقد جادلت، وسوف أستمر في المجادلة بأن الاحتياطي الفيدرالي ليس هو البنك المركزي للعالم - إنه البنك المركزي للولايات المتحدة. وتكمن وظيفته في الحفاظ على الاستقرار العالمي، وليس في محاولة التعويض عن أو معادلة آثار السياسة اليابانية السيئة، أو سياسة صندوق النقد الدولي السيئة، أو السياسة البرازيلية السيئة.

وإذا ما أدى إلى تقليص معدلات الفائدة، يترتب على ذلك ارتفاع قيمة الين الياباني في مواجهة الدولار الأمريكي، وهو الأمر الذي يجعل من الأصعب بالنسبة لليابان، وليس من الأسهل، أن تعيد تنشيط اقتصادها وإنعاشه. ولذا، فالمشكلة، من وجهة نظري، موجودة في اليابان وأمريكا الجنوبية أكثر مما هي عليه في الولايات المتحدة، والحل يوجد في تلك الأماكن أكثر من وجوده في الولايات المتحدة. إن أفضل شيء يمكن أن يقوم به الاحتياطي الفيدرالي يتمثل في الحفاظ على سياسة مستقرة من شأنها الإبقاء على انخفاض التضخم واستقرار نمو الطلب الكلي للولايات المتحدة.

إن الذين يطالبون بتقليص معدلات الفائدة ينسون أننا دخلنا إلى هذه المرحلة من تباطؤ النمو دونما وجود للعوامل المعتادة المتعلقة بتعاظم ارتفاع معدلات الفائدة- مثل محاولة الاحتياطي الفيدرالي الإبطاء من التضخم - التي عادة ما تتواجد لدينا، ومن ثم فإننا سوف نكون قادرين على الإبقاء على نمو الطلب المحلي، ولكنه سوف ينخفض قليلاً، إذ إنه كان يتنامى بسرعة كبيرة.

الآن، إذا ما كانت هناك أزمة بنكية حقيقية في الولايات المتحدة نتيجة لانتشار بعض من تلك المواقف ذات الفعالية العالية، فإننا سوف نحتاج، بطبيعة الحال، إلى الإمداد بالاحتياطات وبأي كميات ضرورية من أجل منع تلك الآثار الثانوية. أما دون ذلك، فأعتقد أن أفضل سياسة تكمن في الحفاظ على استقرار الاقتصاد، وعدم الاستماع إلى الأغنية التي تعزف صفارة الإنذار.

ويأتي أغلب الصياح من وول ستريت (شارع المال في الولايات المتحدة). ويتعلق الأمر، إلى حد كبير بعدم رضا المتعاملين في السندات والمصرفيين في مجال الاستثمار أينما يقل معدل الفائدة في حافظة الأوراق المالية التي لديهم عن معدل الفائدة على السندات التي يبيعونها. إذن، فالأمر يكلفهم مالاً على هذه الاستثمارات، بينما عادة ما يحصلون على المال عندما يقومون بعملية الجرد. وعندما يحدث ذلك، فإنهم يصرخون متوجهين إلى السماء قائلين إن العالم قد انهار، في حين تكون المسألة انخفاض أرباحهم فحسب، إنها ليست مشكلة اجتماعية، إنها مشكلة محلية، وهي ليست شيئاً يمكن للاحتياطي الفيدرالي أن يجد حلاً له.

يمر الاقتصاد الدولي بمرحلة خطيرة الآن

روبرت صامويلسون Robert Samuelson

(**من كتاب الأعمدة في جريدتي «نيوزويك» و «واشنطن بوست»، ومؤلف كتاب** The Good Life and Its Discontents **وهو متاح الآن عن طريق** Viking)

إن الطلب المحلي آخذ في الضعف، ومزيد من هذا الطلب يتم ضخه نحو القطاع الأجنبي من خلال تعاظم الواردات، هذا في حين يضعف الطلب على الصادرات. وإذا لم نفترض أن ذلك سوف يؤدي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عند نقطة معينة إلى الاستقرار- وهو يمكن أن يحدث بالفعل- فإن ضخ الطلب المحلي الضعيف إلى القطاع الأجنبي، سوف يوثر إن عاجلاً أم آجلاً على الشعور في الولايات المتحدة، كما سيؤثر على عملية التوظف في الولايات المتحدة أيضاً. وعند هذه النقطة، تبرز إمكانية حدوث الركود.

وأود أن أوضح الأمر على النحو التالي، لدينا قطاع تصدير ضعيف - حوالي 13٪ من الناتج المحلي الإجمالي، ولنفترض أن لدينا قطاع استهلاك ضعيف- في حالة ضعف فقط وليس انحدار- وهو ما يمثل ثلثي الناتج المحلي الإجمالي. إذن، في مواجهة ضعف آفاق التصدير وضعف آفاق الاستهلاك في الولايات المتحدة، هل ستستمر الأعمال التجارية في الاستثمار على نحو متسارع؟ والإجابة، من وجهة نظري، هي كلا، لن تستمر، وهو ما يعني 12أو 13٪ أخرى من الناتج المحلي الإجمالي، وهنا، عند هذه النقطة، لن يترك لنا الكثير.

إذن من يعرف ما إذا كنا سنعاني من الركود، ولكنني أعتقد أن الميزات أكبر مما يظن الناس.

لقد وصل معدل الادخار أساساً إلى الصفر- إنه ليس صفراً بالدقة، بل في موقع ما بين الصفر و 1٪ ويصل المعدل التاريخي إلى حوالي 5 أو 6٪ من الدخل الشخصي المتاح للإنفاق (اعتماداً على الفترة الزمنية التي نحسبه فيها). وربما سيظل باقياً عند نصف في المائة أو 1٪ في المستقبل المرئي، ولكنني لا أعتقد ذلك بل أعتقد أن الناس سوف يبدأون في الحد قليلاً من الادخار. وإذا ما حدث ذلك، سيتعرض الطلب المحلي لضربة كبيرة، كما أعتقد أن معدل الادخار المنخفض يعد وظيفة لكل من سوق الأوراق المالية المرتفع ومعدل البطالة المنخفض، وإذا ما مال كلاهما نحو الضعف، لن تبقى معدلات الادخار عند المستوى الذي كانت عليه.

ولا يتطلب الأمر من الناس أن يصابوا فجأة بحالة بارانويا تشاؤمية بشأن ضعف الاقتصاد، بل كل ما عليهم أن يفعلوه هو أن يصبحوا أكثر حرصاً، وسيحدث هبوط في الإنفاق، وسيجري استنزاف المزيد منه نحو الخارج، وسيحدث تفاعل مع الإنفاق الاستثماري، وتبدأ أرباح الشركات في التراجع، وتبدأ عملية تسريح العمالة. هذا هو تتابع المسألة.

لقد كان أغلب الاقتصاديين الأمريكيين، بدءاً من العام الماضي، يبخسون من قيمة حجم المشكلة في آسيا وإمكانية انتقالها إلى باقي أنحاء العالم.

يعاني حوالي 40٪ من الاقتصاد العالمي حالياً من الركود

ويمكنكم العودة للوراء والنظر إلى التوقعات التي كانت مطروحة وكيف تمت مراجعتها.

وأنا أعتقد أن هذه المسألة تنعكس بصورة مزدوجة بين السكان وبين التنفيذيين في مجال الأعمال.

وأعتقد أن هناك مشكلات دائمة هنا، لا يدركها الناس - وأنا من بينهم - على نحو جيد بشكل عام. ولا أعتقد أن مجرد عدد قليل من البلدان يعاني من بعض المشاكل. هنا شيء يجري في الاقتصاد العالمي باعتباره كلا عضوياً لا ندركه بالفعل، ونصاب بالدهشة على الدوام. وهناك سؤال حقيقي يتعلق بما إذا كان الاقتصاد العالمي هو مجرد مجموعة من الاقتصادات الفردية، أو ما إذا كانت خواصه المستقلة المكتسبة هي التي تؤثر في الاقتصادات الفردية بطرق تجعلها تواجه المصاعب سواء المتوقعة أو المنبثقة.

وما من شك في أن المسؤولية الأولية للاحتياطي الفيدرالي تتركز حول الاقتصاد الأمريكي والأمريكيين، وتكمن المسألة وثيقة الصلة بالموضوع في السؤال التالي: هل الوفاء بهذه المسؤولية يستلزم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وضع الظروف الاقتصادية العالمية بعين الاعتبار؟ الإجابة في رأيي نعم. ومن الصحيح، بالطبع، أن الاحتياطي الفيدرالي يؤثر أساساً على الاقتصاد الأمريكي وليس على اقتصاد تايلاند مثلاً. ومن الصحيح أيضاً، من الناحية الأخرى، أن الدولار هو الشكل الرئيسي للعملة الدولية، وأن ما نقوم به من أفعال تؤثر بالفعل على باقي بلدان العالم، وأن هناك تبعات دولية تترتب على أفعال الاحتياطي الفيدرالي، رغم خفوت صوت هذه التبعات. لا يمكنكم تجاهل ذلك ببساطة، إن الدولار هو الشكل الرئيسي للسيولة الدولية، وما تقوله لنا الأسواق الآن هو أنها في حاجة إلى مزيد من السيولة.

موراي وايدنباوم. Murray Weidenbaum

(رئيس «مركز دراسة الأعمال التجارية الأمريكية» بجامعة واشنطن - Center for the Study of American Bussiness)

أعتقد أن الاقتصاد الدولي يمر بمرحلة خطيرة الآن، وأنا آخذ الأمر مأخذاً جدياً؛ ذلك أنني كلما نظرت إلى الكوكب أرى ركوداً عميقاً، إن لم يكن كساداً: أندونيسيا، وروسيا. إنني أشهد بالفعل ركوداً واضحاً في باقي بلدان جنوب شرق آسيا، كما أشهده في أماكن أخرى، وسواء في أوروبا الغربية أو اليابان، فإنني أرى اقتصاداً راكداً أو متباطئاً. حتى اقتصادنا ذاته - وهو الأمر الذي يثير قلقي - فقد شهد أفضل أيامه في دورة الأعمال التجارية. إذن نحن مواجهون بوضع عالمي تشير فيه جميع منحنيات النمو إلى أسفل في الوقت نفسه، عليكم أن تقلقوا بشأن الاستقرار الاجتماعي والسياسي، فنحن نرى أعمال التمرد في أندونيسيا، على سبيل المثال، وهو الأمر الذي يثير القلق، كما أننا نرى روسيا لن تعود مرة أخرى إلى الشيوعية، ولكن تحركها غير المكتمل نحو المشروع الخاص يبدو معكوساً الآن. إذن فهناك جميع أنماط التبعات التي تنتج عن المحنة الاقتصادية، وهذا يدعو إلى حدوث تغيرات في السياسة.

والآن تحديداً يحتاج الاحتياطي الفيدرالي إلى معدلات فائدة أكثر انخفاضاً، وهو ما يمكن أن يؤدي إلى حدوث شيئين. الأول، بطبيعة الحال، المساعدة على تحفيز الاقتصاد. والثاني، المساعدة على تقليص تدفق رأس المال إلى الولايات المتحدة. وأنا أؤمن بالفعل بعمليات التحكم في رأس المال، ولكنني لا أرى ضرورة في الخروج من مسارنا من أجل تحفيز حركة رأس المال إلى الولايات المتحدة، عندما توجد بالفعل بلدان عديدة تتسبب في معوقات. أما الشيء الأخير الذي يتأتى علينا القيام به، فيتمثل في استنفاد رؤوس أموالهم. وثانياً، فإنني أرغب في حدوث تقليص في الضرائب- ليس تقليصاً لكثير من التفاصيل التي تلبي احتياجات المصلحة الخاصة - مجرد تقليص واضح، ومباشر، وبسيط عبر الحدود في معدلات الضرائب. ومرة أخرى، فإن ذلك سوف يساعد على إمداد الاقتصاد بالطاقة.

لا يمكنني أن أشعر بالحماس إزاء تنسيق الجهود الدولية، فأولاً وقبل كل شيء، يعد تحقيق النظام داخل وطننا مساهمة جيدة، لأننا المستورد الأول. وبالمناسبة، عندما أقول تحقيق النظام داخل وطننا، فإن إحدى التحديات أمام الولايات المتحدة هي إخماد مشاعر الانعزالية والحمائية الصاعدة، لأن أسوأ شيء يمكن أن تقوم به هو إقامة الحواجز التجارية التي سوف تجعل من الصعب على الأمم الأخرى أن تستعيد نشاطها. إن هذه الأمم تعتمد على زيادة صادراتها، إذن هل يمكنني أن أتقد حماساً إزاء صب مزيد من الأموال في صندوق النقد الدولي؟ ليس حقيقياً، عندما أرى أن الأمور قد هبطت في روسيا إلى ما أسفل جحر الفأر. والآن، إذا ما كان سيجري إصلاح أساسي لصندوق النقد الدولي، فهذه قضية أخرى، ولكنهم لن يقوموا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بإصلاح أنفسهم بعد طلقة أخرى من طلقات الدعم المالي.

ماريـنـا ويـتـمـان Marina Whitman

(أستاذ إدارة الأعمال والسياسة العامة بجامعة ميتشجان)

هل سنشهد ركوداً على النطاق العالمي؟ هناك، في الواقع، حوالي 40٪ من الاقتصاد العالمي يعاني حالياً من الركود - روسيا، اليابان، كوريا الجنوبية،أندونيسيا، ماليزيا، تايلاند، الفلبين، وهونج كونج. وسوف تشهد جميعها معدلات نمو سلبية هذا العام، وربما تشهد غالبية هذه البلدان معدلات نمو سلبية في عام 1999أيضا. فمن المتوقع أن ينكمش الاقتصاد الأندونيسي، بمقدار 15-20٪ في عام 1998. هذا ليس ركوداً، إنه كساد، وأغلب البلدان ستعاني هبوطاً يصل إلى 5٪ أو أكثر في الناتج المحلي الإجمالي. لقد كانت توقعات صندوق النقد الدولي لنمو الناتج المحلي الإجمالي في العالم عام 1998تصل إلى 4٪ في مايو الماضي، ومع حلول شهر أكتوبر كانت قد تقلصت إلى النصف، أي إلى 2٪.

وتمر البلدان التي ذكرتها بفترة عصيبة واضحة، ومع ذلك، فإنني لا أعتقد أن هذه البلدان تعاني من حالة فقر دائم، فشعوبها تعمل بجدية وتمتلك مدخرات كبيرة وتتعلم بسرعة وأنا على اقتناع أنهم سيعودون. ومع كل فإن حدسي يتوقع أن المدة الزمنية التي سيستغرقونها للخروج من ذلك ستكون طويلة، وأغلب اقتصاداتها لن تستقر قبل عام 2000، ولسوف يستغرق الأمر عامين آخرين قبل أن تستعيد هذه البلدان معدلات نمو معقولة، وحتى عندئذ، ليس من المرجح أن يستعيد نموهم خطواته المتسارعة التي تمتعت بها بلدان شرق آسيا خلال أغلب سنوات التسعينيات.

هناك بلدان أخرى في آسيا، وخاصة الصين، وفي أمريكا اللاتينية، والتي على الرغم من أنها سوف تتمتع بالتأكيد بمعدلات إيجابية للنمو هذا العام، فإنها تبدو معرضة للتأثر. ثم هناك أوروبا والولايات المتحدة، اللتان تبدوان أقل تأثراً إلى حد ما - وخاصة أوروبا، حيث تجارتها قليلة في آسيا، على الرغم من أن بنوكها أكثر تعرضاً بدرجة كبيرة إلى الاقتراض الآسيوي أكثر من بنوك الولايات المتحدة. وحتى الآن، تتمتع أوروبا والولايات المتحدة بحالة جيدة، ولكن بعض العلامات التحذيرية المبكرة تنذر بإمكانية تباطؤ اقتصاد الولايات المتحدة على نحو يزيد عما توقعناه منذ عدة شهور وأكثر مما نرغب فيه. كما أن السلوك غير المستقر الذي تتسم به أسواق البورصة في جميع أنحاء العالم يجعل كل شيء مثيراً للتوتر والعصبية. وبالتأكيد، لم تعد أي من القارتين تؤمن أن بإمكاننا أن نظل بمنأى عن التأثر بما يدور حولنا، كما كان يبدو الأمر منذ عام.

كل هذا لا يعني أن الركود العالمي لا مفر منه. وبالفعل، فنظراً لتفاؤلي، فإنني أعتقد أن هناك فرصة أفضل من 50-50 بشأن إمكانية تجنبه. ولكن ذلك سوف يتطلب قيادة اقتصادية فعالة ومتعاونة، ولكن الخطر الجدي يكمن في أن ذلك لن يكون وشيكاً. إن صنع القرار الاقتصادي الياباني قد مر بحالة شلل لفترة من الوقت، وأوروبا ركزت بشدة نحو الداخل، على المطالب الخاصة بعمليات الاستعداد اللازمة لإدخال عملتها المشتركة، اليورو، في بداية العام المقبل. وفي الولايات المتحدة، نجد أن الرئيس والكونجرس مكبلين بأزمتنا السياسية، وهو الأمر الذي يجعل أي قرار حاسم على الجبهة الدولية يتسم بصعوبة بالغة.

إنني أشعر بالقلق لأننا مررنا بالفعل بجولة من التخفيض التنافسي لقيمة العملة في آسيا. وإذا ما قامت الصين بتخفيض قيمة العملة، فمن المرجح أن تحدث جولة أخرى من التخفيض التنافسي لقيمة العملة في آسيا، وهو الأمر الذي قد يجعل وضع عدد من بلدان أمريكا اللاتينية - الذين تتنافس منتجاتهم مع المنتجات الآسيوية في

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

الأسواق العالمية - محفوفاً بالمخاطر. وتبدو الصين شديدة التصميم على عدم تخفيض قيمة العملة، ولكن نظراً لأنها تحظى الآن بسعر للصرف يعتبر واحداً من أكثر أسعار الصرف ثباتاً في العالم، فمن الطبيعي أنها ستصبح بالتحديد هدفاً للمضاربات. وهناك مسألة تقلقني على نحو خاص: إذا ما حدثت زيادة في الإنفاق على حواجز التجارة، إضافة إلى التهديد بجولة أخرى من التخفيض التنافسي لقيمة العملة. وإذا ما حدث ذلك، فإننا سنجد أنفسنا في وضع يذكرنا، بصورة كريهة، بأعوام الثلاثينيات. هذا بالتأكيد ليس توقعي، ولكن إذا ما كان هناك وقت يتأتى علينا فيه أن نتجنب الرضا الذاتي وأن نقوم بعمل شيء صحيح، فهذا الوقت هو الآن.

إن السياسات التي تتبعها الولايات المتحدة يمكن أن تفعل الكثير من أجل تقليص إمكانية الركود العالمي، ويرجع ذلك لشيء واحد. فمن الأمور المهمة أننا لا نضع قيوداً على نفاذ المنتجات الأجنبية إلى سوقنا، وذلك فقط عندما تحتاج منا بلدان العالم أن نقوم بدور المشتري الأخير لصادرات آسيا وأمريكا اللاتينية، لأننا الشركاء التجاريون الطبيعيون لتلك البلدان، أكثر كثيراً من أوروبا. ومع معرفة المشكلات التي تعاني منها تلك البلدان، فإن اعتمادهم على قطاعاتهم التجارية سيزداد سواء لتجنب الركود أو للمساعدة على الخروج منه. ويكمن المأزق في أن عجزنا التجاري سوف يتزايد بسرعة إلى ما يتجاوز 200 بليون دولار هذا العام، بل وحتى أكثر في العام المقبل، وعلى الرغم من أن معدل البطالة لدينا يقع على مستوى أدنى مما كان عليه من حوالي ثلاثين عاماً، فإننا نسمع بدايات دمدمات الحمائية، مثل القضايا المضادة للإغراق المرفوعة من جانب صناعة الصلب بالولايات المتحدة ضد المنتجين في الاقتصادات المريضة مثل البرازيل، واليابان، وروسيا، مع تكثيف ضغط المستوردين على عدد من الصناعات الأمريكية. هذا النوع من الضغط الحمائي سوف يزداد سوءاً إذا ما تباطأ اقتصادنا بدرجة تكفي لزيادة معدل البطالة، والوضع السياسي لا يساعد. إن أكبر الصعوبات التي واجهها الرئيس في المسائل التجارية لم تأت من جانب الجمهوريين، وإنما من حزبه. وسوف يكون من الصعب، ولكن من الجوهري، أن نحافظ على أسواقنا مفتوحة، وإما سنشهد تضاعفاً لقيود التجارة في العالم.



ولكن مجرد تجنب أفعال السياسات السيئة لا يكفي، وباعتباره القوة العظمى الوحيدة الباقية، فإن هذا البلد يجب أن يمارس القيادة العالمية في وقت يتعرض فيه الاقتصاد العالمي للتأثر على هذا النحو. وعندما نشهد ما يشبه إنهاك القوى عالمياً عن طريق التوقف اللانهائي لالتزاماتنا لصندوق النقد الدولي وهيئة الأمم المتحدة، وعندما نقوم بإدخال عقوبات تجارية من جانب واحد، وعندما يخفق الرئيس في أن يحصل من الكونجرس على سلطة «للحركة السريعة» ضرورية للسماح له بأن يدير المفاوضات التجارية بفعالية - كل هذه السلوكيات تبعث بإشارات سالبة فيما يتعلق باستعداد الولايات المتحدة على ممارسة القيادة الاقتصادية العالمية التي يمكن أن يثبت أنها حاسمة في الحيلولة دون اندفاع غير موجه إلى الركود العالمي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من الحرب والسلام إلى العنف والتدخل

المعضلات الأخلاقية الدائمة في ظل تغير الشروط التقنية والسياسية

بقلم: بيير هاسنر*

ترجمة: محمد سيف

ما وراء الحرب: زوال نموذج صراع الدول

لا توجد علاقة أكثر تعقيداً من علاقة القوة - والحرب بصفة خاصة - بالأخلاق. ولا يوجد مجتمع لم يهدد باللجوء للقوة، ونفذ تهديده هذا أحياناً، ضد أعدائه الداخليين والخارجيين، ولم يمجد بطولة وتضحية الذين بذلوا حياتهم في القتال من أجله. كذلك لا يوجد اليوم مجتمع لا تسبب لديه مسألة قتل الحياة الإنسانية مشكلة أخلاقية، ولا تحتاج لديه الحرب لمسوغ خاص، سواء تأسس على العقيدة، وعلى حق أو واجب القصاص، أو على ضرورات استمرار الوجود.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العنوان الأصلي للمقال:

De guerre et paix a violence et intervention وقد نشر في وقت واحد في مجلة Le Debat وكتاب Des Choix Difficiles الصادر عن دار نشر غاليمار عام 1999.

* بيير هاسنر، باحث مشارك بمركز الدراسات والأبحاث الدولية للمؤسسة القومية للعلوم السياسية كما يعمل أستاذا بمعهد الدراسات السياسية بباريس. وقد كتب العديد من المقالات والكتب حول العلاقات الدولية والفلسفة السياسية، تناولت بشكل خاص إشكالية الحرب والسلام، من بينها «العنف والسلام: من القنبلة النووية إلى التطهير العرقي» (1995)، و«الشموليات» (بالمشاركة مع جي هرميت وجاك رينيك، 1984)، و«أوروبا في حقبة التفاوض» (1975) و«التغيير والأمن في أوروبا» (1968).

بالطبع، كانت الحرب بالنسبة لغالبية المجتمعات في التاريخ هي النشاط المركزي العادي للرجال قبل أن تصبح الخيار الأخير للملوك. كما أن هناك، بالطبع، من المفكرين والإيديولوجيين من قاموا بتمجيد الحرب والعنف، ورأوا فيهما أنبل فرصة للوصول للعظمة، أو حتى شخصوا السياسات الحديثة بوصفها استمرارا للحرب بوسائل أخرى.

والنقض الأخير لمقولة كلاوسفيتز يبدو أنه يتناسب مع سياسات القرن العشرين، الذي أحكمت خناقه الحروب العالمية والثورات الشمولية. ومع ذلك فالمنحى التاريخي، الذي جاءت به المسيحية أولا، ومن بعدها الليبرالية البرجوازية يبدو أنه يسير في اتجاه تحريم الحرب أو نبذها كوسيلة لتحقيق الثروة، أو السيطرة، أو العظمة.

ففي داخل المجتمعات، تضمنت عملية التحضر في تدرجها عزل مؤسسات العنف - من العبودية إلى الفروسية، مرورا بالإقطاع والجيوش الخاصة - وإرساء ضبط النفس كقاعدة للعلاقات بين المواطنين وتعيين الدولة بوصفها الجهة الوحيدة المشرع لها استخدام القوة. ويبدو اليوم أن هذا المسار يتواصل. فمن جهة، صارت حروب الغزو غير مشروعة، كما لم تعد حساسيتنا الأخلاقية تقبل الرعب والدمار الناتجين عن الحرب بالصورة القدرية نفسها التي كان يقبلهما بها أجدادنا. ومن الجهة الأخرى، كما تنبأ مفكرو القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وجدت الأخلاق والنزعة السلامية المثالية دعما قويا في مناخ التجارة والصناعة، وفي الخصخصة والاعتماد المتبادل، وفي نمو النزعة الفردية والعولمة.

ومع ذلك، ومع تضاؤل احتمال حدوث الحرب والثورة في العالم الغربي المتطور، استمرت الحروب خارجه، بل تضاعفت، وانتشرت أكثر الصراعات تقليدية الناتجة عن سقوط الإمبراطوريات، ونشوء أو سقوط الدول، وانتشار الأحقاد أو المخاوف العرقية، أو، ببساطة، صراعات نهب أو تشريد السكان. كما لم يعد مركز العالم في الغرب المعصوم من الحرب (وإن كان يخوضها على أطراف أراضيه) آمنا هو الآخر من الإرهاب، خصوصا الإرهاب العرقي أو الديني، ومن العنف، خاصة العنف الناتج كرد فعل لحركات الهجرة. وما يثير الاهتمام أنه مع التحجيم المتزايد لتظاهرات العنف المباشر فإن مجتمعاتنا الديمقراطية تبدو اليوم أقل قدرة على مواجهة الأقليات العنيفة في أراضيها وعلى خوض الصراعات العنيفة في الخارج. وهي تبدو كما لو أنها فقدت كفاءتها وإرادتها في قبول مواجهة الأخطار لوضع حد للعنف اللاإنساني، طالما كان هذا العنف لا يتخذ طابع الهجوم المباشر عليها.

فالقضية إذن، لم تعد تتمثل في صراعات بين الدول بقدر ما تتمثل في التباعد بين المجتمعات. واختلاف المواقف والمشكلات بين المجتمعات المستقرة أو الآمنة نسبيا وبين المجتمعات الأخرى المعرضة حدودها أو وحدتها أو هويتها للخطر، أو بين المجتمعات التي تحافظ فيها الدولة إلى هذا الحد أو ذاك على القانون والنظام وبين المجتمعات التي انهارت فيها الدولة تحت تأثير القوى الخاصة العابرة للقوميات، يجعل من الصعب على الأولى أن تفهم أو تساعد الأخيرة، حتى وإن كان الطرفان، في النهاية، معرضين للتهديدات نفسها. وهذا مثال واحد على غموض مفهوم القوة في عالم لم يكن قائما فحسب على تعارض المعسكرين، بل أيضا على التمييز الواضح بين القومي والدولي، وبين الدولة والمجتمع، وبين العام والخاص، وبين السياسي والاقتصادي، وبين المجالات العسكرية والمدنية، وبين الجريمة المنظمة في الحرب الأهلية، والحرب بين الدول، التي تجنح جميعها لأن تكون اليوم مختلطة وغير واضحة. وفي عالم كهذا، ربما تكون المفاهيم الأكثر عمومية للعنف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والصراع، من جهة، أكثر نفعا من مفاهيم الحرب. ومن جهة أخرى، فالمفهوم الملائم بنيويا الذي يحل محل مفهوم الحرب باعتبارها «استمرارا للسياسة بوسائل أخرى» لم يعد قائما على الردع، كما كان خلال الحرب الباردة، بل بالأحرى على «التدخل». فلم يعد الرهان يتمثل بالدرجة الأولى في التهديد السلبي بقوة باطشة لردع هجوم بعيد الاحتمال ضد حدود قومية، ولكن بالأحرى في الاستخدام المؤثر لقوة محدودة لإيقاف الصراعات البعيدة الفوضوية الطابع أكثر مما هي عدوانية. وهذا التدخل تسوغه الضرورة الملحة لاستمرار الحياة، أو حتى ما تمليه المصالح القومية بأكثر مما تسوغه المجادلات الغامضة حول المبادىء العالمية أو النظام الدولي.

وتظل الدول قبل أي شيء هي المنوطة بالسير على هذه المبادىء، كما أن الوضع الذي يستدعيها للتدخل ينبع قبل كل شيء عن فشل دول أخرى. ومع ذلك، وبدلا من الوضع الذي واجه فلاسفة السياسة المحدثين من هوبز إلى آرون مرورا بكلاوسفيتز إلى فيبر - القائل إن القانون والنظام تضعه الدول للعمل به داخليا ولكنه غير ملزم لها عند خوض الحرب ضد بعضها بسبب غياب سلطة عليا عالمية - فما زالت الدول تحتل صدارة المشهد لكنها تواجه تحديات متزايدة بسبب عودة الظهور السياسي للجماعة العالمية، من جهة، وبسبب اندلاع الفوضى الداخلية والعابرة للقوميات، من الجهة الأخرى.

وبمعنى من المعاني، يمكن اعتبار هذا التطور المزدوج عودة للقرون الوسطى، التي يمكن النظر إليها سواء على أنها عودة لظهور عوامل إيجابية على غرار ظهور جماعة كوكبية، أو على الأقل لمشروعية تعددية الفاعلين والموالين، أو كعودة لظهور العنف المخصخص والصراعات الدينية ضد ما أبدعته الدولة العلمانية الحديثة.

وسواء تبنى المرء أكثر النظرات تفاؤلا أو تشاؤما، فالأمر يبدو كما لو أن تسوية تاريخية ما قد تم فضها ولم تعد قائمة.

في أعقاب الولاءات والصراعات المتعددة، وأعمال الغزو والحروب الصليبية، وحروب القراصنة وقطاع الطرق، ومبارزات الأرستقراطيين وانتفاضات الفلاحين في القرون الوسطى، وصل كل من التفكير السياسي والواقع التاريخي إلى حل عن طريق الانقسام. ووضع صعود الدولة العلمانية، باحتكارها للقوة المشروعة على أرض معينة، نهاية للفوضى المحلية والحروب الدينية ولكن في الوقت نفسه، احتفظت الدولة، وريثة الإمارة، التي كانت ترعى السلام في الداخل، بحرية القيام بالحرب في الخارج. واستبدلت فكرة السلطة الروحية العالمية التي تقرر من هو صاحب الحق بقانون دولي حديث، قائم على الاتفاق متعدد الأطراف، والإقرار الطوعي بين الدول ذات السيادة، وقد قضى هذا القانون على التساؤل التقليدي الخاص بالمشروعية الأخلاقية للحرب، لصالح القواعد التي تحد من العنف أثناء الحرب نفسها.

والتناقض بين قاعدة القانون في الداخل وبين حالة الطبيعة - أي الحرب - في الخارج، أفرز وضعا تعرض لنقد عنيف من قبل الكاتب روسو والفيلسوف كانط، لكن هذا الوضع اكتسب قبولا نسبيا من خلال هيمنة السلطة السياسية التي نادى بها كلاوسفيتز، وبإيجاد آلية لتوازن السلطة، وبتعاون القوى العظمى داخل التجانس الأوروبي، وقبول التراتبية الدولية من جانب الدول الصغرى، وأخيرا، بتبني ومحاولة قبول قواعد مشتركة وتحريم بعض الأسلحة عمليا.

وقد عملت الثورة الفرنسية ونابليون على زعزعة هذا الوضع، ولكنه ظل مستمرا في خطوطه العريضة حتى 1914 ، وجزئياً على الأقل حتى الثورات التكنولوجية والإيديولوجية في القرن العشرين. لكن هناك بعض العناصر مازالت حية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فيه وربما تزهر اليوم وغدا، خاصة في آسيا، القارة التي يمكن القول إنها اقتربت من مرحلة تشبه فترة حكم الملكة فيكتوريا، أي حقبة ميلاد الإمبراطوريات وتنافس القوى العظمى، ومع ذلك فعودة هذا النظام تفترض مسبقا عددا من الشروط التي تبدو اليوم صعبة التحقيق.

فهو من الناحية العسكرية، يفترض مسبقا احترافية الحرب، والتمييز بين الجيوش النظامية وبين المدنيين أو غير النظاميين، كما يشترط توافر المقدرة التقنية لدى الدولة لشن الحرب ضد الدول الأخرى وللسيطرة على معارضيها الداخليين.

ومن الناحية الأخلاقية، يفترض هذا النظام تمييزا مزدوجا بين المبادىء الأخلاقية الخاصة والعامة، وتمييزاً بين واجبات النظام إزاء دولته، أو رعاياه أو مواطنيه، وواجباته تجاه الجماعات الأخرى. فالكذب والقتل، المحرمان على الأشخاص، مسموح بهما أو مسوغان للدفاع عن الوطن، للأسباب السيادية، وللمصلحة القومية. كما أن هذا النظام يفترض المحافظة على العهود بين الدول، ولكن طبقا لسبينوزا وهيجل، طالما كانت هذه العهود تعبر عن مصالحها، ويمكن للمرء أن يضيف أنه تاريخيا، طبق هذا النظام معايير أخلاقية متباينة في العلاقات بين القوى العظمى، وفيما بينها وبين الدول الأصغر، وفوق كل ذلك بين الدول المعترف بها وبين الشعوب الأخرى، التي خضعت للعبودية أو الاستعمار أو الاحتلال.

من هنا، فالشرط النهائي شرط سياسي: يفترض مسبقا وجود قوى عظمى، أو أي نوع من الدول القادرة على فرض مفهومها للنظام على أراضيها، وبينها وبين بعضها وفي مواجهة الأعداء الخارجين، وإزاء التحديات، أو في حالة وقع ضحايا في الخارج.

وقد تغيرت كل هذه الشروط، وتغيرت معها بالتالي صلاحية المفهوم التاريخي والفلسفي لنظام الدولة في الغرب.

وهو ما جرى، بدرجة ما، لتعريف كلاوسفيتز للحرب كأداة للسياسة، فهل هذا ما حدث بالفعل؟

إننا شهود على أن ما يقوم مقام ذلك هو ما أسميته ديالكتيك البرجوازية والبربرية، عند تشخيص التباين بين نوعين من المجتمعات. فمن جانب هناك مجتمع مدني بالأساس، له تاريخ بطولي سابق، يستند إلى التقنية، وكحل أخير، على القوة الاقتصادية التي تمكنه من اللجوء إلى استخدام الحد الأدنى للقوة، المقبول جماهيريا للحفاظ على مصالحه السياسية. ومن الجانب الآخر المجتمعات التي تحطم فيها العقد الاجتماعي نفسه أو لم تعد القوة فيها خاضعة للسياسات، والتي تندلع فيها أعمال الوحشية والجشع، والرعب والبغضاء، وأحيانا تثور بشكل مصطنع أو محرك من قبل زعماء جشعين باستخدام الوسائل الحديثة للدعاية، التي لا يحدها أي إطار أخلاقي أو قانوني أو سياسي.

بالطبع، لا يجوز شرح هذا التضاد شرحا سطحيا أو تبسيطيا، ولا شرحه على أنه تضاد جوهري ولا على أنه انقسام جغرافي بين غرب متحضر وجنوب أو شرق بربري، فلدى كل من القطبين ملامح مهمة مشتركة وتفاعلات أساسية وتبادل أدوار محتمل.

ومع تضاؤل فرص استعداد المجتمعات الحديثة على الحشد للحروب الخارجية، تقلصت احتمالات حدوث هذا النوع من الحروب. وصار انشغالها الرئيسي داخليا، كما أصبح استخدامها للقوة مشروطا سواء بضرورة تجنب الخسائر في الأرواح (الأمر الذي من شأنه أن يخلف أثرا سلبيا على استطلاعات الرأي والنتائج الانتخابية) أو بالرغبة في إيقاظ مشاعر الخوف والعدوان في صفوف سكانها ضد الأعداء المحليين والخارجيين، كي تأمن من النقد أو الثورة ضد الانتكاسات. وسلطة الدولة الديمقراطية، في كلتا الحالتين، تميل إلى إحلال الديماغوجية الشعبوية بدلا من العمل العسكري التقليدي، وهي الديماغوجية التي تسعى لإرضاء

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ميول الشعب للهدوء الخاص ورفض أي تضحية، أو تستجيب لشعوره بعدم الأمن وعلى احتياجه للعثور على كبش فداء. وقد بدا في صراع كوسوفو، أن بلاد حلف الأطلنطي، من جانب، وصربيا من الجانب الآخر، قد طبقا هذين التوجهين بشكل محكم. والمجتمعات البرجوازية بوسعها عند البحث عن كبش الفداء أن تجده داخلها، ممثلاً في صورة الإرهابي أو المهاجر.

والمجتمعات الغربية، وعلى النقيض من بعض المخاوف التي تم التعبير عنها في الأربعينيات وبداية الخمسينيات من هذا القرن، عاشت زمن الحرب الباردة بغير أن تتحول لدول عسكرية. وعليها من الآن فصاعدا أن تحيا مرحلة ما بعد الحرب الباردة بغير أن تتحول لدول بوليسية أو على الأقل لدول تسلطية وقمعية.

والأقرب لنا من هذه الاعتبارات بعيدة المدى هو التفاعل بين البرجوازية والبربرية في المجتمع الواحد أو عبر الحدود بين الدول وبين المركز والمحيط. فدوائر التماس هذه صارت تحل أكثر فأكثر محل الجبهات التقليدية بين الدول، كما لم تعد مشكلة الحرب والسلام تقوم على التنافسية بين الدول، قدر قيامها على التفاعل المطرد، والاعتماد المتبادل، والتداخل بين المجتمعات المنفصلة عن بعضها بالاختلافات الاقتصادية، والاجتماعية، والدينية، أو الثقافية، على صعيد الأمم والقارات، أكثر من قيامها عبر الحدود فيما بينها. فقد صار النظام الدولي أكثر تشظيا وتداخلا على نحو لم يحدث من قبل. كما انتهت الآليات التقليدية للتصعيد والتعميم عبر التحالفات (وهو ما يفرق بين سراييفو 1914 وسراييفو 1992)، إذ جعلت القوى والتوجهات العابرة للقوميات من الفصل بين المجتمعات القومية أمرا مستحيلا.

وتظل الدول هي النواة التي يقوم عليها النظام العالمي، كما تظل، إلى حد بعيد، الحائزة للقوة المدمرة، على الأقل في الوقت الحاضر، لكنها تواجه بشكل متزايد تحديا من الأبعاد العابرة للقوميات والأبعاد المحلية. فهناك من جانب ما يمكن أن نطلق عليه «عبر قومية تريفي» (من تسمية مجموعة عمل الوحدة الأوروبية حول الإرهاب، والراديكالية، والبيئة، والعنف)، ومن جانب آخر بزوغ جماعة عالمية، ما زالت بعد في طور التكوين، تشكك في سيادة الدول باسم السلام والعدل الدوليين. أما البعد المحلي، فيمكن توصيفه في صراعات الفوضى التي تتحدى احتكار الدولة للسطة والوحدة القومية، أو في الفرض المتزايد لاحترام حقوق الأفراد والمجموعات وإقامة اعتبار لردود فعل الرأي العام الذي أصبح أكثر معرفة من ذي قبل.

ما وراء العنف:

معضلات التدخل الإنساني

ما تشترك فيه هذه الظواهر جميعا هو وضع نهاية للحروب بين الدول، وسواء كان ما سيعقب ذلك هو الفوضى العنيفة أو تشكيل قوة كبح منضبطة تحت إمرة الجماعة العالمية لمحاربة العنف المحلي والعابر للقوميات، فهذه الظواهر جميعها تشير إلى أن المفاهيم من نوع الحرب والسلام لم تعد ملائمة، وإلى أن المهمة الأولى على عاتق الجماعة الدولية البازغة تتمثل في التحكم في العنف الفوضوي.

ومن ثم، تثار من جديد المشكلات الكلاسيكية حول من يقرر التدخل، وضد من، ولأية غايات وبأية وسائل، وفي أي سياق؟ كما أن المسوغات الأخلاقية والعملية للفعل والتقاعس، واللجوء للوسائل العسكرية، على النقيض من الوسائل الأخرى (الدبلوماسية أو الاقتصادية)، سوف تتخذ أشكالا مختلفة طبقا لموقف كل تدخل فيما يتعلق بالمؤسسات (سواء كانت عالمية أم دولية) والمجتمعات (سواء كانت فوضوية أم دكتاتورية). ومن الممكن صياغة هذا بشكل آخر، فالقضية الأخلاقية الأساسية هي قضية الغايات والوسائل. والحال أنها في مجال العلاقات الدولية اليوم تخضع لسؤال مزدوج مسبق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ينصب حول هوية العامل أو الموضوع الأخلاقي وحول بنية النظام الدولي، على منوال الأسئلة المطروحة حول المؤسسات الدولية والنظم السياسية. وبما أن التمييز بين الأخلاق العامة والخاصة أو ذلك الذي بين القاعدة المحلية للقانون وبين حالة الحرب العالمية لم يعد مطروحا بعد، أو على الأقل لم يعد حاسما بعد، فهل يعني ذلك أننا أمام سلسلة متصلة للإشكاليات الأخلاقية تبدأ من الفرد إلى الجماعة الدولية، مرورا بالمجموعات، وتحالفات الدول، والمنظمات الدولية؟ وبالشكل نفسه، هل ستحل بدلا من معادلة الحرب والسلام استمرارية للعنف، تبدأ من العنف البنيوي، المتمثل في الافتقار إلى الشروط المناسبة للحياة، مرورا بالعنف الخاص، والمحلي، والاجتماعي، والسياسي، إلى الحرب والمجزرة؟ وهل لنا في السياق نفسه أن نجد أنفسنا إزاء سلسلة متصلة من التدخلات، بدءا من التدخل غير المباشر أو الجانبي المعبر عنه بنظر أنماط الحياة والاستهلاك للمجتمعات النامية، مرورا بالتدخل المباشر، الإيجابي أو السلبي، الشفوي، والدبلوماسي، أو الاقتصادي، والإداري أو التشريعي، إلى التدخل العسكري؟ مع احتمال أن يوجه الأخير، بالنتيجة، للحماية أو للمساعدة في ردع أو قهر، أو قلب الحكومات المجرمة، أو لدعم وإدارة المجتمعات المنهارة. فمصطلح التدخل يمكن قصره على التدخلات العسكرية في دولة بغير موافقة سلطاتها أو مده على الأعمال التي يتم القيام بها بغير إكراه وبموافقة السلطة المحلية.

ومصطلح «إنساني» في تعبير «التدخل الإنساني» يمكن أن يعطي مجالا لسلسلة من التفاسير. وأعرض هذه التفاسير يتضمن أي شكل للتدخل ضد أي شكل للمعاناة الإنسانية، سواء تسبب عن الفيضان، أم المجاعة، أم الحرب، أم الصراع الأهلي، أم الطغيان. أما الأضيق فيعني النأي عن التدخل بالأبعاد السياسية والعسكرية من جانب الدول والقيود الملزمة معا. وبهذا المعنى فإن أي تدخل ينأى عن أن يكون إنسانيا إذا كانت أسبابه تتضمن حسابا ذاتيا اقتصاديا أو منافع استراتيجية للمتدخل، أو إذا كانت وسائله أو نتائجه تقود إلى اتخاذ موقف طرف، عبر المنافع، أو على الأسوأ، في التهديد بتكبيد السكان، أو تكبيدهم بالفعل الآلام أو الموت باسم الحماية والسلام، كما حدث عند قصف حلف الأطلنطي ليوغوسلافيا. ولا يوجد شيء من هذه التعاريف يمكن تمييزه من خلال هدف معياري، أو فصله بشكل واضح كما هو الحال عند التمييز الكلاسيكي بين الشؤون الدولية والشؤون الداخلية. فكلها تثير الجدال الذي تتعارض فيه المدارس المختلفة للتفكير والخبرات العملية المختلفة، وفي بعض الأحيان تفضي لنتائج متناقضة عندما نرى المنظمات الإنسانية نفسها بالتناوب تنتقد الحكومات لأنها لا تتدخل عسكريا، كما حدث في يوغوسلافيا، أو لأنها تدخلت، كما حدث في الصومال، أو في الحالات التي تبرهن فيها على الاستحالة المنطقية لممارستها لأنشطتها التي هي سبب وجودها والتي تتعرض حياة أعضائها بسببها للأخطار. وهذا التضارب في التفسير يعطي مثلا شديد الأهمية خاصة وأن خطر الوقوع في أحد النهجين المتطرفين - أي السماح بغير قيد باستخدام أقصى العنف باسم العمل الإنساني أو تقييده على نحو تطهري بشكل يفضي إلى التقاعس - يعد أمرا سهل الحدوث للغاية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وربما صار من السهل أكثر تجنبهما لو ميّز البعض على نحو أوضح بين معنيين لكلمة إنساني. فمن ناحية، هناك المعنى المتمثل في مساعدة الضحايا، الذي يتجسد في دعوة المنظمات الإنسانية، وعليها من أجله ألاّ تعرض عدم انحيازها للخطر عبر حماية أو تعاون دولة ما. ومن ناحية أخرى، معنى الدفاع عن حقوق الإنسان أو معارضة الحكومات التي ارتكبت جرائم ضد الإنسانية، أو قامت بأعمال لا إنسانية، وهو أمر يضفي مشروعية على التدخل الدولي، بما فيه التدخل العسكري. وقد وصف الفيلسوف الإيطالي «نوربرتو بوبيو» عمل

حلف الأطلنطي في كوسوفا بأنه «أول حرب من أجل حقوق الإنسان»، وهو تعبير ينطبق بشكل أفضل من تعبير «التدخل الإنساني». فهو يمكن من الفهم الأفضل لكون المعركة ضد خصوم حقوق الإنسان يمكن أن تكون لها نتائج سلبية وأحيانا كارثية على الصعيد الإنساني المحض، الذي تسند إليه المنظمات غير الحكومية في عملها.

ولكن من جهة، دخل مصطلح «التدخل الإنساني» نطاق الاستعمال الشائع، متضمنا هذا النوع من الفعل. ومن جهة أخرى، وعلى الرغم من الجهود المبذولة والمطلوبة للإيضاح، فإن هذا السجال من غير الممكن حسمه بتحديدات لغوية: فهو يستند إلى المعضلات الحقيقية التي تمس المشروعية الأخلاقية والكفاءة العملية. وأود في الصفحات التالية أن أعرض هذه المعضلات، بغير أن أسعى للبت فيها في أغلب الحالات، مقرا بأنني أبدي رأيي على أساس عملي يتماشى وكل حالة من نوعها. ومع ذلك هناك تمييز، يبدو لي أن عليه يؤسس حدا أدنى من التوافق، وهوالتمييز بين الحالات العادية والحالات المتطرفة. وعلى حين أنه لا يمكن الفصل بينهما بوضوح، إلا أنه من الضروري ألا يعمي أبصارنا شيوع وتعقيد وغموض العنف عن رؤية بعض الحقائق المهمة التي تميز قرننا والتي لا يمكن ضبطها إلا بمصطلحات القيم الأخلاقية المطلقة.

عين رودلف رومل عدد الناس الذين قتلوا بدم بارد بواسطة حكوماتهم بما يناهز المائة والخمسين مليونا، وهم رقم يفوق بكثير عدد ضحايا الحرب في القرن العشرين، بما فيها الحربان العالميتان والحروب الأهلية (حوالي 35 مليونا). وبإمكان هذه النتيجة المروعة أن تفضي بنا لتأملات مثيرة حول اقتصاد العنف في قرننا، وحول الصلة بين الشمولية، والحرب، والتنمية الفرعونية، خاصة إذا قبل المرء تفسير رومل الذي يربط بين «قتل الشعوب» والسلطة المطلقة، ويربط بين السلام، على الصعيد المحلي والعالمي على السواء، وبين الديمقراطية. ويمكن أن يقود ذلك إلى نتائج عملية متسرعة، على غرار تشريع الحرب من أجل إنقاذ الديمقراطية، أو على النقيض، إلى شكل جذري من الفوضى السلمية، والنظر لجسامة الجرائم والأخطار كمسوغ يجرد أي استعمال للقوة وأية حكومة من أي قانون أخلاقي.

ولا يسع المرء أن يشارك الرأي أيا من هذه النتائج المتعاكسة، لكن عليه القبول بنفاذ بصيرة الفيلسوف الألماني كارل ياسبرز حول البدعتين اللتين انفرد بهما القرن العشرون واللتين وضعتا الجنس البشري وجها لوجه أمام الأوضاع المتطرفة، وهما الشمولية، والأسلحة النووية. فعلى صعيد مشكلة التدخل، فرضت هاتان الظاهرتان قيودا مطلقة على دوافعنا الأخلاقية، ولكن في اتجاهين متعارضين.

فمن ناحية، من ذا الذي لا يعترف بأنه كان من المشروع والمرغوب حدوث تدخل عام 1930 لإسقاط هتلر، بسبب الطبيعة والآلية الوحشية لنظامه، التي تقود إلى إبادة اليهود، والغجر؟ لا أحد يتصور الآن أن مثل هذه الإبادة كانت مسألة داخلية محضة وأن التوسع الألماني فقط باتجاه الدول الأخرى كان هو السبب الصالح لمعارضته بالقوة عند الضرورة. ومن ناحية أخرى، من الذي يجادل في أنه كان على الغرب شن هجوم نووي ضد الاتحاد السوفييتي في عهد ستالين (الذي قتل، طبقا لرومل، بشرا أكثر مما قتلت ألمانيا النازية) لوضع حد للغولاغ؟ فهل للرعب الناتج عن الحكم الشمولي بالقوة، أو حتى بالإبادة، أن يكون مسوغا لإطلاق رعب آخر، وعملية إبادة أخرى - كقتلى القنبلة النووية - والقبول بالمخاطرة بتدمير الكوكب، وبالتأكيد بقتل ملايين الضحايا الذين يريد البعض تحريرهم؟ هذان الأمران - واجب التدخل في مواجهة جرائم الشمولية، وواجب عدم البدء بشن حرب نووية- من شأنهما استحالة التوفيق بينهما

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في الحالة المتطرفة عندما يكون على المرء أن يختار بين تصفية الجنس البشري بالقنبلة وتدميره روحيا بالسيطرة الشمولية. وهذه المقابلة الافتراضية للغاية لا تعنينا هنا بصفتها، وما يعنينا رغم ذلك هو علاقتها بالمعضلات الواقعية للسياسة «العادية»، فالأوضاع المتطرفة، كإبادة الجنس في يوغوسلافيا ورواندا، تواصل ظهورها في هذا الإطار وتضعنا في مواجهة حدود الموقف العملي والتسوية.

بالنسبة للقائد السياسي تتعلق كل المشكلة تحديدا في كيفية تجنب الحالة المتطرفة بالتفرقة، من جهة، بين درجات من الطغيان أو اغتصاب حقوق الإنسان، ومن جهة أخرى بين أشكال التدخل وحتى أشكال العمل العسكري للوقوف المحدد على ما تجعله الحالة المتطرفة مستحيلا، أي ضرورة الموازنة المعقولة بين الوسائل والأهداف وبين الأخطار والمخاطرات.

وعلى النقيض من ذلك، تميل الآراء الأكثر تشاؤما للتركيز على الحالة المتطرفة والتشكيك في مفهوم الحالة العادية وفي سلطة المؤسسات والقواعد التي تحكم بها السياسة.

وبغير الذهاب لأبعد من ذلك، لابد من الاعتراف بأن الحالات المتطرفة للإبادة والحرب النووية، تخيم بظلها على كل ما هو قائم من مصطلحات الوعي الجمعي الأخلاقي، وهي تقيم اعتبارا كبيرا للوعي بموضوعات حقوق الإنسان والأخلاق الإنسانية. وعبر الخبرة الواقعية أو المتخيلة بالشر المطلق، يجد الفرد نفسه وجها لوجه أمام العالمية، فيما يخص الأخلاق ومصير الجنس البشري والكوكب، بعيدا عن السلطات والجماعات، والانقسامات والتناحرات، بالمجتمعات المعينة. ومن هنا، جاءت الفكرة التي عالجها الدكتور الفرنسي برنار كوشنر (مؤسس أطباء بلا حدود، وأخيراً وزير الشؤون الإنسانية الفرنسي) والفيلسوف أندريه جلوكسمان حول «أخلاقيات الطوارىء القصوى» التي لا تترك مجالا للدول والإيديولوجيات أن تواجه اللاإنسانية، التي تتخذ شكل الجوع والتعذيب.

ومع ذلك، سرعان ما بدا بوضوح، أن تركيز كل شيء في الشر، على نحو معقد، يفضي لفكرة تبشيرية بلا حدود. فمن أجل الوصل إلى السكان الذين يعانون، يحتاج المرء لاتفاق أو تساهل من السلطات التي تضطهدهم، ومن أجل لي سلاح الدول العنيدة، يحتاج المرء لتعهد الدول الأخرى أو إلى القبول بالقواعد المشتركة، وهذا الالتزام أو التعهد لابد وأن يناقش سياسيا، مما يجعل من الضروري البحث عن الحلفاء والتعامل مع الضحايا من دون تمييز.

وباختصار، لا يمكن أن نتجنب تماما كلا من التسوية أو العنف، أو القانون المحلي أو الدولي، أو الدول، من حيث سيادتها وعلاقات السلطة بها، وتوازنها أو وفاقها. وفي دراسته عام 1859، المعنونة «بضع كلمات حول عدم التدخل» عارض «جون ستيوارت مل» التدخل، حتى لصالح الناس الذين يقاتلون من أجل تقرير مصيرهم، إلا في حالتين: الأولى حالة التدخل المضاد لتدخل دولة أخرى سعت للإخلال بالتوازن لصالح طرف في حرب أهلية أو لصالح حكومة طاغية ضد ثورة شعبها. والثانية هي حالة الحرب الأهلية التي تساوى طرفاها في القوة بما يجعل قتالهما مستمرا بلا نهاية على نحو يعرض للخطر الوجود الفعلي للمجتمع المحدد. وتذكرنا الحالة الأولى بأن مبدأ التدخل لا يمكن فصله عن السياق الدولي وعن حرب أهلية، خارج التدخل، وعن صراع داخل الدولة من الصعب حل غموضه. وتثير الحالة الثانية، مرة أخرى، شبح الحالة المتطرفة، ولكنها هنا لا تتعلق بالسلطة الشمولية لحكومة مضطهدة وإنما بجميع العقبات التي تواجه القوى المحلية المعارضة. فالشلل الكامل أو الفوضى الشاملة، من جهة، والطغيان الشامل أو «خنق الشعب» بالكامل، من جهة أخرى، هي الحالات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

القصوى التي يبدو أن الأخلاق تبيح فيها أمر التدخل، والسؤال الوحيد هو من الذي سيطبقه وما الوسائل التي ينبغي أن تستخدم في ذلك؟

والتوافق الأدنى حول «فعل شيء» في الحالة المتطرفة يستتبع، مع ذلك توازنا دقيقا للغاية - والنموذج الأمثل، «للجماعة الدولية» هو حماية السلامة البدنية، والكرامة الأخلاقية، والحرية السياسية لكل الأفراد. ومن المؤكد أن منطق التدخل الإنساني يذهب في هذا الاتجاه، ويمر كما بدا في رؤية برنار كوشنر في أربع مراحل للإنسانية: (1) مرحلة الصليب الأحمر، المرتبطة على نحو وثيق بالمساعدة في المعاناة وتهتم ألا تتخذ جانب طرف من الأطراف وألا تتخطى السلطات القائمة؛(2) أطباء بلا حدود، التي تسعى للوصول إلى الضحايا، من بيافرا إلى أفغانستان، حتى ولو ضد معارضة الحكومات القائمة، (3) الحق الجديد للحكومات المستند قانونا إلى قرارات الأمم المتحدة بالتدخل لفتح أو تأمين طرق الوصول للضحايا وحمايتهم عبر «الأرصفة الإنسانية» أو «المناطق الآمنة»، وأخيرا (4) التدخل لتحرير السكان المضطهدين من الطغاة الذين يحكمونهم. ومع ذلك، فهذه الطريقة في النظر تفترض مسبقا وجود حكومة عالمية. فقد تغاضت عن انقسام الجنس البشري لا إلى دول فحسب وإنما إلى جماعات، سواء دينية، أو ثقافية، أو لغوية، أو اجتماعية، أو سياسية، الأمر الذي يفرض الاعتراف بحقهم في تحقيق هوياتهم، طالما لا تتعارض مع حقوق الفرد وحقوق الجنس البشري.

وقد شدد «كانط» على تعددية الدول وقيمة التنوع في الوقت نفسه الذي قدم فيه أكثر المبادىء صرامة وأعطى أولوية عظمى لحقوق الإنسان، بصفته كائناً أخلاقيا وللنظرة الكونية، باعتبار أن الإنسان كائن كوكبي. ومن هنا وجد من الضروري التوفيق بين المشروعية الوحيدة للحكومة الجمهورية والحيلولة دون إقامتها بالقوة، وبين الضرورة المنطقية لإيجاد حكومة عالمية وبين الحد العملي لتحالف غامض بين الدول.

لذا فمن وجهة نظر كل من المشروعية والفعالية، نجد خصومة بين العالمية والخصوصية، كما أن احتمال التناقض بينهما - الذي يجد تعبيره في أن ما يمكن أن يكون عادلا أو صالحا بالنسبة لدولة، أو جماعة، أو فرد، يمكن أن يكون ظالما أو ضارا لغيرهم - يقود لمعضلات لا تحل، تثور عندما نواجه العلاقة بين المشروعية والفعالية ذاتهما. وسوف نتفحص باختصار كلا منهما من زوايا أربع هي: الغايات، والوسائل، وهوية المشاركين، وبنية السياق، وهو ما يعني أن حجتنا الرئيسية هي بالتحديد أنه لا توجد معضلة من المعضلات المطروحة من خلال بعد أو آخر من هذه الأبعاد، يمكن معالجتها أو حلها، من دون الوضع في الاعتبار للأبعاد الثلاثة الأخرى.

وعند تفحص أهداف التدخل الإنساني، لابد من التمييز بين الأهداف العامة طويلة الأجل والأهداف الوسيطة المحددة. فعلى المستوى الأول، تشير كلمة «إنسانية» نفسها إلى الرحمة والكرامة، وإلى احترام السلامة البدنية والكرامة الإنسانية للكائن البشري. لكن حشدا من الأسئلة سرعان ما يطفر: فهل لهدف التدخل الإنساني أن يعمل - بشكل إيجابي ولكن غير محدد زمنيا بالضرورة - على المساعدة من أجل التنمية والديمقراطية؟ أم هل له أن يكون أكثر تواضعا وسرعة ولكنه محدد على نحو سلبي، بمقاومة الآلام الناتجة عن غياب التنمية والديمقراطية، كالمجاعة والإبادة، ولوضع نهاية أو لتخفيف الكوارث الإنسانية، سواء كانت طبيعية أم من صنع البشر؟

لنميز جانبين هنا: أولاً، طبيعة التدخل (هل هو للمساعدة أم للحماية)؛ ثانيا قياس التدخل، من وجهات ثلاث هي: الأهداف المحركة، والحيز، والمدى الزمني. فهل بإمكان البعض إيقاف مذبحة معينة أو مجاعة، أو هل بإمكانه أن ينظر لها باعتبارها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جزءا من موقف معقد يتطلب الأمر علاجه بالكامل ومحاربة جذوره العميقة؟ وهل لأهداف التدخل أن تكون محلية أم إقليمية أم عالمية؟ وربما بشكل أكثر تركيزا، هل لهذه الأهداف أن تكون محددة بخطة زمنية، وفي آجال الطوارىء لتدرأ خطرا عاجلا، وتعيد تأسيس حد أدنى من الأمن والاستقرار، ومن ثم تترك للأطراف أنفسهم مهمة إكمال جانب من الهدف الماثل فيما بعد، وبالتحديد لإعطائهم فرصة الاهتمام بأنفسهم بدلا من البقاء بشكل دائم في وضع الحاجة للمساعدة أو الرقابة؟ أم هل للتدخل، خصوصا بواسطة القوة، أن يكون عنصرا فحسب ضمن استمرارية تنطلق من المساعدة لإعادة التأهيل، ومن إيقاف الحرب لإحلال السلام الدائم؟

والعقل السليم يرينا أنه من غير الممكن لأي من هذين الخيارين أن يذهب لنتائجه النهائية، لأن المعايير المنفصلة يمكن أن تفاقم الوضع لسبب أو لآخر، في مواضع أخرى، أو على المدى الأبعد، في حين أن الرغبة في معالجة كل الشرور بالعالم في الوقت نفسه ليست سوى أفضل طريقة للتقاعس عن الفعل. ومن الواضح أن الحل هو في الجمع بين الخيارين، في إطار التوفيق والحكم العملي. ولكنه يظل من المفيد الإشارة لمعضلتين عامتين ربما لم يكن التوجه المطلوب بالنسبة لهما مقبولا من الحس السليم.

أولاً، أوضاع الطوارىء (ولندع جانبا التنمية على المدى البعيد) وهي في أغلب الأوقات أوضاع معقدة، فعلى ما يبدو، بالتالي، أن مواجهة الطوارىء المعقدة لابد من إدراجها في التدخلات متعددة الوظائف. وكما تقول وصفة «توماس ويس»، فالأمم المتحدة تتوسع على نحو مطرد في العمليات متعددة الوظائف التي تجمع الجانب العسكري والإدارة المدنية (بما في ذلك الإشراف على الانتخابات، ومراقبة احترام حقوق الإنسان ودعم قوات البوليس)، والأعمال الإنسانية مع المفاوضات والقيام بالوساطة السياسية. وهذا السيناريو يطرح بوضوح، كما نرى، مشكلات عملية في الحسابات والتنسيق على مستوى الوسائل، ومع ذلك، فعلى مستوى الأهداف نفسها، يمكننا الإفادة من الاستماع إلى الرأي الذي ينذر بأن التدخلات المعقدة من الصعب مساندتها على الأجل الطويل، على الأصعدة التمويلية أو النفسية أو حتى الثقافية، وبالتالي «من العبث السعي وراء الاستخدام الطموح متعدد الأطراف للقوة» لأن «الوعد بما لا يمكن تحقيقه يعد أمرا غير أخلاقي».

لكننا نجد هنا جدلا بين الوسائل المحددة بوضوح وبين الغايات، فمن الذي يحدد ما لا يمكن بلوغه؟ والمقولتان «عبث السعي وراء الاستخدام الطموح متعدد الأطراف للقوة» و «لا أخلاقية استخدام القوة متعددة الجنسية الذي لا جدوى من ورائه» تصلحان فقط في حالة عدم كفاءة الوسائل. وفي حين كان هذا الرأي على صواب واضح في موقفه ضد الالتزامات الكلامية التي لا تستند إلى نية جادة، ومصادر كافية، ودأب، من النوع الذي أعطت فيه الأزمات الجادة كأزمة يوغوسلافيا أمثلة عديدة، فالتقصير يأتي بسبب فقدان التناسب بين الغايات والوسائل، وبين الموضوعات والموارد. فهل يمكن عبور هذه الفجوة بتخفيض الأهداف فحسب أم بتنمية الوسائل والموارد؟ ومن الجلي أن هذه قضية أولويات، وأن هذه الأولويات يمكن أن تتطور بمرور الوقت، ليصبح التعهد الأولي نوعا من الحث على الاستمرار أو المزيد من الانخراط. وهذا هو المنحدر الزلق الذي حذر منه البعض، بسند معقول لو فكرنا في فيتنام وأعراض ما بعد فيتنام، بمعنى الخوف من التورط ورفض المجازفة بالخسائر. ومن المؤكد أن القائم بالتدخل، سواء كان دولة أو منظمة دولية، سيكون بلا خلق وغير كفء إذا لم يخطط للخطوات التالية في حالة الفشل، لكن المتدخل سوف يحرم نفسه من أداة دعم قوية إذا كان من يسعى للتأثير فيهم مقتنعين سلفا أنه سيقلص بالأحرى من وعوده وأهدافه بدلا من أن يعمل على تنميتها. وقد ارتكب حلف الأطلنطي هذا الخطأ المزدوج في كوسوفا، فمع زهوه بالنجاح السريع للضربات الجوية، لم

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

يضع في اعتباره مقدما البدائل الممكنة، ومن ثم استبعد ببساطة التدخل الأرضي.

ومن ثم تأتي الملاحظة الثانية المخالفة للأفكار الشائعة، فرغم أنه من المؤكد، أن البعض كان على حق مبدئيا في إبراز وضوح الأهداف ضمن شروط التدخل متعدد الأطراف المكلل بالنجاح، هناك استخدام أخلاقي جيد للغموض، على غرار ما قاله «تاليران» من أن التشريع عليه أن يكون مختصرا وغامضا، وكما قال البعض فإن «الجماعة الدولية تتواجد فقط عندما تكون بضع دول قليلة على استعداد للعمل معا» لذا لابد لهذه الدول من حد أدنى واضح من الاتفاق، كما أن عليها العمل وفق تسوية ضمنية تتضمن عدة تدابير، وبرامج، أو على الأقل عدة أولويات (بشكل خاص إذا كان عليها القيام بشيء آخر غير الحد الأدنى المشترك، المتفق عليه، والمحكوم عليه في غالب الوقت بتضاؤل فعاليته).

لكن هذه الملاحظة تقود إلى التباس ربما كان أكثر خطورة من ذلك المتعلق بدرجة الإكراه واختيار الوسائل. فمن الواضح أن الدول المختلفة تستند لتقاليد مختلفة، وتباينات مصالح ورأي عام، كما تتباين درجات تضامنها مع اختلاف الضحايا بحكم أسباب ومعايير متنوعة للتدخل.

لذا فالتدخل، نادرا ما يتأسس بشكل حاسم على معايير موضوعية قائمة على وضع البلد الذي يمر بالأزمة، كمعيار مبدأ التناسب، الذي يشترط أن «العمل الإنساني لابد وأن يتعادل مع درجة المعاناة، أينما حدثت»، بل أكثر من ذلك، فالمضاهاة التي طلبها الفيلسوف الفرنسي بول ريكير بين كم المعاناة المرفوعة مع كم المعاناة المبتلى بها في العملية، ستتعرض باستمرار للتعديل عبر درجات الأولوية المختلفة المعينة من قبل الحكومات والشعوب للحياة وللمعاناة الإنسانية بحسب ما إذا كان الأمر يخص المواطنين أو الأجانب، أو المجموعات التي لها ارتباطات تاريخية، وثقافية، ودينية أم لا، وكذلك بالطبع المجموعات التي تمت الدعاية عن محنتها بشكل واسع في التلفزيون. وقد أظهر قصف كوسوفا على نحو واضح تماما هذه التراتبية في القيم المعمول بها خاصة بواسطة الأمريكيين فيما يخص حياة جنودهم، وحياة السكان المدنيين الصرب وحيوات الضحايا الألبان.

وهذه بالفعل واحدة من الوظائف الرئيسية للمنظمات الدولية، الحكومية وغير الحكومية، وللسلطات الأخلاقية الأخرى أو صناع الرأي، وهي محاولة إيجاد التوازن والدفاع عن أسبقية العدل والأخوة العالمية على المصالح والعلاقات الخاصة. مع ذلك، فلو صارت وجهة النظر العالمية فقط هي الوحيدة المشروعة، وإذا كان أي تدخل يهم أطرافه إلى حد ما مستبعدا بالضرورة، فإن النماذج من أمثال «بول بوت» و«أمين دادا» في هذا العالم ستظل في السلطة طالما كان من غير المفترض أن تتحرك «الجماعة الإنسانية العالمية» بدلا من الفيتناميين والتنزانيين الذين لم يكن يعنيهم كثيرا الدفاع عن حقوق الإنسان ولكنهم على الأقل قاموا بتخليص الشعوب الكمبودية والأوغندية من طغاتهما.

والتدخل وعدم التدخل في رواندا وبوروندي وزائير بين 1994و 1998مثال آخر على التأثير المتبادل بين المجال الإنساني وقوة السياسة، وعلى حاجة العمل الإنساني لأن يدخل في حسابات السياسة لو أراد أن يكون له صوت مسموع بغير أن يضحي برسالته.

كما يشمل التساؤل أيضا الوسائل، وهوية المتدخلين الإنسانيين، وكامل بنية النظام العالمي.

وبخصوص أخلاقية الوسائل المتبعة، من البديهي أن الإقناع مفضل على الإكراه، والعقوبات الإيجابية مفضلة على العقوبات السلبية، والضغط الديبلوماسي مفضل على الحظر الاقتصادي والحصار العسكري، والعقوبات الاقتصادية مفضلة على الحرب، والتحذير الجاد ومهاجمة الزعماء المجرمين مفضل على القصف العشوائي على

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الشعوب. ومع ذلك، ففي بعض الحالات، لا تنجح المفاوضات أو أعمال الإقناع بغير التهديد أو فرض الإلزام، كما أنه من الواضح أن الحظر الاقتصادي يمكن أن يكون فاعلا على المدى البعيد أكثر منه في أوضاع الطوارىء، وأنه يتسبب مع ذلك في الضرر غير المشروع لعدد أكبر من الناس لا يتسبب فيه العمل العسكري المؤقت السريع، لكن هذا الأخير، لا يمكن أبدا ضمان ألا يقضي إلى عمل عسكري موسع وألا يصيب في ضربه ضحايا أبرياء.

فتنوع الوسائل (باستبعاد بعضها المتطرف) مطلوب إذن، وغير ممكن تجنبه في الوقت نفسه. والسؤال يدور حول ما إذا كان من الوارد استخدامها جميعا معا في الوقت نفسه، والمكان نفسه وبواسطة المشاركين أنفسهم. ومن البديهي تماما أن المساعدة الاقتصادية والحظر الاقتصادي لا يمكن أن يتطابقا معا، وكذلك الحال بشأن إعمال الحفاظ على السلام وتقويته في الوقت نفسه. وكثير من المنظمات الإنسانية يدين فكرة «إنسانوية الدولة» التي يثني عليها برنار كوشنر، وهم يفضلون أن يعمل الأطباء والمنظمات الإنسانية في مساعدة الضحايا بغير التخلي عن حيادهم باتخاذ مواقف سياسية، وأن تعمل الحكومات من أجل مصالحها بغير إضفاء أقنعة الإنسانية عليها، وأن يعمل الجنود بوصفهم جنودا لا ممرضات أو رجال بوليس، كما يفضلون ترك مهمة التعامل مع الجرائم ضد الإنسانية للمحكمة الدولية. وفي عالم كهذا ستكون المعضلات الأخلاقية بالتأكيد أقل من القائمة في العالم الواقعي. ولكن، في هذا العالم، ورغم أنه من المرغوب بالتأكيد أن تستخدم المهام المختلفة وسائل مختلفة على نحو متواز ولكن بانفصال، ربما كانت المساعدة الإنسانية بحاجة لحماية عسكرية، كما أنه من صالح الدول وجود نظام دولي أكثر إنسانية. وبالمقابل، فالإنساني والسياسي والعسكري بوسعهم التكامل والتجانس أحيانا، ويمكن أيضا في بعض الظروف أن يتسببوا في خلق المتاعب أو المصاعب لبعضهم بعضاً. كما أن هناك بعض اللحظات في الصراعات، تتخذ فيها مهمة إنهاء المجزرة أولوية عن التخفيف من نتائجها، وأخيرا، في بعض الظروف تتراجع بعض التدابير جزئيا.

هل كان إيقاف هتلر والمجزرة الإنسانية عملا سياسيا أم استراتيجيا؟ إن الإجابة أقل أهمية من واقع أن الحيوات أنقذت، والجرائم أوقفت، والمجرمون حوكموا. فمن الذي أنجز هذه النتيجة؟ إنها القوى الديمقراطية التي تحالفت مع قوة إجرامية والمدانة هي نفسها بالممارسات الإجرامية أو اللاإنسانية من نوع القصف المرعب للمدن الألمانية، وهذه النقطة تثير ثانية لا مشكلة وسائل التدخل فحسب وإنما مشكلة منفذيه.

وفي عالم اليوم، وعند المقارنة بحقبة الحرب العالمية الثانية، نجد أن الديمقراطية والنظام الدولي قد قطعا شوطا كبيرا في التطور، فلم تعد روسيا بعد دولة شمولية، وسوف تصبح محكمة لاهاي (حتى مع ضعف سلطتها السياسية) أكثر مشروعية من محكمة نورمبرج. ومع ذلك يظل صحيحا أنه حتى في حالة الحروب الأهلية، فإن التدخل - الإنساني أو السياسي أو كلاهما - ربما تضمن استخدام قوة عسكرية، وأن القوة، بالتعريف، لا تسمح بالضرورة بالعمل العسكري ولا بالبقاء بعيدا عن المؤاخذة من المنظور الأخلاقي. وعلى أية حال، فإن تحول الأمم المتحدة إلى حكومة عالمية، مرتبط اليوم باحتكار القوة الذي لم يعد بعد ملكا للدول - الأمم، فهل بوسع الأمم المتحدة التدخل في الصراعات القائمة بغير الانحياز لطرف من الأطراف؟ وهل بوسعها أن تخوض الحرب؟ وهو ما يعني مواجهة خطر الفشل العسكري أو على الأقل النكسات، وهل لها أن تشهد ارتكاب قواتها للمخالفات، أو على الأقل التسبب عن غير قصد في معاناة السكان؟

يبدو أنه، في الوقت الحاضر على الأقل، تنحصر المهمة العسكرية الخالصة للمنظمة الدولية في التواجد الوقائي أو حفظ السلام،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وأن استخدام القوة متروك «لتحالفات المستعدين» من الدول، ليس فقط من أجل الفعالية، وإنما أيضا من أجل المصداقية الأخلاقية. فقد أصبحت المشروعية الوحيدة التي يمكن قبولها اليوم لاستخدام القوة هي مشروعية استخدامها بشكل متعدد الأطراف، والركيزة المزدوجة التي أشار إليها البعض للتدخل المشروع أي ضرورة ضمان «توافق أخلاقي عالمي» و «درجة كفاءة معقولة»، أو الشروط الثلاثة المتمثلة في «الترخيص متعدد الأطراف»، و«ضمان تأثير محتمل»، و «توفر شرط جيد لعدم إساءة الاستخدام»، تبدو أن من الوارد أن يحدث تناقض بينها وبين بعضها بعضاً. ويبدو أن الأمم المتحدة صار لديها المشروعية وأن الدول لديها القدرة على الفعل.

وهناك تسويات بالطبع. ففي يوغوسلافيا السابقة، بدا في لحظة ما أن مجلس الأمن وحده بإمكانه تشريع استعمال القوة، والولايات المتحدة فقط بإمكانها استخدامها، وأن الاتحاد الأوروبي بإمكانه قيادة عملية إعادة البناء والاندماج اللذين يعقبان التدخل العسكري، حتى لا ينحرف هذا الأخير عن الغاية المستهدفة. ومن هنا، فالفجوة بين الأبعاد الثلاثة أمكن حصرها جزئيا، بشكل مؤقت على الأقل، بما أن حلف الأطلنطي حل محل الأمم المتحدة في قيادة الحرب وأن الولايات المتحدة أخذت على عاتقها بشكل أكثر عملية حفظ النظام في الميدان. ومع ذلك، فالتفويض، والتعاقد من الباطن، والترخيص، والتشريع عبر التكليف ستظل معابر ضعيفة بين أنواع عديدة من المنطق، كمنطق القانون والأخلاق العامين، ومنطق توافق الدول، ومنطق ديناميات الاندماج أو عدم الاندماج في الاعتماد المتبادل الاجتماعي والاقتصادي. وهذه الاختلافات المنطقية ربما أمكن التوفيق بينها معظم الوقت عبر التسوية، ولكن، وبحسب ما استنتج ماكس فيبر، هناك أوضاع تنشأ حتى عندما يكون على أي رجل دولة مهما كان حذرا ومسؤولا أن يقوم باختيار جذري ويتخذ موقفا قائما على المبادىء.

نعود إذن إلى الطابع المتناقض للنظام الدولي في المرحلة الحاضرة. فنحن لم نعد بعد في عالم كلاوسفيتز الحديث المتميز بالتعايش بين الدول، فقد عدنا لأسئلة القرون الوسطى عن السلطة المشروعة، والقضية العادلة، والتناسب، والتمييز ولكن من دون بابا أو إمبراطور، رغم أن السكرتير العام للأمم المتحدة، والولايات المتحدة يبدوان، من حين لآخر، راغبين ومبادرين في ملء جزء من هذين الدورين. ونحن تحت نفوذ العولمة والتحديث، الأمر الذي يبدو أنه يخفف من حدة التوترات القديمة، ويخلق توترات جديدة تضع حدا للحروب التقليدية، وتجعل من وجود البوليس الدولي، والمحلي، والإقليمي ضرورة أكثر من أي وقت مضى.

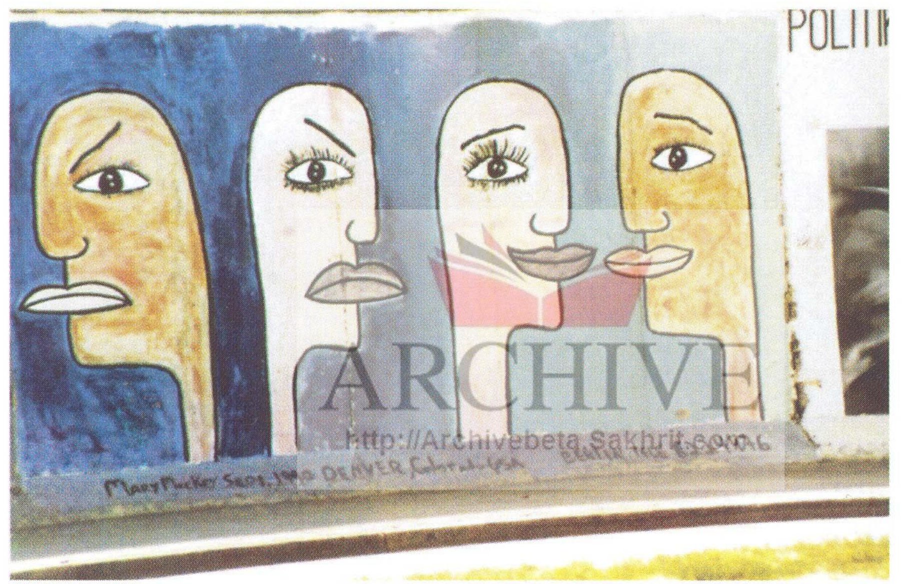
في ظل هذا الوضع، وكما سبق وأدرك كانط، هناك تطور في الوعي الأخلاقي يشق طريقه أيضا كنتيجة للتطور الاقتصادي والثقافي، لكنه ليس كافيا بعد ليتحول إلى تضامن في المصالح، وأحيانا إلى تراحم، في تحول أخلاقي حقيقي بإمكانه أن يقضي على العنف. وكما أشار في المقالات الثلاث بكتابه «مشروع للسلام الدائم»، فالأمل يتفرع في ثلاثة اتجاهات تتمايز، وأحيانا تتصارع، ولكنها تكمل بعضها بعضاً وهي ضرورة إيجاد «حكومة قائمة على التشريع»، و «تحالف بين الدول ضد الحرب»، و«قانون عالمي». وما زالت السياسة تواصل مسارها الذي تتحكم فيه المصلحة الشخصية للدول وللأفراد، لكن الوعي بالكرامة المشتركة للبشر وبإنسانيتهم بوسعه أن يفعل شيئا مختلفا على نحو مطرد. لقد كان لكانط أن يشارك، كما نحاول نحن، في طرح سؤال «هليل» الشهير: إذا لم أتكلم عن نفسي، فمن سيتكلم عني؟ ولكن إذا تكلمت عن نفسي فقط، فمن أنا؟ وإذا لم نرفع صوتنا جميعا، فمن سيقوم عنا بذلك؟ ورذا لم نفعل ذلك الآن فمتى سنفعل؟

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الدولة ومستقبل السياسة

بقلم: أوجين أنريكيز *

في كثير من البلاد لا تعاني السياسة من فقد ثقة واضح فقط ولكن المجتمع ينحو إلى التنظيم خارج الإطار السياسي.



كيف يمكن تفسير التيارات المتعارضة لرفض الدولة والاحتياج إليها والسخط أمام عجزها؟

إن مسلمة فيبير القائلة إن «الدولة تحتكر العنف الشرعي (التي يشير إليها فرويد في مقولته) إن الدولة منعت الفرد من استعمال الظلم، ليس لأنها تريد القضاء عليه، ولكن لأنها ترغب في احتكاره مثل الملح والدخان» يمكن استخدامها كنقطة انطلاق.

الدولة هي الوريث، البعيد بالتأكيد ولكنه المباشر، للسلطان المطلق للأب البدائي أو على الأصح لرئيس العشيرة. فهو الذي يعمم الممنوع ويضع قواعد التحكيم التي يفترض أنها تسمح باستتباب السلام المدني و«التجارة» (بما تعنيه من تبادل المنقولات وتبادل الحوار المدني) بين الناس، وهو الذي يقاوم بعنف عندما تتعرض مؤسساته للهجوم، وهو الذي يدعو مواطنيه للعنف عندما يقرر الدخول في حرب ضد دول أخرى. فالمؤسسة الأولى هي المتعلقة بقوة الزعيم البدائي (وهي في ذلك تقع خارج نطاق الإنسانية والقانون)، وهي التي يقوم بمحاربتها الأخوة المتآمرون الذين بعد قتل الأب سوف يقررون لتفادي الصراع بينهم وضع «القيود الأخلاقية والالتزامات والمؤسسات» التي تسمح للناس بالدخول في عالم التبادل. كما يقول

* أوجين أنريكيز: عالم اجتماع، يشترك في رئاسة تحرير «المجلة الدولية لعلم النفس»، مؤلف كتاب «من العشيرة إلى الدولة» (1983)، وكتاب «وجوه السيد» (1991)، وكتاب «التنظيم في التحليل» (1992)، وكتاب «معارك السلطة والرغبة في المؤسسة» (1998).

فرويد في عبارته الشهيرة: «تبدأ الإنسانية بجريمة مقترفة جماعيا».

جميع المؤسسات التي تهدف علنا إلى التخلص من العنف لا تستطيع إنكار حقيقة أنها خلت من العنف وللعنف، العنف الذي يصبح شرعيا لأن الخاضعين له يفضلون هذا النوع من العنف الهادئ على العنف الواضح الذي يسود عند كسر العقد الاجتماعي. لكن هنا مفارقة: إن المؤسسات التي خلقها الأخوة ضد تعسف الأب تنطبع مع استقرارها ودوامها في صورة الأب أكثر من صورة الأخوة. فالدولة، المنفصلة أكثر فأكثر عن موكليها لتصبح آلة مسيطرة على مواطنيها المتحولين إلى مرؤوسين، تتحول بالتدريج لصنم مقدس ولشيء جدير بالحب والتبجيل. هكذا، فإذا بدت الدولة محصلة لعقد بين الأخوة المتحدين، للحفاظ على حياتهم «هوبز»، وللسماح بالتبادل (لوك)، فإنها تبرز في الواقع كعارض يستقل بذاته وسوف يكشف عن وجهه الحقيقي: وجه الأب المتجبر. وهذا التحول تحقق تماما في الدولة الشمولية النازية وفي الدولة الشمولية السوفييتية. فلم يتواجد الأفراد بصفتهم أفرادا، وهم ليسوا إلا أعضاء شعب واحد (لفظ جميع القادرين على تحريفه أو تلويثه أي اليهود والشيوعيين من جهة، والغولاك والمعادين للثورة من الجهة الأخرى) مكونا أمة موحدة تماما (واحدة غير مجزأة) أيا ما كان النظام المختار والمعبر عن أساسه داخل الدولة.



دور المواطنين

لم يكن هذا التطور، لحسن الحظ، وقفا على الدول الديمقراطية. لقد طرحت تلك الدول، في الواقع، على التوالي ضرورة التجمع والترابط في شعب واحد وضرورة الحرية الفردية. والمواطن الذي أفرزته لم يعد مثل مواطن أثينا، إنسانا مخلصا أساسا للقضية العامة، ولكنه فرد قادر أيضا على ترجيح مصالحه الخاصة على المجموع رغم احترامه له. إن «المواطن المناوئ للسلطات» والإنسان المتمسك بالحرية السلبية، وبمعنى آخر الإنسان المتحدي لتوجه كل دولة لإساءة استعمال سلطتها أصبح له مكان داخل الديمقراطية الحديثة لأن الأمة «خلقت من أجله» ولم يخلق هو من أجل الأمة. ومع ذلك لم تستطع الديمقراطية أبدا الوصول إلى حل لهذا التناقض المكون لجوهرها. ففي بعض الأحيان تعطي الدول لنفسها حقوقا مفرطة، وفي أحيان أخرى يحاول الأفراد مجتمعون زعزعة هذه الوصاية مطالبين أو ثائرين أو راغبين في إسقاط هذا النظام الذي لم يعد يناسبهم. ولم يعد بإمكانه إرضائهم بالكامل في جميع الأحوال بما أن الدولة كانت دائماً مصادرة، بشكل أو بآخر، من الطبقة المسيطرة التي استطاعت، بشرط التخلي عن بعض المزايا المتبقية للمحكومين، الحفاظ على سلطتها الخاصة مدعية العمل من أجل مصلحة الجميع. ومن المؤكد أن الدولة الديمقراطية قد تطورت. وبعد الحقوق والحقوق السياسية أرغمت على منح الحقوق الاجتماعية. ولكن هذه الأخيرة أخذت بصراع كبير.

سعادة وشقاء

وبما أن الدولة الديمقراطية لا تؤدي إلا إلى انتساب متعقل وجزئي دائما. فالمواطنون، أيا كانت وطنيتهم، لا يظهرون تجاهها ثقة عمياء. وإذا وثقوا بها تماما، يمكن للدولة إساءة استعمال سلطتها، بما أن جوهر كل سلطة هو التمادي إلى ما لانهاية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إذا لم يقابلها أي عائق. ومع ذلك فهم يعتقدون أن الدولة، رغم عيوبها واتجاهها في التعبير قبل كل شيء عن اهتمامات الفئات صاحبة التأثير الاجتماعي، إلا أنها المجسدة لإرادتهم. ومن وجهة النظر هذه فهم يصوتون لانتخاب ممثليهم ويعهدون بمصيرهم لعدد صغير من الأشخاص المستنيرين نظريا بـ«نور العقل» والقادرين على خدمة المصلحة العامة. والحال أن هؤلاء الأشخاص «الفاضلون طبيعيا» (بما أن الديمقراطية لا تستطيع القيام إلا على الفضيلة، حسب مقولات مونتسكيو) يجدون أنفسهم موكلين بمهمة إن لم تكن مستحيلة فهي على الأقل في غاية الصعوبة.

فقد صار عليهم أن يفكروا في مهنتهم الخاصة (من واقع الاحتراف المطرد للسياسة)، وأن يكونوا أطهارا مع حماية أنفسهم من الفساد (في حين أن المفسدين كثيرون ويقتحمون غرف انتظارهم)، وعليهم اتخاذ القرارات الأكثر ملاءمة والقادرة على جمع تأييد أكبر عدد وعليهم خاصة قبل كل شيء السماح للجماهير بالوصول إلى الرفاهية، وإذا أمكن للسعادة. من مثل هذه الالتزامات نتجت الذرية المتفق عليها للتشريعات الأوروبية التي توالت منذ نهاية القرن الثامن عشر. وإذا عرفت فرنسا بمفردها الثورة، فعلينا ألا ننسى أن مثلها العليا ناتجة هي نفسها من وثيقة الحقوق الإنجليزية ومن إعلان الاستقلال الأمريكي، وأن هذه أصبحت المراجع الأساسية لجميع الدول الديمقراطية. وأن الشعوب صارت نهمة للسعادة وتعتقد بأحقيتها فيها.

وهنا تكمن الصعوبة الكبرى إذا لم يكن المأزق. ومن البديهي أن شعبا ديمقراطيا لا يستطيع قبول حكومة لا تقترح عليه سوى التعاسة المفرطة. الديكتاتورية فقط هي التي بإمكانها فرض الاستعباد والقهر لترك الجزء الأكبر من شعبها فقيرا مهانا. وحتى، والحال كذلك، تعرف الحكومات كيف تستثير انتماء طبقة اجتماعية مستعدة تماما لمساندتها لأنها تعيش على قراراتها التي في صالحها كما تترك بعض الأهل للمغضوب عليهم بواسطة بعض الإجراءات الشعبية.

ومع أن طموح جميع الأمم يظل تأمين الحد الأقصى من السعادة الممكنة لأغلبية المواطنين. إلا أن انتصار العقلانية الآلية التي وضعت الاقتصاد والعائد في مركز القيادة أدى إلى خلق مجتمع مزدوج مؤيد للأغنياء وأصحاب السلطة وضد الطبقات الوسطى والطبقة الفقيرة. وتحولت البطالة من عرض من الأعراض إلى بنية. لقد كرست الدولة الأمة، مع هيمنة الحرية والعدالة، صورة الفرد المسؤول عن نفسه، كموضوع للقانون وموضوع للرغبة. فكيف يمكن إذن تشجيع الوصول إلى السعادة لجميع هؤلاء الأشخاص الأحرار الراغبين في شكل خاص للسعادة؟

> **إن شعبا ديمقراطيا لا يستطيع قبول حكومة لا تقترح عليه سوى التعاسة المفرطة، الديكتاتورية فقط تقدر على استعمال الاستعباد والقهر لترك الجزء الأكبر من شعبها فقيرا مهانا**

قد يمكن تسهيل سعادة جمهور ما لافتراض تشابه حاجاته. ولكن ليس بالإمكان تأمين سعادة مختلفة في كل مرة لأشخاص مختلفين، حتى إذا تجمع هؤلاء على شكل فئات (طلاب، فلاحون...) فعلى هؤلاء يقع هذا العبء، فضلا عن أنهم يطالبون به في غيرتهم على مزاياهم، ولكنهم يريدون أيضا من الدولة بناء شروط التوصل إلى السعادة. وبالتالي يطالبون بقرارات ترضيهم. ولكن الدولة، أيا كانت قدرتها على العطف أو رغبتها فيه، لا تستطيع تلبية مطلب كهذا. عندئذ يثور الأشخاص المعنيون، لشعورهم بعدم الفهم، ويقدمون الطلبات التي لا يستطيع الحكام إلا الاستجابة لها استجابة وهمية في غالب الأحيان.

ARCHIVE
http://Archive.Sakhrit.com

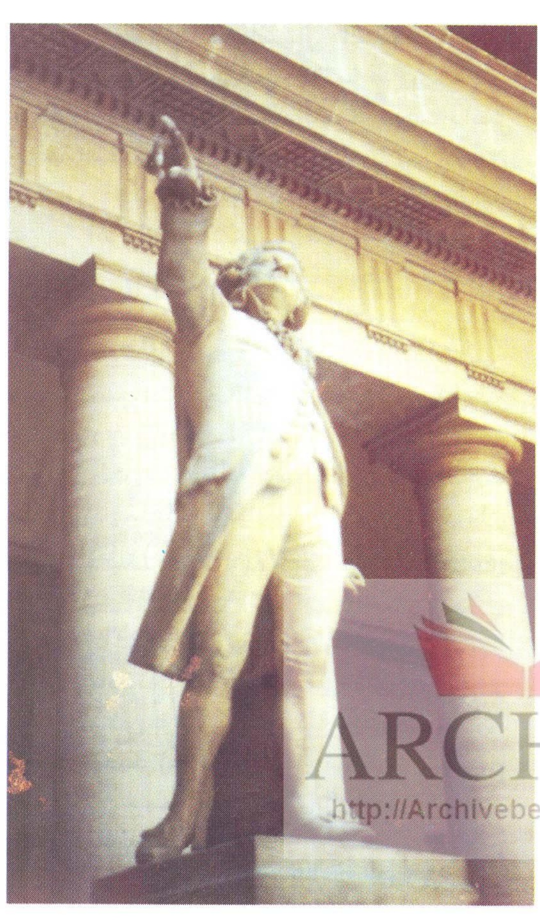
وليس الحكام بالأبرياء ولا بالفضلاء. فإذا كانت قاعدة الديمقراطية هي الفضيلة فقوامها كذلك هو الفساد. والقول بفضيلة الحكام يعني القول إن لديهم شجاعة واستعدادا للتنازل عن رغباتهم الخاصة الفساد. والقول بفضيلة الحكام يعني القول إن لديهم شجاعة واستعدادا للتنازل عن رغباتهم الخاصة استجابة للمطلب المثالي للشعب واستعدادهم للمخاطرة بحياتهم في سبيل الآخرين. ولكن لا يمكن الحكم من دون عنف بالإضافة الى أن الحكام ما هم إلا بشر وليسوا بالأبطال، وإذا كانت لديهم رغبات فإن هذه فاسدة بالتعريف.

التخفيف من الظلم

أشار «ساد» أفضل المحللين للعالم في فجر المدنية، إلى أنه يمكن دائما إيقاع الإنسان في شرك رغبته. وكما وضعت الديمقراطية الرغبة في المقدمة فقد تضاعفت الشراك. وهكذا أخذ الفساد ينخر كل الأمم الديمقراطية الكبيرة خاصة وأن الديمقراطيات قبلت قانون رأس المال. وبالتأكيد قاومت بعض الحكومات ولكن ما أصعب معركتها! وأظهرت علانية قضايا الفضائح العامة الدناءات. ومن هنا يأتي شعور أن «جميعهم فاسدون» أو، على الأقل، ليس بإمكانهم سوى توسيع هوة التفاوت والظلم.

وليس بالمصادفة أن المواطنين في السنوات الأخيرة قاموا بتفضيل حكام تبدو عليهم الأمانة على ذوي الشخصية البارزة. وهم لا يأملون في العدل ولكن في التقليل من الظلم. ومع أن «الأمناء» يقدرون على الإدارة الجيدة، إلا أنهم لن يستطيعوا أبدا اقتراح مثال منقذ، ولن يستطيعوا أيضا إظهار شفافية حقيقية، أو قول الحقيقة لأن الشفافية ليست مطلوبة إلا في النظم الشمولية والطوائف وليست واجبا إلا على المواطنين والاتباع.

لقد أثبت لويس كارول، في زمنه، أن مجتمع



الشفافية غير قابل للحياة. إذ لا يستطيع أحد الحياة تحت رقابته الخاصة. فما بالك برقابة الآخرين! ثم إن القول الصريح للأسف لا يمثل قيمة. فالبشر يفضلون الأكاذيب المهدئة، إرضاء لنرجسيتهم، فضلا عن أن الحقيقة مفزعة دائما. لذا تضطر الدول الحديثة، مثل المؤسسات لإخفاء بعض المبادلات، التي إذا كشفت سيحكم عليها بالفشل.

الاهتمام بالصالح المشترك

ما العمل لكي يقوم المواطنون سويا بإعادة تخيل حيز خاص بهم، هو حيز السياسة. السياسة وليس الاجتماع. وحذار من الوقوع في الخطأ، فالحركات الاجتماعية لا تستطيع ولا يجب عليها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أن تكون حركات سياسية. والسبب هو أن المتطلبات الاجتماعية تعبر دائما عن رغبة في عرفان الجميل والكرامة والتقدير، ولها دائما جانب متطرف وكجميع الأوهام لا تريد، عن حق، أن تأخذ الحقيقة في الاعتبار. وهي تعبر عن الغرائز والانفعالات التي تحرك كل أو جزءاً، من الشعب. وتعلن عن القلق وعن «اللغط» المصاحب للحياة الاجتماعية. ويأتي يوم، بالتأكيد، يكون فيه على الحركات الاجتماعية قبول تسويات، آخذة في الحسبان الواقع الاقتصادي والضغوط، الحقيقية أو المفترضة للعولمة. ولكن وفي تلك الأثناء تكون قد سمحت لبعض «الجماعات المتكتلة» (سارتر) ولـ«الفوران الاجتماعي» (دوركهايم) بالتعبير عن أنفسهم، كما تكون قد تمكنت من تسهيل تعديل في السياسة الإدارية.

إن إعادة تخيل السياسة هو شأن آخر. وهو يعني الوعي بوجهي السلطة السياسية، أي وجهها المفيد (عالم جديد والتوصل إلى قيم جديدة) ووجهها الضار، أي السلطة كفرض والتزام بالتضحية بإشباع الرغبات، وكشعور بالذنب وكتعبير عن غريزة الهدم. وبدا من هذا التقرير يمكن للحيز السياسي أن ينبسط: فالمواطن، سواء بمفرده أو في مجموعة، واعيا لحدوده ونواقصه مثل وعيه بقدرته على التفكير في الواقع بأكمله، يستطيع اقتراح أوهام واقعية. ويبدو هنا التناقض بين هذين اللفظين. ومع ذلك إذا أردنا من السياسة الإدارية أن نحلم ونفكر في أشياء غير موجودة ونعتقد فيما هو غير معقول، علينا أيضا أن نتساءل عن الطرق الواجب اتباعها لتحقيق هذه «الأوهام» تقريبا على الأقل.

ولم تكن الرغبة في وجود بشر أحرار ومتساوين في الحق إلا حلما مجنونا تحت النظام القديم، ولم تعد كذلك في أثناء الثورة. إن تصور السياسة هو تصور الحلم واستحضار جزء منه في الواقع أو فيما بعد، سيقوم آخرون بإنهاء العمل وستكون لديهم أحلام أخرى. ولن يوجد حيز سياسي من دون ابتكار حيز شعري. ولكنه لن يوجد أيضا إذا لم يحد منه العقل. فالوحيدون القادرون على الشعر والمجادلة هم البشر العارفون بأنهم «كائنات تاريخية» (و. بنيامين) وأنهم لن يستطيعوا تغيير التاريخ من دون التعاون مع آخرين في مواقع عملهم، في الجمعيات التي يكونوها وفي المحافظات المحلية الموجودة للدفاع عن المبادئ المقدسة ولديها القلق على الصالح العام. ومن المؤكد أن هذا الصالح العام يصعب تعريفه. كما أن الصالح العام لحقبة ما لا تتضح معالمه إلا عن طريق الاحتكاك الحقيقي. وهؤلاء البشر يهتمون بالمشاكل العامة على المسائل الخاصة التي تشغل في الوقت الحالي غالبية وسائل الإعلام.

تبدو صعوبة هذا العمل في أنه يواجه الميل العام للانطواء على المشاكل الخاصة والحياة الشخصية. إن الفردية الضارية والنزعة النفسانية المفرطة تشكل عوائق مخيفة، مع أنه من الواضح للباحثين في العلوم الاجتماعية أن أفراد الأمم الحديثة أقل تفتيتا مما يقال عادة. فالبشر يستجيبون بالحضور عندما يوكل إليهم عمل للصالح العام ويؤكدون تضامنهم. إذ ثمة بطولة فيما هو يومي. مع ذلك لا يجب الاعتقاد بأن «الإنسان العادي» يستطيع أن يحل محل الحكام. وعلى العكس يجب أن تطبق باستمرار الفكرة القائلة إن هذا الإنسان العادي يؤثر بشدة في القرارات السياسية. ففي حالة عدم تطبيقها سوف تنطفئ الديمقراطية بالتدريج، وسيمسك الحكام بمفردهم بالدفة وسيعم الفساد وعدم التقدير، والبشر الذين يعتقدون في أنفسهم بصفتهم أفراداً بحق لن يصبحوا إلا أدوات غير واعية لسلطة ضالة لعدم وجود عقبات في طريقها، إلى أن ينتهي بها الحال إلى الزوال في الوقت نفسه الذي تعتقد فيه أنها انتصرت.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الشعبية وأزمة الديمقراطية

بقلم: الكسندر دورنا*

يترجم انعدام مصداقية السياسة نفسه بالجنوح نحو التواضع والابتذال. والقائد الذي يثير حمية الجماهير قادر على توطيد الصلة مع المواطنين. فهل هناك استخدام جيد للشعبية؟

لم تضع العصور الحديثة نهاية السياسة، لكنها وضعت بداية لسياسة أخرى تتأرجح محاورها بين التكنوقراطية والشعبية. فعندما ينفصل منطق العقل عن منطق القلب، يمر النظام السياسي بمرحلة من التجمد. والواقع أن العجز في الكاريزما يهدد التوازن الاجتماعي. وليس هذا موضوعا للجدال بل تقرير لواقع.

والسلطة الحالية ليست على مستوى الرهانات التي تواجهها. فأمام الأمور التي تستدعي الشجاعة تقف الطبقة السياسية عاجزة. وغالبية القادة أشخاص دون المستوى المتوسط بالمعنى الاشتقاقي للكلمة، رغم كفاءتهم في عقد الصفقات، وذلك بسبب عدم وجود المشروعات الكبرى. لقد أصبح السياسيون محترفين وموظفين متحمسين لنظام مريض، وهم نتاج أفرزته أجهزة حزبية ومدارس إدارة عاجزة أمام ضخامة التحديات.

إن تواضع السياسات المحتفة الحديثة، ناهيك عن هوانها، لا يعد فضيلة، بل شكل للتخلي المتكبر وادعاء للجدية بهدف تجريد الذين يسعون لمعارضة العقل التوفيقي الجديد للامتثالية.

واقع الأمر أن الرأي العام لا يبدو غير مكترث لذلك. فالتقرير السنوي لعام 1997لمؤسسة (سوفرس) للإحصاءات، يشير إلى أن 55 ٪ من الفرنسيين قد عبروا عن رغبتهم في ظهور زعيم قوي. وهو تعبير عن الحاجة للكاريزما الطاغية والمتحمسة، والحاجة في الوقت نفسه للنظام والمشاركة، وللسلطة وللإصغاء. وتظهر بعض الوقائع الواضحة أن ما تعتبره النخبة الحاكمة خنوعا وامتثالا، لا يمثل إلا تعبيرا عن قمة جبل جليدي منساق مع التيار، يرمز إلى خيبة أمل كبيرة.

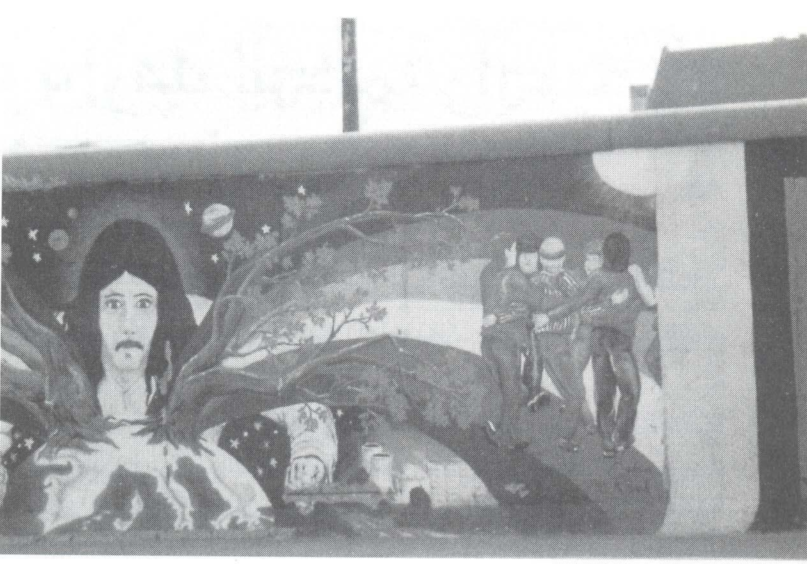
الانفصال الشعبي

يرجع الفضل إلى ماكس فيبير Max Weber في اعتبار الشعبية عنصرا أساسيا في التغيير الاجتماعي. والشعبية هي قوة وطاقة للتغيير الاجتماعي مجسدة في شخص واحد باعتباره إنسان استثنائيا. فهو قائد صاحب رسالة قوية وحماسة معدية وحلم بالقوة والعدل. من ذلك تظل فترة الحكم الشعبي قصيرة نسبيا. لأنه نظام في حالة ولادة Status Nascenti يعبر عن فترة انتقال بين القديم والجديد ويمكن أن يظهر في المجال الديني والإيديولوجي والسياسي والحربي.

ويعد بروز قائد شعبي كبير فرصة يمكن اختصار «دورتها» فيما يلي:

* أستاذ علم النفس الاجتماعي بجامعة كان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



نظام قديم- أزمة- شعبية- انفصال- نظام جديد.

تكمن الأهمية الاجتماعية للشعبية في تخطي المواقف المستعصية ومن هنا يأتي دور المحفز. ويتطلب الأمر ذكر خمسة عناصر نفسية واجتماعية غير متساوية الأهمية ولكنها حاسمة في فهم مدى هذه الظاهرة، هذه الظاهرة هي فقد التوافق الاجتماعي وتجمد الحس الاجتماعي، وتفكك الهوية، والموقف المعادي تجاه السلطة وغياب المشروع المشترك القادر على استنفار المجموع.

والدينامية الكاريزمية للانفصال ظاهرة يمكن فهمها بسهولة. فعند وجود فراغ ذاتي يحيط بالسلطة تعتقد الطبقة الحاكمة بأنها محاصرة عندئذ. يقوم منطق الانفصال الخارجي باختراق قلعة العقلانية التقليدية. وتبدو فجأة كل الوسائل صالحة بشرط الخروج من المأزق. وينقلب المنطق المعتاد وتوضع البيروقراطية محل اتهام. تبدو اللحظة غريبة لدرجة أن إنسانا منحدرا من لاشيء تقريبا يستطيع أن يتسلق لمرتبة الزعيم، وفي هذا الدليل على أن الموقف استثنائي. وهكذا تتخذ السياسة معنى مجددا آخر.

ملامح الإنسان الكاريزمي

والإنسان ذو الشخصية الطاغية (الكاريزمي) هو بالتأكيد خليط من العقل والعاطفة. والحال إنه إذا كانت صفات الرجل غير قابلة للنقاش فمن غير المفهوم تحليل بزوغ الكاريزما من دون الأخذ في الاعتبار العصور وأماكن الصراعات التي تطبع الموقف في لحظة معينة. هي الاتحاد التاريخي بين انتظار البشر وبين الرجل العظيم. يوحي هذا اللقاء المدهش بالانتماء الشخصي شبه الديني للكتلة بالقائد ويعطيه شرعيته الواسعة. ولا يملك مع ذلك هذا القائد شيئا أو بالكاد، فليس لديه جهاز ولا عقيدة ولا سلطة مسبقة ولا سلطة، إذ إن لديه فحسب طاقة رائعة تسمح له بإعادة الخلق المستمر للروابط العاطفية من خلال علاقة مباشرة.

يرجع الفضل إلى ماكس فيبير في اعتبار الشعبية عنصرا أساسيا في التغيير الاجتماعي. والشعبية قوة وطاقة للتغيير الاجتماعي مجسدة في شخص واحد باعتباره إنساناً استثنائيا

والنبوة هي الوجه الأول للشعبية، وقد جعل فيبير وفرويد من موسى النموذج الأقدم. فالنبي المخلص هو الوجه المثالي المحمل **بالذاتية**. وهو الناسك الإيجابي الذي يسعى بجهد عظيم بين العالم المعاش وبين الرؤية الجديدة للخلاص. كما

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يظهر النبي في موقف يعاني فيه التجمع الإنساني من قدر كبير من عدم الاستقرار الاجتماعي.

ويوليوس قيصر هو الرائد لشكل جديد من الكاريزما هو القيصرية، وصورة يوليوس قيصر تشبه إلى حد ما غيرها من صور الزعماء الشعبيين، فهو مزيج من الكبرياء والتلاعب والازدراء والعطف والعقل واللباقة والجلالة والتأمل. وقد اتخذ الكتاب المحدثون منه موقفا أقل تأييدا بوصفه بأنه باذخ وأناني وفظ ومتكبر. ولكن بالتأكيد تظل صور رجل الحرب هي الأفضل. فهو بارع في تجهيز ما يلزم الحرب ومبتكر وصبور وحاد الذهن وعطوف وشرس وبسيط وماكر ومستعد للهجوم. وهذه هي نقاط الالتقاء مع البونابرتية.

وقد أعطى القرن العشرون للكاريزما وجها شموليا، هو الهيمنة الكاملة من جهاز سياسي وعسكري على قمته زعماء مسيطرون ومصابون بالفصام والانحلال. كما أن المظاهر شبه الدينية المصاحبة لعلاقة الجماهير بالكاريزما الشمولية تتسع لتتخذ باسم المجتمع الشمولي شكل النوبات الحادة.

أخيرا، هناك نوع آخر من الكاريزما مرتبط بالظاهرة الشعبوية. فتمرد الحركة الشعبوية على الوضع الراهن Statu Quo يجعل النظام كله موضع شك. ويلعب القائد الشعبوي دور المحفز للإبلاغ عن عدم الكفاءة وحتى عن فساد السياسيين والنخبة التكنوقراطية الحاكمة. أما الجمهور الذي يستهدفه فيتمثل في القطاعات المتأثرة بالأزمة والمحبطين من السياسة والمذبذبين وأصحاب الحنين للتقاليد.

أعطى القرن العشرون للكاريزما وجها شموليا هو الهيمنة الكاملة من جهاز سياسي وعسكري على قمته زعماء مسيطرون ومصابون بالفصام والانحلال. كما أن المظاهر شبه الدينية المصاحبة لعلاقة الجماهير بالكاريزما الشمولية تتسع لتتخذ باسم المجتمع الشمولي شكل النوبات الحادة

وليست السياسة الشعبوية سياسة عقائدية أو لديها برنامج ولكنها ودية وبراغماتية وواضحة الانتهازية. وهي موقف يتضمن إمكانية التحقق لجميع الخطط المطروحة للبحث الاستراتيجي من أجل السيطرة على الحكم.

وموقف الزعيم الشعبوي هو موقف الأخ الأكبر القريب الباحث عن التواصل المباشر وعن الحوار. فالتواصل هنا أفقي وسهولة تخطي الألقاب تعطي وهما بالتقارب. إذ يظهر الزعيم اهتماما حقيقيا بالأشكال الشعبية للتعبير وبمشاغل الحياة الجارية. ويصاحب التبادل دائما إشارات منفتحة وأقوال ساحرة مع تلقائية مثل غمزة عين أو تحية ودية باليد أو حتى الحوار المباشر. وأتذكر هنا ب. تابي في مدينة شعبية عندما لاحظ أن زوجين في الدور الثالث يرسلون إليه إشارات ودية ويدعونه للصعود، فما كان منه إلا أن أرسل لهم تحية قائلا إنه صاعد. تلك البساطة في العلاقات لديها جانب محرر وخالق لشعور مؤثر لا يستطيع أحد تجاهله. هذه صورة الرجل الشعبي الحاضر الإنساني الذي يكشف عن نفسه من دون تصنع أو حساب.

هل يوجد استخدام جيد للكاريزما أو للشعبوية؟

إن الخطر الكامن من النوع الكاريزمي أو الشعبوي يعد في مقام سيف ديمقليدس على الديمقراطيات الحديثة، في حين أن الشعبية يمكن أن تظهر على نحو معقد ومتناقض.

فصورة رجل الدولة الحديث هي صورة تقني السلطة. وكمحترف السياسة يتكيف رجل السلطة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مع مهنته، وصفاته هي الحساب والعقلانية والانفصال العاطفي والقيم المجردة والتمسك بالحزب وهاجس المراجعة واستبدادية الوظيفة والخطاب من دون انفعال. فهو الآلة الجيدة التي صنعتها المدارس الكبرى التي تظل مدرسة الإدارة العليا ENA نموذجها.

يرسم رينيه جيرادي Rene Girardet صورة شخص أنطوان بيناي Antoine Pinay عند توليه الحكم سنة 1952. وكان قد دعي لحل أزمة خطيرة. وكانت المفاجأة عامة عندما تحول الرجل السياسي المثالي المتوسط القدرات إلى أسطورة قومية. ونرى في ذلك تناقض الموقف الكاريزمي الذي جسده رجل عادي، والغريب هو ظهور حركة شعبية واسعة إلى جانبه تعمل لصالحه بعد تنصيبه، وتفسير هذه الآلية النفسية بسيط، فـ«بيناي» المهتم بالتوازن المادي قام بتطمين الجميع. وأدت الرغبة الجماعية في الاستقرار إلى معجزة الشعبية السلبية. وأخيراً وخلال حلقة دراسية سياسية قام خبير في استطلاع الرأي بوصف لـ. جوسبان L.Jospin بما يلي: إنه شخص يمقت «التقلبات المفاجئة» وليس باللامع بل هو مهادن بالأحرى. لغته جيدة ولديه مهارة عملية. فقد تفهم في الواقع قبل غيره أن الرأي العام حاليا في حاجة للاطمئنان. وغالبا هذا هو السبب الذي يسمح له- ضد كل منطق- بالقفز بشعبيته إلى قمة الاستطلاعات في الآونة الأخيرة. فهل يجب التذكير بأن ليونيل جوسبان أصبح الشخصية المركزية لليسار بعد هزيمة الحزب الاشتراكي المهمة في انتخابات 1993. إنه يجسد صفات متناقضة: فهو رجل ينتمي لجهاز «سكرتير أول الحزب سابقا» ووريث (ثوري) لفرانسوا ميتران مع صرامة تكنوقراطية وشعور عميق مضاد للشعبوية. ولعل الاحتقار تجاه برنار تابي Bernard Tapie وللحزب الراديكالي ولرئيسه في ذلك الحين جي. ف. هوري J.F.Hory يظل دلالة للاستفهام حول شكل ومضمون صعوده للسلطة.

ليون غامبتا، وجه كاريزمي كبير، جسد في آن واحد روح الجمهورية وحساسية الديمقراطية. كما جسد العقيدة الإنسانية وفن الحكم في الوسط من دون ديماغوجية. وهذا الرجل، رمز النزاهة يقول بحق إن "أساس الديمقراطية الحقيقية هو في خلق المتساوين وليس في الاعتراف بهم"

ولافائدة من التوقف عند ذلك إذا كان هناك مجرد شبه بين جوسبان وا. بيناي. وبالمقابل فقد خرج كل منهما من وضع أزمة كان فيها شبح الحل الكاريزمي ينخر المؤسسات. وكلا منهما قدم المهارة والاحترام لوسائل الديمقراطية النيابية. فموقفهم الواعظ والتقني في آن واحد عمل على طمأنة الشعب الخائف من الوجوه الكاريزمية، سواء كانت شعبوية أم فاشية جديدة تحت قناع شعبوي.

واختيار الناخبين للأغلبية اليسارية التي يقودها جوسبان هي الإجابة العاقلة أمام الشك في بديل شعبي. ويؤكد ذلك الانفراج «الجوسباني» رغم علامات الإنهاك الظاهرة على طريقته المرنة سياسيا ولكن المتسلطة تقنيا.

خرج تابي من الساحة السياسية، ووجدت حركة المعارضة اليسارية نفسها من دون بديل. فاعتنق عدد منه منطق اليسار المتعدد بينما انضم الباقون للممتنعين وخائبي الأمل في النظام.

وكان التشظي الأخير لليمين المتطرف F.N. مفاجأة. يبدو أن التمزقات الوحشية داخل اليمين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المتطرف أعطت مساحة للتنفس لليمين. ففي هذه الأثناء يقوم رؤساء الأحزاب بتحضير الاستراتيجيات لانتخابات الرئاسة لأن الدستور الخامس يحتم ذلك. لابد من وجود رؤساء للانتخاب: جوسبان لليسار؟ وشيراك لليمين؟ وبالطبع هذا وارد جدا وشبه محزن. ولكن لا شيء نهائياً كما أن الأخطار غير مستبعدة بالفعل.

فالكسور الكبيرة في المجتمع الفرنسي لم تلتئم، والتنمية الاقتصادية مازالت تجرجر أقدامها، والإجراءات التي اتخذتها الحكومة لم توقف الأزمة، والإصلاحات لا تمس الأساسي. والجمهورية الخامسة تتقدم للخلف. أما فيما يتعلق بالاندفاع الأوروبي فيمثل امتثالية مضافة.

ويظل الموقف متعلقا باحتمال ظهور كاريزما، وهذا يعني الانتظار للبديل الجديد وزيادة معاناة جزء مهم من الشعب وخضوع الأمل لذبذبات مستمرة واستمرار فقد الثقة في السياسيين. وقد عمق «الاكتشاف» الإعلامي للفساد في الوسط الرياضي الشعور العام بالاشمئزاز. وأصبح الانغلاق على النفس قاعدة للبقاء. وتطرح مسألة الزعيم الكاريزمي كما يلي: أيوجد خطر في الاستسلام لرجل أرسلته العناية الإلهية؟

إن خطر الكاريزما الشمولية لا يحتاج لإثبات مثل وضع المسيحية والقيصرية. فنظام هتلر ومغناطسيته الشخصية يمثلان مرجعا للشر المطلق. ومع ذلك، من المفيد التذكير بأن القوة الكاريزمية لهتلر لم تكن السبب الوحيد في انهيار جمهورية فايمار، ولكنها كانت على الأصح نتيجة له. وإذا كانت شعبية هتلر أكيدة، فإن الظروف المادية والموضوعية للوضع الألماني هي التي سمحت لها بالتقدم والظهور بالشراسة التي يشهد عليها التاريخ، ومع ذلك يظل التساؤل عما إذا كان الزعيم الشعبوي يجسد الأمل في الغد؟ ولكن أي شعبوية؟

وغالبا ما يظهر الزعماء الشعبويون محبطين. فهم غير قادرين على طرح مشروع اجتماعي على المدى الطويل داخل إطار جمهوري، وإحساسهم الشديد بحسن طالعهم يجعل أغلبهم يعتقدون في أنفسهم أكثر من المؤسسات الجمهورية، وتسهيلات السلطة الشخصية، ولكن ذلك ليس لعنة وتوجد أمثلة مضادة بارزة.

فليون غامبتا Leon Gambetta، وجه كاريزمي كبير، جسد في آن واحد روح الجمهورية وحساسية الديمقراطية. كما جسد العقيدة الإنسانية وفن الحكم في الوسط من دون ديماغوجية. وهذا الرجل، رمز النزاهة، يقول بحق إن «أساس الديمقراطية الحقيقية هو في خلق المتساوين وليس في الاعتراف بهم». وهذا المفكر للممارسة الديمقراطية كان يعبر في صيغته عن الاحترام الجمهوري ومعنى التغيير: أي أن يقود القالب القلب»

وهناك رجال آخرون في تاريخ فرنسا الحديث امتلكوا هذه الموهبة الكاريزمية في خدمة الجمهورية. فجان جوريس Jean Jaures رائد الاشتراكية إنسانية وديمقراطية وقد وضع مواهبه الثقافية في خدمة الحماسة الجمهورية، أما الجنرال ديغول De Gaulle الشخصية ذات الكاريزما القيصرية، فلا يؤخذ عليه أي تصرف حيال احترام الحريات والقيم الجمهورية.

بعيدا عن حدودنا هناك رجال آخرون لهم وجه كاريزمي اتضح أنهم أدوات لا غنى عنها للصالح العام. فالتطور الديمقراطي في جنوب أفريقيا أوضح ببراعة الشعبية الإيجابية لرجل هو نلسون مانديلا.

والكاريزما الإيجابية لهؤلاء الرجال الذين يشكل انتماؤهم لمثل أعلى عادل وجمهوري بديلا يحترم المجتمع المحاصر الذي تتقاذفه الأمواج. كما أن تأثير وفشل الكاريزما السلبية يساعدان على خلق شروط انبثاق كاريزما شمولية.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الشباب والسياسة: الرفض أم الاندماج؟

بقلم: لوسي بونيه *

المبادئ الديمقراطية ليست موضع تساؤل بل كفاءة المسؤولين السياسيين الذين يعتبرهم جزءاً كبيراً من الشباب غير فاعلين وضعيفي الإرادة.

قررت أبحاث العلوم السياسية منذ 1992 وجود «أزمة في السياسة». وأشارت معطيات استقصاء الـ SOFRES التي قام بتحليلها ن. ماير N.Mayer و ب. برينو P.Perrineau (1992) إلى وجود حذر لدى الفرنسيين تجاه النظام السياسي وأن هناك تدهوراً سلبياً عاماً لصورة العالم السياسي ولرجال السياسة ذوي الاهتمامات البعيدة عن اهتمامات الفرنسيين الذين يعتبرونهم أقرب «للفساد من الأمانة». وتوطدت فكرة أزمة النيابة (روز إنفالون Rons Anvallon 1998) من خلال معارضة متزايدة للنيابة قام بها الأحزاب والزعماء السياسيون والنقابات والنقاد تجاه مسيرة الديمقراطية في فرنسا. ويبدو أن هذه الأزمة الثنائية للديمقراطية قد اتخذت حجما لا مثيل له، بالمقارنة مع الأزمات الأخرى للديمقراطية الفرنسية (التيار المضاد للبرلمانية النابع من نهاية القرن التاسع عشر الذي تطور فيما بين الحربين والتخلي عن السياسة الذي ظهر في بداية الستينيات وتنبأ بنهاية السياسة) (بيرنباوم Birnbaum، 1975). وتتدرج أبحاث ي المركزة على الشباب في التساؤل العام الناتج عن هذه الوقائع، فما هي العلاقات والمواقف والأحكام وأوضاع الإنابة في السياسة؟

دور المواطن واستقلالية الفرد

لقد أشار الاستقصاء الذي تم بين شباب المدارس الثانوية إلى أن هناك، بالنسبة لمعظمهم، ابتعادا وعدم اهتمام بالسياسة وشعورا بأن قرارات الحكومة لا تخصهم وحذرا تجاه الأحزاب والنقابات، وقد اعتبر هؤلاء الشباب أن على كل مواطن تأمين انتظام عمل الحياة السياسية. وكان تعريف المواطن لديهم أنه هو الشخص الفعال الذي تقع بين يديه مسؤولية انتظام عمل الحياة السياسية والمستعد للالتزام والتظاهر للدفاع عن أفكاره. ويبدو لنا أن هذه النتائج تظهر مفهوماً واضحا للامركزية غير مشايع للديمقراطية والمواطنية. ونجد عنه هذه الأغلبية التي يطغى عليها عدم الاكتراث أن دور المواطن يحظى بالاعتبار على حساب دور الأحزاب والحكومة،

* مديرة المدرسة العليا للدراسات الإنسانية والاجتماعية في جامعة بيكاردي جول فيرن

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويبدو أن المواطنية المباشرة «على قياس الفرد» تحل محل المواطنية النيابية المؤسسية، وأن عدم الاهتمام المتعلق بالأحزاب والمؤسسات السياسية لا تصحبه بلادة بل استعداد شخصي للالتزام والإيمان بالفرد كمسؤول عن مستقبل مشترك.

ويبدو أن المواطنية المباشرة "على قياس الفرد" تحل محل المواطنية النيابية المؤسسية، وأن عدم الاهتمام المتعلق بالأحزاب والمؤسسات السياسية لا تصحبه بلادة بل استعداد شخصي للالتزام والإيمان بالفرد كمسؤول عن مستقبل مشترك

والثقة في الفرد بالإضافة إلى الاعتقاد في قدرته المشتركين على تمثيل «فردي» أكثر شمولا بين فرد ومجتمع ينطبقوا أيضا في مجالات أخرى مثل النجاح الدراسي والحصول على عمل. وقد جرى في كل مرة إبراز لمفهوم السيطرة الداخلية على الأحداث. وساهمت هذه الإسنادات في تفسير مجموع النتائج المذكورة كتعبير عن فردية تعمل انطلاقا من مؤشرات مختلفة تكرس صعود الشخص المنفتح على السلوك السياسي الفردي الرافض لطرق النيابة التقليدية والذي يعزو نجاحه الدراسي والمهني إلى إمكاناته وعمله الخاص. وتشهد التصورات الموضحة باعتقاد واسع الانتشار في استقلالية الفرد وفي قدرته كفاعل وخالق لقدره، هذا الفرد الذي يشارك ويساهم في الحياة السياسية بواسطة التعبير العلني عن آرائه. ويبدو بالنسبة لهؤلاء الشباب الذين هم في أغلبهم غير بالغين سياسيا أنه من المكتسب أن شكلا ما من المواطنة المباشرة أصبح ضروريا ويمثل وسيلة للتأثير السياسي. وهذا التفسير متوافق مع النتائج المحصلة لأسئلة أخرى حول الاستعداد للمشاركة السياسية. هكذا يبقى الاقتراع هو شكل المساهمة المتفق عليها من الغالبية. ويسمح لنا هذا التوافق في النتائج بالاعتقاد أن قراءة الاقتراع كأهم تطبيق لمبدأ الفردية الديمقراطية الذي ينص على المساواة بين المواطنين في التعامل وخاصة على أنهم أشخاص متساوين ويشكلون مصدر الشرعية السياسية. من وجهة نظر السلوك، لا نستطيع استخلاص نهاية المواطنية ولكن بالأصح تكوين شكل فردي وعام لها ومؤثر في الوقت نفسه عن طريق الاقتراع أي السلطة الديمقراطية وعن طريق الأفكار وحريتها في التعبير أي سلطة الرأي العام وفي التعبير العلني عنها، فالفرد ليس له وزن إلا بكونه مواطناً نشطاً أو حتى معارضاً، بما أن كل فرد يعتبر جزءا من المجتمع السياسي وعليه التصرف شخصيا بدلا من التنازل للوفود النيابية. ولا يوجد ملجأ للفرد في الحياة الخاصة من خيبة الأمل ومن عدم الالتزام، ومن مفهوم التبعية لدولة العناية الإلهية، ومن مجتمع يديره آخرون ونبقى أمامه كمتفرج أو كضحية عاجزة للقدر. ولم تبد لنا «الفردية السياسية» الثابتة عند هؤلاء الشباب شاذة، بل بدت تعبيرا عن اتجاه فكري أوسع كثيرا يقوم ببناء صيغة تواصل بالمجتمع ويدخل في التطور التاريخي للحداثة وما بعد الحداثة.

من التحدي إلى الإنكار

وقد بدت لنا الانتخابات الرئاسية سنة 1995 لحظة مميزة لرصد مجالات التمثيل الخاصة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بالسياسة وبالمرشحين وبالتصويت بالاستعانة بمقابلات نصف موجهة، ومن ناحية أخرى لتوضيح المعايير التي سادت في التصرف الانتخابي بالاستعانة بمقابلات شفهية واستفتاءات عند أبواب صناديق الاقتراع لدى 685 شاباً تتراوح أعمارهم بين 18 و 25 سنة «منطقة بيكارد».



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وسوف نقدم هنا مقتطفات من المقابلات المهمة التي تجسد نوعا من الأزمة السياسية.

ولا يتعلق الأمر بعدم اهتمام بل بتحد وخيبة أمل وسخرية مرة تصل إلى حد إنكار السياسة.

«أعتقد أنه لم يعد يوجد الكثير من السياسة وأعتقد حقا أن السياسية لم تعد موجودة..

وأنها أصبحت مسألة شخصية وفردية لرجال السلطة أكثر منها سياسة جماعية واجتماعية... وأعتقد أنه لم يعد يوجد حقا سياسة في فرنسا في الوقت الحالي...»

«من الصور السياسية الساخرة إلى حد ما هي الصورة التي استطعنا رؤيتها في التلفزيون من حين لآخر، صورة السياسيين النائمين في البرلمان... أعتقد أنه شيء شاذ تماما أن نرى أشخاصا نائمين في الجمعية الوطنية وهو ما يعني في النهاية أن هذا البلد يحكمه بعض من هؤلاء الأشخاص. وهو ما أجده معبرا أولا عن السياسة في فرنسا ثم أنه مبالغ فيه لدرجة أنه مضحك إلى حد ما».

بين السياسة والسياسيين هناك اتصال مباشر يتمثل في التباعد والاختلاف والمعارضة وبين السياسات والمطلب الجماعي تحيل الخطابات إلى موقف خارجي فيما يخص رجال السياسة الذين يمكن تقسيم صورتهم السلبية إلى ثلاثة أبعاد أساسية هي البعد الاجتماعي المجسد في التباعد والجهل بمشاكل الناس، والبعد الأخلاقي المجسد في عدم الأمانة، والبعد الالتزامي الواضح في عدم قدرتهم على حل مشكلة البطالة.

وربما أمكننا الاعتقاد بأن أزمة النيابة هذه يمكن أن تمس مبدأ النيابة نفسه، ولكنه في الواقع فإن صورة النواب هي التي تعد موضع تساؤل الشباب الذين نصبوا أنفسهم قضاة على أعمالهم باسم هذا المبدأ. ومقابل هذه الصورة السلبية يظهر إيمان بالسلطة وبدور رجال السياسة مع نوع من المثالية لتصور وظيفتهم حيال الصالح العام. وقد تم استخدام هذا التناقض بين المبدأ

والواقع كعامل بنيوي لهذه المقابلات. في ذلك يبدو المشهد الذي يقدمه السياسيون مثيرا للاستنكار بخروجه على القاعدة التي تحكم صلات النائب والمنيب. فالانتقادات اللاذعة أو العنيفة ذات الصبغة التهكمية والاحتقار تبررها أمثلة ذات دلالة تؤكد على التناقض بين الواقع والمثال، وبين أفعالهم ووظائفهم وبين أفعالهم وأقوالهم.

«رجال السياسة بالنسبة لي، إنني أتابع ذلك كأنه استعراض! (ضحك) أسمع الخطب. لا أشعر فيها بما يخصني... كل هذا سريالي بعض الشيء. لدي شعور بعدم معرفتهم بالمشاكل الحقيقية، فهم لا يتحدثون فعلا بكلمات واقعية تماما... وليسوا على صلة حقيقية بالواقع».

«يسخر رجال السياسة من فرنسا. كان ذلك هو الوضع دائما. هل تجدهم يغيرون شيئا في فرنسا؟ كل من يعتقد ذلك مخطئ أو بالأحرى ساذج. أنا أعلم أنه خطأ. عند كل حملة نجد جميع الأحزاب المتقدمة لديها الخطاب نفسه. أؤكد لك، ما عليك إلا أن تسمعهم. يعتبرونك مغفلاً. يحاولون فقط التلاعب بك؟... لا يفكرون إلا في أرباحهم. لا يفعلون أي شيء من أجل فرنسا أو أحيانا يتظاهرون بالقيام بعمل ما لمداراة فراغهم، في جميع الخطب يعدون بتخفيض نسبة البطالة وبالحد من التفاوت الاجتماعي. يقول ذلك جميعهم لأنه يمس الناس... وبالطبع يترك الناس أنفسهم للتلاعب والتأثير، وينتخبون. حينئذ يقوم

الانتقادات اللاذعة أو العنيفة ذات الصبغة التهكمية والاحتقار تبررها أمثلة ذات دلالة تؤكد التناقض بين الواقع والمثال وبين أفعالهم ووظائفهم وبين أفعالهم وأقوالهم

من فاز بالتظاهر باحترام خطابه، ولكن بدلا من حل مشكلة مثل البطالة يقوم بمداراتها. انظر مثلا لعقود التضامن الاجتماعي CES: إنها تؤدي بالطبع إلى خفض نسبة البطالة ولكن إلى أي مدى، على ثلاثة أو أربعة أشهر. بعد ذلك ماذا سيفعل هؤلاء المتعاقدون؟ سيعودون إلى مكاتب البطالة ANPE وتظل نسبة البطالة عالية».

فساد وخيانة

إن الصورة السلبية ترجع عادة إلى فساد رجال السياسة وإلى خيانتهم للمصلحة الجماعية. والفساد ليس مجرد انحراف عرضي استثنائي ولكنه انحراف جوهري أصاب كل الطبقة السياسية التي تعمل لخدمة مصالحها بدلا من المصالح الاجتماعية والسياسية لمن أنابهم.

«بالنسبة لي، تذكرني السياسة أولا بفساد السياسيين وأنانيتهم بمعنى أن كل سياسي يعد بعالم أفضل، ويضع مشاريع لتحسين الحياة الاجتماعية. وفي النهاية وبعد الانتخاب يتضح لنا عدم قيامه بشيء يذكر ونسيانه للوعود التي أعطاها».

«في أثناء ذلك يتنقلون مجانا وينزلون في فنادق على حساب الفرنسيين دافعي الضرائب. تستطيع أن ترى الاحتيال في كل شيء. ففرنسا مفلسة، ونحن عبارة عن أجهزة لتوزيع الأموال يضغط عليها السياسيون عند الحاجة لمصلحتهم واحتيالهم. ولكن عندما نحتاج نحن للأموال للجامعة والمنح الدراسية لا نجدها، فهم لا يريدون

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



الدفع، ويرفضون أخذ أموالهم لأن ذلك موجع لهم».

واجب المواطن

قد نتوقع أن أزمة النيابة تلك تؤدي إلى المساس بمبدأ النيابة ذاته. والحال إنه إذا كانت صورة النواب موضع تساؤل، فالنصف الثاني من المقابلة يظهر التأكيد على أهمية الاقتراع الذي عن طريقه يريد المواطن التفاعل والتظاهر معبرا في آن واحد عن الاعتقاد في سلطة ودور السياسيين وفي نوع من المثالية المواطنية.

«سوف أنتخب لأن هناك من وهب حياته لنا، فنحن نمتلك هذا الحق، والشعب لديه حق الكلمة، أجد في ذلك شيئا مهماً، هو قاعدة حق الانتخاب، وأعتقد أنه حق أساسي».

«إن الانتخاب واجب أخلاقي... يجب أن يذهب الجميع للتصويت حتى إذا لم يكن لديهم رأي، ليضعوا ورقة بيضاء على الأقل! بالنسبة لي الانتخاب هو التزام الفرد مسؤولية بلده».

الانتخاب هو المشاركة وهو التعبير والتفاعل:

«سوف أنتخب ولكن سأضع ورقة بيضاء، أولا لأني لا أجد رجلا سياسيا يهمني ثم سأفعل ذلك للمساهمة في الإقلال من البطالة».

كل هذه المعطيات وغيرها خصوصا المقابلات الشفهية المتعلقة بالسياسة مرتبطة بالسلوك الخاص بالانتخاب وهو اختيار المرشح والتصويت بورقة بيضاء أو التصويت السلبي. وهل ذلك رفض أم اندماج؟ إنه الاثنان أيها القائد! فهو في آن واحد نقد للسياسة كما يمارسها السياسيون واندماج بالانضمام للديمقراطية والالتزام خاصة عن طريق التصويت. وبالطبع وبعد هذه النتائج المقدمة بشكل إجمالي يجب علينا تقسيمها ولكن تظل النتيجة الأساسية هي أن الرفض لدى هؤلاء الشباب أصبح محركا للاندماج.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التظاهر
شكل شرعي للمشاركة السياسة

بأوليفيه فليول *

أخذ الالتزام السياسي أشكالا متعددة، ومنذ الاستقصاءات الكلاسيكية التي طبقت فيما بعد الحرب، تم وضع محاولة بناء تصنيف لتنظيم المشاركة في الانتخاب وحضور الندوات السياسية والانضمام للأحزاب. ولم يصل مع ذلك هذا التصنيف لممارسات الالتزام إلى مداه.

إن ما يقصد عادة بمصطلح «مشاركة غير عادية» ليس موضوعا لنفس الاهتمام الذي تحظى به المشاركة المسماة «عادية». وعلى جانبي الأطلنطي ظلت سوسيولوجيا المشاركة منفصلة طويلا عن تلك الخاصة بالقيام بالتظاهر.

رغم ذلك تأتي الأحداث يوميا لتذكر بأهمية التظاهر كشكل للتعبير السياسي وكوسيلة للعقاب خارج الاستشارات الانتخابية. ولكن وخاصة أنه بين جميع أشكال المشاركة تظل المظاهرة هي المعبرة بقوة عن الالتزام. فهي تمثل أولا تأكيدا علنيا للالتزام، بما أن طبيعتها تحتم على المتظاهرين تعريض أنفسهم للنظر. ويدخلون هنا في طريقة للتعبير قد تكون صعبة التناول. فعلى سبيل المثال قد نرغب في أن يرانا الأقربون (بالتالي نتظاهر معهم) وفي الوقت نفسه لا نرغب في أن يرانا أعداؤنا (بالتالي لا نريد التظاهر تحت نظر الجميع). والمظاهرات ذات الحجم الصغير التي تتم في المدينة نفسها والحي نفسه للمتظاهرين تتطلب بهذا المعنى إصرارا أكبر من المظاهرات الضخمة التي يذوب في زحامها الجميع. ثم إن كل مظاهرة تضم مخاطر بخلاف الأشكال الأخرى للمشاركة السياسية. و«النزول إلى الشارع» هو المخاطرة بالنفس، وقد نكون هنا عندما تفسد المظاهرة وعندما تقوم قوى الأمن بالضرب وعندما تحاول الفرق المضادة للمظاهرات التهديد بعنف، لذا يبدو أن تحليل المظاهرات أساس لكل تساؤل عن تطور أشكال الالتزام السياسي.

إعادة النظر في المشاركة السياسية

إذا كانت التحليلات الخاصة بالمشاركة قد أهملت عادة الفعل السياسي الموصوف بأنه غير معتاد، فلابد من البحث عن الأسباب سواء علميا أي بتطبيق النظرة الدارجة على الطرق غير المعتادة للمشاركة أو عن طريق الوسائل المأخوذ بها عادة لدراسة السلوك السياسي. ومع ذلك فإن الملاحظة البسيطة للفعل التظاهري تجعل من غير المحتمل التقسيم المعتاد وتجبر على ابتكار طرق جديدة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

* باحث في المركز القومي للأبحاث العلمية CNRS-CRESAL، مدرس في معهد العلوم السياسية بباريس

قادرة على السماح بقراءة مستعمرة للأشكال المختلفة للمشاركة السياسية.

وعدم الاهتمام الذي وضع فيه طويلا علماء السياسة الأنجلوسكسون طرق المشاركة غير المعتادة يجد أساسه في انتمائهم للنظرية التقليدية للديمقراطية النيابية ولنظام المعايير التي يحتويها. لذا تم إقصاء واسع له من تحليلات المشاركة بوصفه عملا ينظر إليه على أنه من طبيعة مختلفة جذريا. ففي فرنسا، البلد الذي ظل معيار التاريخ فيه يقاس لزمن طويل على إيقاع الأيام الثورية وأمواج المظاهرات، اهتم علماء السياسة قليلا بالأفعال غير المعتادة، وهو ما قد يفسر في الوقت نفسه بأسباب إيديولوجية و بخاصيات تاريخية لعلم سياسي نابع من القانون، وبالتالي أكثر ارتكازا على التحليل المؤسسي والانتخابي. وفقط سنة 1971 ومع انطلاقة برنامج Political action (العمل السياسي) تم إدخال السلوك الاعتراضي في عناصر تحليل المشاركة، وفي كتابهما سنة 1979 حاول صمويل بارنز وماكس كاز تقرير ظهور عادات سياسية جديدة أساسها الفعل المباشر في ثماني دول متقدمة. وتظهر خلاصتان أساسيتان من هذه الدراسة: فقد ثبت أولا أن الستينيات والسبعينيات تميزتا برغبة في المشاركة غير المؤسسية قائمة على الفعل المباشر الذي يستبعد الطرق غير الشرعية وخاصة العنيفة منها، وكشف التحقق بعد ذلك عن استمرارية بين المشاركات التقليدية وغير التقليدية. وتقدمت حينئذ الفكرة الجديدة القائلة إن مجموعة تصرفات مواطني الديمقراطيات المتقدمة مستمرة

من بين جميع أشكال المشاركة تبقى المظاهرة من دون شك هي المعبرة بقوة عن الالتزام. فهي في الواقع تأكيد علني للالتزام

بشكل طبيعي عن طريق إضافة أشكال جديدة للعمل. وكما يفسر كاز في المطبوعة الأخيرة لمجموعة العمل السياسي Political Action أنه قد «أضيف بعد المشاركة غير التقليدية على البعد التقليدي للانتخاب الذي لم يثبت تماما في هذه الدول إلا خلال العشرينيات والثلاثينيات».

مع ذلك ورغم إدماج البعد الاعتراضي في نماذجهم لم يتحرر باحثو مجموعة Political Action تماما من المفهوم المعياري. فلا تقتصر المشاركة على الأعمال السلمية: إذ يشكل العنف وخرق القوانين جزءاً مشاركا في العمل الاعتراضي إن لم يكن أساسه. ولا يكفي توسيع قائمة الالتزامات السياسية المحتملة بإضافة مختصرة للتصرفات الأكثر بعدا عن القاعدة، ولكن يجب إعادة تقدير للصلات بين الأعمال الشرعية وغير الشرعية، بين الأفعال العنيفة وغير العنيفة داخل العمل السياسي نفسه.

وتؤدي بنا هذه الاعتبارات إلى تعريف المشاركة السياسية كما يلي: «هي كل عمل إرادي ناجح أو فاشل، منظم أو غير منظم، عرضي أو مستمر يعبر عن نفسه باللجوء للطرق الشرعية وغير الشرعية بهدف التأثير في قرار السياسيين وفي إدارة المصالح العامة أو في اختيار الحكام السياسيين على جميع مستويات الحكم سواء كانت محلية أم قومية».

وتكشف أدوات القياس التقليدية للمشاركة عن عدم قدرتها على إدراك بعض طرق العمل، فالتحقيق عن طريق الاستفتاء وهو الأداة المفضلة للدراسات الخاصة بالمشاركة لا يسمح بالتقدم في

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

معرفة التصرفات الاعتراضية الفعلية، لأن اللجوء للعمل اللا شرعي خاصة العنيف لا تمكن طبيعته من الإمساك به خلال دراسات الرأي. كما أنه لا يمكن استخدام التحقيق التقليدي بالأسئلة إلا لقياس درجة شرعية هذه أو تلك من طرق العمل عند مجموعة سكان، وهو شيء مختلف تماما عن قياس التصرفات السياسية التقليدية.

على سبيل المثال، في حالة فرنسا، يجب الاكتفاء بالإشارات الدقيقة التي يمكن العثور عليها عن تجميع آراء الفرنسيين، سلبية أو إيجابية، فيما يخص العمل الاعتراضي. وهكذا، وخلال تحقيق Sofres في 30 يناير 1987، أعلن 66 في المائة من الأشخاص المستجوبين أنهم لن يكونوا راضين أو سيعترضون على إلغاء حق التظاهر، مقابل 30في المائة من الأشخاص أعلنوا عدم انزعاجهم.

وفي أكتوبر 1990وبعد مظاهرات عنيفة من الفلاحين قدر بـ 80في المائة من الفرنسيين أن اللجوء للعنف غير مبرر أيا كان وضع الفلاحين (مقابل 20 في المائة يفكرون بالعكس) في حين تبدو المطالب الاجتماعية لهذه الفئة شرعية بالنسبة لـ٧٤ في المائة منهم (مقابل 16في المائة) إلخ. لا تستطيع مع ذلك هذه النتائج تشكيل مؤشر صحيح حتى إذا أخذنا في الاعتبار انتظامها بصفته أوضح سمة لها. يضاف إلى ذلك أن أسئلة الاستفسار تركز أساساً على الموافقة أو الرفض لهذه التعبئة أو تلك وليس على العمل الاعتراضي بشكل عام أو على الاستعداد الخاص لاستعماله، وهو ما يلاحظ في الأمثلة المطروحة أعلاه. ويتعلق إذن اختلاف الإجابات أولا بإدراك شرعية المطالب لدى فئة اجتماعية أو أخرى. وتطبيقا لذلك سوف

تتذكر المساندة والحماسة التي أثارها تنظيم تظاهرات الممرضات لدى الرأي العام سنة 1989 في حين أن مظاهرات موظفي الضرائب لم تنل استحساناً.

تشابك المشاركة السياسية

ومهما كان اهتمامنا قليلا بدراسة التظاهرات فسوف ندرك سريعا أن عزل الأعمال الشرعية أو «التقليدية» داخل ممارسات الالتزام يثير عقبات لا يستهان بها. وفيما عدا الفروق الفعلية، على سبيل المثال، بين الانتخاب ورسم الشعارات على الحوائط فإن أفعال المشاركة في أغلب الأحوال هي مركب مزيج وغير ثابت من الأنشطة الشرعية وغير الشرعية، السلمية والعنيفة المتشابكة عادة. هكذا، ومن الآن فصاعدا يتم الاعتراف بحرية التظاهر ولكنها تظل خاضعة للتصريح من السلطة الإدارية التي تستطيع حينئذ منعها. ويترتب على ذلك، كما يقول برنار دوني Bernard Denni، أن «الشرعية أو اللا شرعية للعمل الجماعي لا تتعلق بتصرف المشاركين بقدر تعلقها بموافقة السلطة السياسية عليه». يضاف إلى ذلك ببساطة أن احترام الأشكال الشرعية للمظاهرات سواء من جهة المتظاهرين أو من قوى الأمن تظل نادرة. وتظهر لنا ملاحظاتنا العملية التي أكدتها المقابلات مع مختلف المسؤولين عن الأمن بأنه يجب تمييز وضع مدينة باريس بالنسبة لمدن الأقاليم. إذ إنه في باريس يتم الإعلان عادة عن كل المظاهرات، سواء بمبادرة من المنظمات الداعية لها أو بناء على تدخل إدارة الأمن العام. أما بالأقاليم فتبقى المظاهرات المعلنة نادرة

خلال استقصاء SOFRES في 30 يناير 1987 أعلن 66 في المائة من الأشخاص المستجوبين أنهم لن يكونوا راضين أو سيعترضون على إلغاء حق التظاهر مقابل 30 في المائة من الأشخاص أعلنوا

وتخص بالأساس نشاط المنظمات الأقل «شرعية».

وتتم قراءة التواصل بين نشاط غير شرعي وشرعي على مستوى الفرد أيضا إذا ما أخذنا في الاعتبار تغيير الالتزام باختلاف مراحل الحياة. وقد قامت آن موكسل Anne Muxel بإيضاح أن سنوات الشباب تتميز بنوع من التأخير في وضع علامات الهوية السياسية، مستعملة لوصف حالة الانتظار هذه مصطلح «موراتوريوم». ويلاحظ الكاتب أيضا أن الاستعداد للمشاركة في الجمعيات الإنسانية يقل كلما تقدم العمر بالشباب كاشفا عن انتقال التعبئة السياسية نحو أشكال تقليدية للسياسة مثل فعل الانتخاب. وتستخلص آن موكسل من تحقيقها خاصة أن المتظاهرين من طلاب المدارس والجامعات في نوفمبر- ديسمبر 1986 قد أثروا على الاختيارات السياسية للشباب المشتركين، مما يسمح بالإشارة الى تأثير جيل. وهنا وبخلاف نتائج تحقيق Political Action تصبح الالتزامات البعيدة عن الديمقراطية سابقة في السلوك الفردي للالتزامات الأكثر اعتيادية وتساهم في المرور من اللامبالاة السياسية نحو المشاركة الأكثر تقليدية وهي الانتخاب.

وتوضح المعطيات المبينة هنا أنه على مستوى إدراك المتطرفين للسلوكيات الحقيقة تصبح أعمال المشاركة خليطا من الأنشطة الشرعية وغير الشرعية، السلمية والعنيفة، مع الفارق في أن العمل غير الشرعي يعتبر عاديا لدى الجميع، في حين أن الأحكام المدينة للعنف تركز في جزء محدود من المتظاهرين. وهذا التقرير الأخير يدعو

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إلى عدم التمادي في فكرة التواصل، حتى لا تؤدي بنا إلى المشاركة في الوهم السائد عن نظرية الحشود. في الواقع وباسم الفرضية الرئيسية للعقلانية التي دعت إلى تطبيع جميع أشكال المعارضة، كما أنه لو كان على أفعال ونتائج المشاركة التقليدية وغير التقليدية، والمشاركة الشرعية والعنيفة أن تأخذ جميعها المعاني نفسها. وإذا أمكن وجود وحدة في الطبيعة بين المشاركين في هذه الأشكال المختلفة للعمل السياسي وأن تكون صفة هذه الأشكال هي التذبذب التام فهذا لا يعني أن دوافع وبواعث اللجوء إلى هذه أو تلك من أشكال العمل مشتركة في الطبيعة. وكما يقترح بيفن وكلووارد Piven et Cloward «تقع المعارضة بالطبع خارج السياسة الطبيعية» وهي تعرف نفسها بأنها تعمل ضد السياسة الطبيعية، بمعنى انتهاك الناس للقواعد المحددة للطرق المسموح بها في العمل السياسي. ومن المعلوم عدم سهولة وضع الحدود بين العمل المعياري وغير المعياري بما أن المعايير نفسها غالبا ما تكون ملتبسة وخاصة عندما تصبح موضوعا للنزاع والمفاوضات. مع ذلك فإن الهياج الشعبي لا يعد انتخابا ويعرف الفرق بين الحالتين جيدا كل من المشاركين بالتظاهرات والسلطة.

إن المتظاهرين من طلاب المدارس والجامعات في نوفمبر- ديسمبر 1986 قد أثروا في الاختيارات السياسية للشباب المشارك فيها مما يدعو للإشارة إلى تأثير جيل

أزمة في المشاركة

بقلم: فرنسواز سوبيلو*

زيادة الامتناع عن التصويت تظهر فقد الثقة في السياسة. ويبدو أن المسؤولين عن الأحزاب لا يدركون أبعاد الظاهرة. فإلى متى؟

لا يتساوى الامتناع عن التصويت والاختيارات الأخرى، إنه إجابة سلبية على عرض سياسي في لحظة محددة وظرف خاص. والسلوك السياسي نتاج السببية الموضوعية يندرج تحت نظام مركب مكون من العوامل الخاصة والخيارات الإيديولوجية ونوع الانتخاب والرهانات الانتخابية. والحال إنه من الأهمية بمكان فهم أسباب الامتناع عن التصويت لما يشكله من إنذار نقدي موجه للنظام السياسي في ممارسته وفي شرعيته. وما نطلق عليه «أزمة التمثيل» وطرح الديمقراطية في المؤسسات للتساؤل يرتبط مباشرة بارتفاع نسبة الامتناع عن التصويت. بهذا الصدد تبدو النتائج الانتخابية في السنوات الأخيرة مثيرة للقلق: فلم يكف الامتناع عن التصويت عن الزيادة أيا كان نوع الاستشارة المطلوبة.

وإذا قارنا على المدى الطويل المشاركة في انتخابات متشابهة (رئاسية برئاسية وتشريعية بتشريعية) نلاحظ واقعيا أنه بعد مرور عشر سنوات من التعبئة القوية (1974-1986) زاد استمرار الامتناع عن التصويت من 5 إلى 7 نقاط في المتوسط بين كل انتخاب وآخر. وهنا تأتي زيادة الامتناع عن التصويت في الدور الأول للانتخابات التشريعية لتلقي ضوءا خاصا. فحسب التعريف الكلاسيكي تقوم الانتخابات التي تطرح صراعا بالتشجيع على المشاركة أكثر من الانتخابات «المسكنة». ويقل الامتناع عن التصويت عندما يكون رهان الانتخاب هو التناوب بين اليسار واليمين (17٪ في 1978 و21 ٪ في 1986). وعلى العكس يرتفع الامتناع بشكل خاص عندما تكون الانتخابات التشريعية مجرد تأكيد لانتخاب رئاسي يسبقها مباشرة (29 ٪ في 1981و 34 ٪ في 1998). ولكن نسبة الامتناع عن التصويت المرتفعة إلى حد ما في أثناء الانتخابات التشريعية لسنة 1993 و1998 (على التوالي 31 و 32 ٪) قامت بطرح مشكلة لأنها كانت انتخابات حول صراع وأدت إلى رجوع اليمين للحكم في الحالة الأولى والرد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

* مديرة أبحاث بمركز دراسة الحياة السياسية الفرنسية (Cevipof) المؤسسة القومية للعلوم السياسية.

على الحل المفاجئ للبرلمان الذي طرحه جاك شيراك في الحالة الثانية. وقد بدا أن هذه النتائج تشير إلى أن التناوب بين اليسار واليمين لم يعد يشكل رهانا كافيا لتعبئة الناخبين.

نلاحظ الظاهرة نفسها خلال الانتخابات الرئاسية، فلقد ارتفعت نسبة الامتناع عن التصويت بشكل طفيف خاصة في أثناء الدور الثاني لكل انتخاب منذ ١٩٨١، في حين تعلق الأمر في كل الأحوال بمساندة اليمين أو اليسار، ولهذا التطور عدة تفسيرات، فقد يكون فيه دليل على الاعتياد على التناول الذي أدى إلى إيضاح حدود التغيير السياسي الممكن أو قد يشير إلى خيبة ناخبي اليسار بعد حقبتي حكم اشتراكي دامت كل منهما سبع سنوات أو قد يكون فيه توسيع لأزمة النيابة ورفض النظام السياسي.

بعد مرور عشر سنوات من التعبئة الشديدة (1974-1986) زاد الامتناع عن التصويت بشكل مستمر من 5 إلى 7 نقاط في المتوسط بين كل انتخاب وآخر

الديمقراطي وموروث عن الأجيال السابقة التي كافحت للحصول على الاعتراف به كالتزام معنوي وواجب مدني في الوقت نفسه.. فالتصويت كمفصل حيوي بين الحق والواجب، وبين الحق والحرية وبين الحق والالتزام هو التعبير النموذج الجمهوري للمشاركة السياسية. لهذا السبب يطرح الامتناع عن التصويت مشكلة لاسيما أنه وفيما عدا الامتناع الاعتراضي الذي يمثل معطياً مستمراً، فلقد ظهر أخيراً امتناع من طبيعة أخرى أكثر تأثرا بالوضع السياسي ويرجع أساسا، على ما يبدو، إلى «زوال الوهم الديمقراطي».

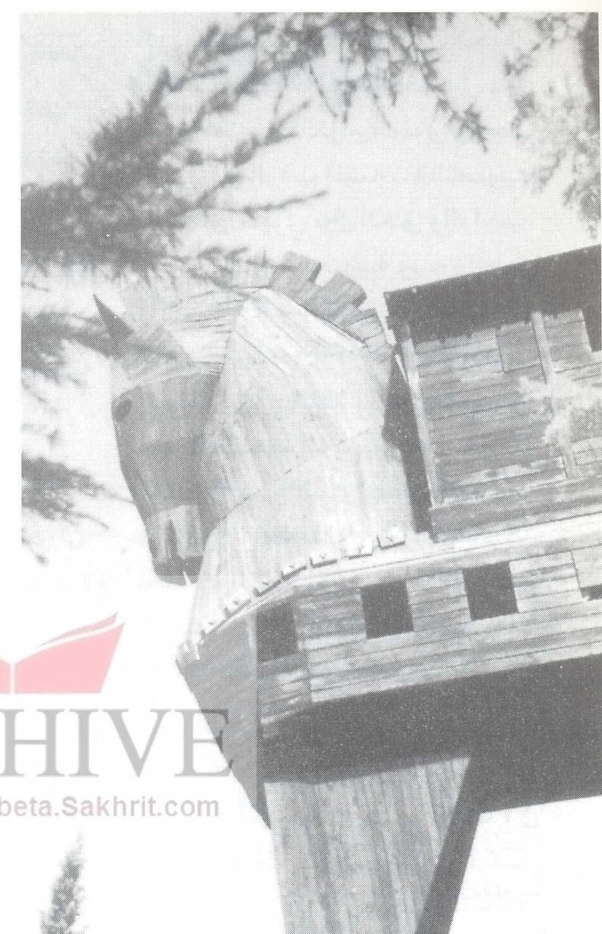
الامتناع عن التصويت: هل هو ضغينة أم خيبة أمل؟

إن دراسة الامتناع عن التصويت الانتخابي أوضحت أن الناخبين سواء الممتنعين منهم أم المشاركين (وبدرجة ما غير المقيدين) يعلقون أهمية كبيرة على فعل الانتخاب المرتبط عادة بالمساواة وبحقوق الإنسان. ويبدو التصويت كشرط للديمقراطية ولا يمكن اعتباره تصرفا لا يستدعي إلا قدرا ضئيلا من الالتزام الشخصي. فهو يحمل على العكس قيمة رمزية قوية حتى لدى من لا يمارسونه على الإطلاق أو فيما ندر. وهو قانون ارتبط دائما بالنظام

وقد يتحول البعد الاعتراضي للامتناع عن التصويت، تحت عدة شروط، إلى نوع من التصويت لصالح الجبهة الوطنية. ذلك لأن الامتناع هنا يظهر استياء الناخبين الذين لا تقدم لهم السلطة السياسية، أيا كان اتجاهها، حلولا للمصاعب الحياتية. وهو ما يمثل واحدا من أركان «أزمة المشاركة»: فنرفض التصويت لأن الانتخابات خادعة. وفي كل الفرضيات المطروحة ينسب الامتناع عن التصويت المعارض إلى التصويت الرافض، ويشكل بناء على هذا المنطق إنذارا موجها للطبقة السياسية ومعبرا عن نقد للنظام الحزبي كما يوضح عدم التوازن بين المشروع الانتخابي وبين التوقعات الشخصية.

ولكن الامتناع عن التصويت ينشأ أيضا بسبب فوضى الانشقاقات الإيديولوجية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



وغموض البرامج في الخطاب السياسي واختفاء الهويات الجماعية. فقبل كل شيء تقل الرغبة في ممارسة صفة المواطنية عند غياب العرض السياسي الجدير بالتصديق والقادر على تعبئة الناخبين. ثم أن في نقص الرؤية الإيديولوجية للأحزاب التقليدية ومع غياب المشروع المنعكس في التفاوت بين الخطاب السياسي والواقع المعاش ما يؤدي إلى إضعاف للروابط بين المواطنين والدولة وإلى ضياع عنصر مؤسس من عناصر التصويت، وهو الجانب الإيديولوجي الذي يفسر بلاشك سلوك المشاركة. لقد أدى الاحتجاب التدريجي للحزب الشيوعي والتطور الإيديولوجي للحزب الاشتراكي خلال سنوات الثمانينيات بعدد من «المحبطين من الاشتراكية» و«أيتام الحزب الشيوعي» إلى الامتناع عن التصويت. ويمكن وصف هذا النوع من الامتناع بـ«استراتيجي» أو «انتقائي»، فهو اختيار مبيت من جانب الناخبين الاشتراكيين تبعا للمكان والزمان وموضوع التصويت. وعلى العكس من الامتناع الاعتراضي القائم على الحقد والمتأثر بمغريات الجبهة الوطنية فإن الامتناع الاستراتيجي القائم على زوال الوهم سوف يتنازل في أغلب الأحيان أمام الإرادة في مقاومة صعود اليمين المتطرف والمساهمة في حماية الحريات الديمقراطية.

رفض التصويت

«بالنسبة لي، فسوف أمتنع عن التصويت أو سوف أضع بطاقة بيضاء أو سأعطي صوتي للخضر البقية لا تخصني» هذا التصريح من جانب ناخب يرجع امتناعه عند الاستفتاء على معاهدة ماستريتش يوضح لنا ما هو «رفض التصويت» أو رفض الاختيار المقترح. وإذا اتفقنا على فكرة أن الامتناع والتصويت ببطاقة بيضاء ولاغية يحملان إلى حد ما المعنى نفسه الذي يحمله التصويت لصالح الأحزاب الصغيرة «الخارجة عن النظام» فلا يبقى لنا إلا الاعتراف بتحول الناخبين عن النظام الحزبي التقليدي.

وهكذا، على سبيل المثال، في الدور الأول للانتخابات التشريعية لسنة 1993 قام أكثر من نصف الناخبين المسجلين برفض التصويت للأحزاب الحكومية «55 ٪». وكانوا أقل عددا في الدور الأول للانتخابات التشريعية لسنة 1997 «44 ٪» رغم انضمام حزب الخضر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

للأغلبية الحكومية الجديدة. وقد نذكر أن هذا النوع من السلوك مثل 26 ٪ فقط من الناخبين في سنة 1978 : وهكذا نستطيع قياس الشوط المقطوع في اتجاه عدم الاهتمام بالسياسة. فنلاحظ الظاهرة نفسها عند الانتخابات الرئاسية في الدور الأول، فلقد اكتسبت جبهة الرفض (الامتناع والبطاقة البيضاء والتصويت الاعتراضي) 7 نقاط بين 1988 و1995 (على التوالي 38 و 45٪). وأن رفض المشاريع الانتخابية وانتظار «سياسة أخرى» تطبع أكثر فأكثر نتائج الانتخابات. ويؤكد هذا بوضوح النقد الموجه للطبقة السياسية والشك في ديمقراطية المؤسسات. إن اللجوء للامتناع عن التصويت والتصويت ببطاقة بيضاء ولاغية أو التصويت الاعتراضي يحملان الإجابة على فقد الحوار وعلى فقد الثقة في الطبقة السياسية.

إن عدم القدرة على التعبير عن الاختيار في غياب المشاريع المحددة الواضحة يقوم بتفسير وتبرير هذه السلوكيات الانسحابية. إن ما يؤدي إلى رفض التصويت ليس هو الوعي بعدم فائدة الصوت الخاص بالنسبة للكل أو هو الشعور بعدم الكفاءة سياسيا بقدر ما هو نقص قيمة الفعل الانتخابي في ذاته. وذلك لأن الفائدة الجماعية للاشتراك أصبحت موضع تساؤل. وأفضل دليل عليه هو النتائج غير المتوقعة المسجلة عند استفتاء ماستريتش. فأمام اختيار صعب تكنيكيا ولكن منظم سياسيا (مع أو ضد الوحدة

وإذا اتفقنا على فكرة أن الامتناع والتصويت ببطاقة بيضاء ولاغية يحملان المعنى نفسه الذي يؤديه التصويت للأحزاب الصغيرة "الخارجة عن النظام" فما يبقى علينا إلا الاعتراف بتحول الناخبين عن النظام الحزبي التقليدي

الأوروبية) قام الناخبون بالتصويت بأعداد أكبر مما توقعته الاستفتاءات والمحللين. وعندما شعر الناخبون بالتبعات الملموسة للبناء الأوروبي ثم وعوا شيئاً فشيئاً بطبيعة هذا المشروع تمت اختياراتهم بناء على نظامهم التمثيلي. وهذا النظام يخضع لمنطق انتقائي يحدده الاهتمام النسبي الذي يمثله لنا تصويت ما وأيضا كفاءتنا السياسية في تقرير فعالية انتخابنا ومدى اعترافنا بشرعية المنافسة السياسية. وقد سمح هذ الاستفتاء بتصعيد أزمة القيم الديمقراطية بما أضفاه موضوعه على السياسة من أبعاد جديدة مختلفة عن الانتخاب كعمل إجرائي في حد ذاته.

يتخذ الناخبون قرارهم كل حسب منطقه الفردي وانسجامه الخاص وحسب علاقته بالسياسة ومفاهيم معينة عن الذات والحياة السياسية والمستقبل المشترك. ولا يمكن الوصول إلى فهم سلوكيات المشاركة إلا إذا رجعنا إلى التفاعل بين المواقف الفردية وبين الاختيارات الإيديولوجية وبين الوضع السياسي وبين رهان المنافسة. وفي النهاية فإن الاختيارات الانتخابية ما هي إلا محصلة نظم القياس والترتيب بين كل هذه العوامل المختلفة. وتشير أزمة المشاركة بوضوح إلى أن الفجوة بين الناخبين والنظام السياسي لا تكف عن الاتساع. وإذا تم افتراض وجود علاج لهذا التحرك في اتجاه أمركة السياسة الفرنسية فسوف تقع مهمة اكتشافه على الطبقة السياسية من دون شك.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الجبهة الوطنية او الانتساب المتناقض

بقلم: بريجيتا أورفلي*

يواجه المثل القائل «أخبرني من أنت فأخبرك لمن تعطي صوتك» مشكلة انتساب بعض الأشخاص المدانين من اليمين المتطرف إلى هذا التيار. هل يبحثون في ذلك عن الفكاك من هوية يرفضونها؟ وهل يعبر ذلك عن غاية سياسية؟

لقد نجحت الجبهة الوطنية في رهان غريب، فلقد جمعت في داخلها بين اتجاهات متعددة ومختلفة مثال أنصار اليمين الجديد وأعضاء نادي الساعة وأيضا أنصار الكاثوليكية المتطرفة إلى جانب أبناء الطبقات الشعبية. وفي الواقع فإن العمال متواجدون بكثرة في الجبهة الوطنية وينبئ هذا الانتماء السياسي عن تغيير في العادات السياسية نفسها. ومحاولة قراءة انتسابات أخرى مثل اليهود والسود وحتى النساء للجبهة الوطنية يزيد من عنف هذا التناقض بما يمثله هذا الانتساب من مواجهة لإدانة الحزب لبعض الأقليات سواء كانت دينية أم أثنية أم اجتماعية ومهنية أو حتى جنسية بكل بساطة.

كيف يمكن أن نكون يهوداً أو سوداً أو عمالاً أو نساء ثم ننتسب للجبهة الوطنية، في حين أن هذا الحزب متهم باستمرار بالعداء للسامية وبالعنصرية وبالنخبوية الفرنسية أو بالتمييز بين الجنسين؟ ويضاف إلى أنه جرت العادة في فرنسا على عدم الكشف عن الميول الحزبية أو على الأقل السياسية للأفراد. فالأحكام المسبقة عن الانتماء السياسي للآخر تفرض نفسها وتحدد إدراكنا وصورته لدينا. وعادة نقوم بالحكم مسبقا اعتمادا على معطيات واضحة ومرئية وعلى مقولات أقل وضوحا متعلقة بالإيديولوجيا نحدد بها الانتماءات السياسية للآخر. والحال إن هذه الظاهرة المتفق على نقصها تتعدى على قانون التطابق مع الغير الذي يجب أن يميز العلاقات الاجتماعية المنسجمة. أما إذا اعتقدنا عدم احتمال واستحالة أن يكون الشخص يهوديا أو أسود أو عاملاً أو امرأة وفي الوقت نفسه عضوا في الجبهة الوطنية فإن مرجعنا يصبح الفئوية أساس الانتماء النوعي والقوالب النموذجية للواقع الاجتماعي. وفي هذا السياق سيتم استبعاد التنوع الاجتماعي. ويتكون المجتمع من مجموعات مغلقة تجعل من المستحيل الانتماء لأحدها والانتساب لأخرى. وماذا عن الواقع الاجتماعي اليوم؟

لقد أظهرت أبحاث تجريبية تمت على أفراد منتمين إلى اليهود والسود أو العمال والنساء

* أستاذة محاضرة- قسم العلوم الاجتماعية- جامعة باريس5

المتعاطفين في الوقت نفسه مع الجبهة الوطنية أن لديهم نوعاً خاصاً من الانتماء المتناقض الذي يحصر الأقلية في حدود داخلية مع الحفاظ على الحدود الخارجية للأغلبية المنتمية إليها. ويدخل في تعريف الهوية المرتبط بالنماذج الاجتماعية التعبير عن مسلمات قائمة على أحكام مسبقة نتجت عن رسوخ بعض التصورات الذهبية أكثر من غيرها. وهكذا تحيل صورة اليهودي أساسا إلى مشاهد وصدمات موروثة تاريخيا «معسكرات نازية وفاشية وهتلرية ومعاداة للسامية»، كما تحيل صورة الأسود إلى الماضي الاستعماري لفرنسا و- أو للعنصرية، في حين تستدعي صورة العامل أساسا «فيما عدا التحاليل الماركسية» مشاهد الأشغال الشاقة أو الانشقاق الاجتماعي، وأخيرا تحيل صورة النساء إلى الخطاب النسوي وإلى اتجاه يساري عادة.. وبناء عليه هناك استحالة تطبيق عناصر إدراكية من هذا النوع على كل جماعة باعتبارها وحدة متناغمة. إن التفاوت الموجود بين العناصر الإدراكية التي تشكل جزءا من النظام الاجتماعي وبين العناصر الأخرى للانتماء المتناقض (للجبهة الوطنية) يؤدي إلى تنافر يحد منه ببساطة التنكر التام المتبادل.

لقد استشعر مونتسكيو هذا الموضوع غير أنه لم يطوره داخل رؤية سيكو سوسيولوجية. كيف يمكن لفرد أن يكون يهوديا أو أسود أو عاملاً أو امرأة (أي لديه انتماء ديني وأثني وجماعي أو جنسي يدخله في المجموعات المدانة من قبل اليمين المتطرف) ثم يصبح عضوا أو مشجعا للجبهة الوطنية؟ هل يعيد التاريخ كتابة الانتساب المتناقض للمجموعات المضادة متجاهلا ما نتصوره عنها؟ إن الصراع الداخلي الشخصي المفترض وجوده في هذا النوع من الانتماء سيتخطى هذا الإطار وينطبع على الصور الاجتماعية الخاضعة لمعايير متفاعلة. وقد تنهار أسس المنطق الاجتماعي المرتبط بفئوية مبسطة بسبب تلك الانتماءات «ضد الطبيعة» من مجموعات أصلية لمجموعات أخرى ذات مرجعية مختلفة تماما. وننطلق في عرض هذه الاحتمالات بدءا من عالم مرجعي هو نفسه «معنصر» يقوم على منطق الاختلاف. وهذا المنطق يشكل غالبا أساس تصوراتنا في موضوع الانتماء لمجموعة بما أنه يربطه مبدئيا بالطابع الإقصائي. وأشار بروست لهذا عندما أثار أهمية «أن تكون فيها أو لا تكون فيها».. ويبدو أن «تكون فيها» (أي تكون داخل مجموعة) يعني بالأحرى «ألا تكون في مجموعة أخرى».

عدم الأخذ بالمظهر

يدعو الانتماء الأثني والديني والاجتماعي أو الجنسي إلى التصنيف المبسط. وواقعيا يستند الإدراك للآخر عند التعريف به على عوامل مرئية واضحة (المظهر الجسدي والثياب والحركات واللغة إلخ..) واضحة الدلالة خاصة في حالة الثقافة المشتركة ولكن أيضا عند وجود عوامل أقل وضوحا فيما يتعلق بالانتماء الديني أو الاجتماعي وهي عوامل تتطلب لقراءتها نوعاً من «التدريب» الثقافي («أزرق العمل» يعني الانتماء لعالم العمال، «القلنسوة» تشير إلى الديانة اليهودية). ويقول المثل السائد «لا تأخذوا بالمظاهر». ولكن المظاهر تسهل التصنيف وتحذرنا منه في آن واحد. فقد يستمد الحس العام من عوامل سطحية، لأنها مرئية، في استنتاج انتماءات فئوية. فضلا عن أن المفاخرة بالانتماء الجماعي قد تساهم في زيادة أو نقص إدراكنا للآخر وفي تأثير المسلمات (سواء إيجابية أم سلبية) تجاه جماعة أو أخرى، أما الحالة الاجتماعية والمدنية للأشخاص فليست واضحة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بمعنى أنهم لا يشيرون إليها أو يعينونها على الفور. ورغم ذلك يبقى التصنيف مسجلا في عالمنا المرجعي ليسهل إدراكنا للآخر. وهذه المرجعية الضمنية هي أساس موقفنا (إيجابي أو سلبي ولكنه نادرا حيادي) تجاه الآخر ونحن نقيمه ونحكم عليه من خلال معارفنا الخاصة بما فيها ما نعلمه عن انتمائه الجماعي. ثم نقوم بمعاينة مسلماتنا عن الانتماء الجماعي بمفعول رجعي مدرك. وعادة ما تؤكد هذه المراجعة ما لدينا من أفكار جاهزة. فشخص يرتدي «لباس أزرق» ينتمي واقعيا إلى عالم العمال، وآخر يرتدي بدلة مع ربطة عنق هو من دون شك موظف أو مسؤول. ويبدو أن ظهور عادات ثيابية جديدة مثل «friday wear» (الذي يسمح باللبس بطريقة أكثر بساطة يوم الجمعة في المؤسسات) أدى إلى التشويش على هذه المسلمات، مثله في ذلك مثل تعميم ارتداء الجينز أو أيضا الموضة المسماة «unisex». ويبقى صحيحا وجود نوع من التصنيف لا يستند إلى أساس حقيقي يطبق عادة في غالبية التفاعل اليومي. ويضاف الى هذا تصديق التلفزيون والسينما والأدب على هذا النوع من المسلمات عن الانتماء الجماعي. فمن الرداء حتى الغذاء (Lahlou, 1998) الذين يقومون بالتعبير عن الانتماء الجماعي وذلك على الرغم من «الاختلاط» في الملبس أو الغذاء المنتشر عالميا، تظل ممارساتنا أداة تستخدم كمعايير للانتماء وحتى للمسلمات.

قليل هي مع ذلك الدراسات التي عكفت على الانتماء التناقضي وحاولت فهم، مثل مونتسكيو، كيف يمكن للفرد أن يكون في آن واحد يهوديا أو أسود أو عاملا أو امرأة وعضوا في الجبهة الوطنية

حبة رمل في عجلة مسلماتنا؟

هل يكفي الانتماء الجماعي لتعريف كل ما هو متعلق بالآخر؟ إن المتغيرات مثل السن والجنس أو الفئة الاجتماعية والمهنية حتى الدين والانتماء الأثني، تبقى جميعها مؤشرات عليه ولكنها غير نهائية. فيعتقد كل منا أن لديه المعطيات الأساسية الكافية لتعريف الآخر خاصة تلك المعطيات الاجتماعية وحتى النفسية («إنه مصاب بالهذيان» أو «عنده انفصام في الشخصية» تعبيرات دارجة في حياتنا اليومية). هذه الظاهرة منتشرة لدرجة أن الانتساب السياسي للآخرين أصبح بديهيا أيضا. إنه يساري، إنه يميني أو فاشي إلخ... وبالإضافة للمتغيرات العادية مثل السن والجنس والفئة الاجتماعية والمهنية فنحن نعرف مقدما لمن يعطي جارنا صوته.

ولكن كيف إذن يمكن تفسير وجود أعضاء بعض الأقليات المدانة من الجبهة الوطنية في داخل هذه الجبهة؟ سيعزو البعض ذلك للمازوخية... وهي إجابة سهلة ولكن غير مقنعة حتى إذا كان التفسير النفسي يبدو عمليا في بعض الحالات (انظر نظريات الشخصية التي لن نرجع لها مرة أخرى والمدروسة في Orfali، 1990، انظر أيضا Jouve وMagoudi، 1998). أما Bourdieu (1993) فقد استوحى من هذه النظرية بشكل ما في مقابلة مع شابة من الجبهة الوطنية، فريديريك، في كتابه «بؤس العالم» ليوضح فكرة التناقض والمفارقة في انتساب كل الهدف منه هو لزق الإعلانات في حين أنها لا تعطي صوتها للجبهة الوطنية. وما يحدد الانتساب السياسي المتطرف هو روح الجماعة. ولذلك يجب الإضافة على مستوى

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

التحليل الداخلي للأفراد مستويات أخرى مثل مستوى التبادل بين الأفراد ومستويات المواقف والمواقع وأخيرا الإيديولوجية. وتهتم غالبية التحاليل عن الجبهة الوطنية الآن بالجوانب النفسية والاجتماعية حتى إذا درجت هذه الأخيرة تحت مقاربة المفردات (Souchard, Wahnich, Cuminal, Wathier، 1997قاموا بوصف الأخلاق الجماعية لجان ماري لوبين، أما Ghiglione، 1998 فقد أشار أيضا للجبهة الوطنية عند تحليله للخطاب السياسي والتلفزيون). ومع ذلك هناك القليل من الدراسات التي اهتمت بالانتماء المتناقض وعكفت على شرح- مثل مونتسكيو- كيف يمكن للفرد أن يكون يهوديا أو أسود أو عاملا أو امرأة وعضوا في الجبهة الوطنية. أليس من التناقض، وحتى من غير الممكن، الانتماء لواحدة من هذه الأقليات مع الانتساب لهذا النوع من الأحزاب؟

وإذا تساءلنا عن مرجعيات هؤلاء الأشخاص أعضاء ومشجعي الجبهة الوطنية فعلينا الاعتراف بأن خطوط سير محددة أدت بهم إلى هذا الانتساب للحزب نابعة من منطقهم الخاص في التفكير في الانتماء الجماعي. فهم لا يطرحون هويتهم وتعريفهم الذاتي بغاية المقابلة بين الحق والخطأ بالنسبة لمجموعتهم الانتمائية ولكن بمعنى القلق أو الارتياح الشخصي. فيسبق العاطفي ما هو مدرك في الدافع للانضمام إلى مجموعة جديدة، بمعنى أن اختيار مجموعة كمرجع سوف يستند إلى يقين فردي يتحول عند الانضمام إلى يقين جماعي مدعم بالإدراك في هذه المرة. وفي الواقع لقد أضافوا إلى معطى واحد (الانتماء الأثني والديني والاجتماعي أو الجنسي) جهداً إرادياً هو الذي جعلهم يتصرفون بشكل مختلف عن بقية أعضاء مجموعة انتمائهم الأصلي. فعند اختيارهم لمجموعة مرجعية خاصة بهم يكونوا قد منحوا أنفسهم وسائل ذاتية وتعريفية أكثر ابتكارا وأكثر إثارة وحتى أكثر إطراء. وهم أقلية بانتمائهم الأول ويضاعفون هذا الانتماء بالانضمام لمجموعة أقلية أخرى تسمح لهم بالتخفيف من الإشارات الواقعة عليهم في مجموعة انتمائهم الأصلي. إذن هم يكتتبون في تيار غير عادي وأقلية نشطة (Moscovici, 1982, Orfali, 1990) ليتحرروا بشكل أفضل من هوية يرفضونها. ومن أجل التخفيف من الوصمة الاجتماعية الخاضعين لها بسبب مجموعة انتمائهم سوف يقومون باختيار مجموعة ذات مرجعية سياسية وبهذا يزيدون قوة تأثير ما هو سياسي على ما هو اجتماعي. ويصبح إذن من السابق لأوانه الحكم بنهاية السياسة، وتصفية الحسابات الجارية حاليا بين جان ماري لوبن وبونو مغريه تشير إلى أن المقابلة بين العاطفة والعقل في السياسة تساعد دائما على إعادة تعريف المساحة السياسية نفسها وتشير إلى الانتساب المتناقض كرهان مهم للقائمين على كل معسكر. إن أنصار «لوبن» وأنصار «مغريه» يتبادلون الاتهامات باستعمال صور سلبية كانت منتمية قبلا لخطاب الأغلبية في مواجهة أقلية الجبهة الوطنية. وسوف يتأثر الترابط الداخلي للجماعة بالاستعمال فيما بينها لخطاب الجماعات الخارجية.

هم أقلية بانتمائهم الأول ويضاعفون هذا الانتماء بالانضمام لمجموعة أقلية أخرى تسمح لهم بالتخفيف من الإشارات الواقعية عليهم في مجموعة انتمائهم الأصلي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

النساء في السياسة وأزمة التمثيل

بقلم: جانين موسوز- لافو*

تظل ساحة السلطة يحتكرها الرجال وهذا أحد العوامل الأساسية في الأزمة السياسية. ألا تستطيع النساء في مجاورتهم بالإيحاء بطريقة أخرى في ممارسة السياسة؟

أصيبت فرنسا منذ بداية التسعينيات بأزمة في التمثيل. وتظهر هذه الأزمة في زيادة الامتناع عن الانتخاب وبالتصويت لصالح الأحزاب غير الممثلة في الجمعية لوطنية حتى سنة 1997 - وخاصة في زيادة التصويت للجبهة الوطنية- وأيضا في الانتقادات شديدة الحدة تجاه الطبقة السياسية. إن الرأي العام كما نراه من خلال التحقيقات الكيفية والكمية، يلقي باللوم على «من هم فوق» لعدم اهتمامهم «بمن هم تحت» ولعدم معرفتهم بمشاركة حياتهم اليومية ولاقتصار تفكيرهم في أنفسهم. وباختصار، توجد هوة بين الشعب وممثليه، وفيما يخص التركيبة الخاصة بالطبقة السياسية تتفجر مؤاخذات أخرى مثل كونها مفرطة البرجوازية ومسنة أخيراً سيطرة الرجال عليها.

هذا اللوم الأخير أتى في مؤخرة الانتقادات لدى غالبية الرأي العام رغم أن الجمعيات النسائية تدين بقوة ومنذ سنوات عديدة التمثيل القاصر للنساء في المجالس المنتخبة. ولكن يوجد اليوم إجماع على التنديد بأن النساء يمثلن أقلية في النخبة الحاكمة.

تطور بطيء

حقا إن الأرقام لا تعطي فرنسا أسبابا للفخر في مجال التمثيل السياسي للنساء، ورغم التقدم المسجل في يونيو 1997نظل البلد قبل الأخير في قائمة الاتحاد الأوروبي- فقط أمام اليونان- فيما يخص تواجد النساء في جمعيتنا الوطنية. وذلك رغم الإنجاز الذي تحقق سنة 1997. فحتى ذلك الحين لم يكن في الجمعية العامة سوى6٪ من النساء (وهي النسبة المحققة نفسها عند انتخاب الجمعيات الأولى بعد الاستقلال). وفي سبيل النجاح في الانتخابات التشريعية سنة 1997 وتحت تأثير الحركة من أجل التعادل بين الرجال والنساء في السياسة التي كانت قد نشطت منذ 1992، أخذ ليونيل جوسبان Lionel Jospin قرارا تاريخيا مؤداه أنه على الحزب الاشتراكي ترشيح امرأة للانتخاب في 30 ٪ من الدوائر.. ليصل بهذا الشكل عدد الدوائر المحجوزة

* مديرة أبحاث CEVIPOF.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

للنساء 123 دائرة. مما ترتب عليه عشية الدور الثاني للانتخابات ارتفاع نسبة السيدات في الجمعية العامة من 6 الى 10،9٪، وبعض من هؤلاء السيدات أصبحن وزيرات ليصل العدد بعد تكوين الحكومة إلى 10،2٪ من النساء في الجمعية. وكم قيل في ذلك الوقت فقد تم تسجيل تقدم ولكننا نظل مع ذلك بعيدا خلف دول أوروبا الأخرى مثل السويد التي تحصى 40٪ من النساء في برلمانها، أو بالقرب منا هناك ألمانيا التي لديها 36٪ أو أسبانيا الكاثوليكية اللاتينية التي تعد 25 ٪. أما عن المملكة المتحدة فقد ضاعفت تمثيلها النسائي في ربيع 1997من 9 الى 18٪ فيما يخص مجلس العموم.

هناك 68٪ من الأشخاص (رجالا ونساء) يقدرون أنه "فيما يخص السياسة ومقارنة بالرجال" فالنساء "أكثر قربا للناس"

كما تبقى النتيجة سلبية إذ ما دققنا النظر في المجالس العامة (5،3٪ من النساء) أو عدد العمد (7،6٪ سنة 1995). والسلطات الوحيدة التي سجلنا فيها وضعا ملائما للنساء هي المجالس البلدية (21،2٪ سنة 1995) والمجالس الإقليمية (26٪ سنة 1998) والبرلمان الأوروبي (29،9٪ في البعثة الفرنسية سنة 1994). وخصصت الحكومة التي كونها ليونيل جوسبان في ٤ يونيو (حزيران) 1997 مكانا مهماً للنساء. فهناك على 26 وزيراً ووزير مفوض وسكرتير دولة ثماني سيدات أي نسبة 30،7٪. وهو ما لم يحدث أبدا في فرنسا. بالإضافة إلى وضع اثنتين منهن في قمة الترتيب البروتوكولي وهن مارتين أوبري Martine Aubry وزيرة العمل والتضامن وإليزابيث غيغو Elisabeth Guigou وزيرة العدل. وتم أخيراً تعيين سكرتيرين للدولة من قبل رئيس الوزراء واحد منهما سيدة، مما يرفع عدد السيدات في الحكومة إلى 9 على 28.

إسهام النساء في التغيير السياسي

مع ذلك ورغم التقدم المحقق تبقى فرنسا متأخرة جدا بالنسبة لأغلبية الدول الأوروبية الأخرى. ولهذا السبب ظهرت في بداية السبعينيات حركة من أجل إقامة التعادل في التمثيل السياسي بين الرجال والنساء. ونستطيع تأريخ بداية هذه التعبئة في 1992عندما نشرت Francoise Gaspard, Claude Servan Schreiber, Anne Le Gall لدى الناشر Seuil كتاباً عنوانه «إلى السلطة أيها المواطنات: حرية ومساواة وتعادل». فمنذ ذلك الحين تطورت الفكرة بشكل كاف لتجبر السلطات العليا في الدولة على النظر في تعديل المادة 3 من الدستور ليسجل فيها «التعادل بين الرجال والنساء في الحصول على المناصب النيابية والوظائف».

يمكننا التساؤل لماذا التعادل؟ وتكون الإجابة عادة أن السبب هو العدالة البحتة. وتضيف بعضهن إلى ذلك أن النساء يأتين بشيء مختلف للسياسة كما يمارسنها بطريقة أخرى، ويطرح إذن سؤال حول معرفة ما إذا كان تزايد وجود النساء في البرلمانات سيساهم في سد الفجوة الموجودة بين الشعب والطبقة السياسية التي تمثله. بمعنى آخر ماذا تحمل النساء السياسيات من تجديد؟ وكيف ستستطيع النساء تغيير صورة السياسيين لدى الفرنسيين؟

في سنة 1985/1984 أشرفت ماربيت سينو Mariette Sineau على تحقيق لدى أربعين سيدة سياسية (نائبات وعضوات في مجلس شيوخ وعمد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مدن كبيرة إلخ...) ولاحظت من خلال هذا التحقيق أن الأغلبية بينهن تؤكد على جانب الشعور الإنساني، وبناء عليه كتبت ما يلي: «إدارة المشاكل العامة من دون إهمال مشاغل الناس وأمانيهم واحتياجاتهم الحقيقية مما يساهم في إعادة السياسة لمعناها الأصلي، أي إصغاء أكبر واهتمام بالآخرين وتواجد متواصل» في الميدان «يسمح بالربط بين الفعل والقول. هذه هي صفات عمل النساء المتواجدات اليوم على الساحة السياسية» (القرن العشرون، اكتوبر/ ديسمبر 1994)، ومنذ ذلك الحين قامت العديد من النساء السياسيات بالتعبير عن موقفهن حول هذا الموضوع. ففي أثناء قمة أثينا في نوفمبر 1992أعلنت سيمون فيل Simone Veil أن «قلة اهتمام النساء بطموحاتهن الشخصية تساعدهن على التأثير والوصول لنتائج ملموسة. وحتى إذا اضطرت النساء للمجازفة والاقتصاد في استخدام الشكليات وعدم الحذر في الخطاب، فقد تهاجمن بإرادة وشجاعة للوصول إلى نجاح الملفات التي تدافع عنها، وقد يؤدي الالتزام بهن أحيانا إلى العناد حتى في التفاصيل إذا كانت تسمح بتقدم ملموس». نستطيع أيضا ذكر مارتين أوبري Martine Aubry التي خلال مؤتمر أمام الطلبة أشارت إلى «أن النساء أكثر واقعية لأن اهتمامهن ينصب على العمل بدلا من السلطة ومن ثم تأتين بطرق أخرى للعمل السياسي أكثر مادية وأكثر قربا من الناس».

وعلى العموم فإن جميع من أخذن فرصة الدخول في هذه الدائرة المغلقة للطبقة السياسية تؤكدن على أن عملهن في السياسة مختلف مع التأكيد على الإنصات أساسا لمشاكل السكان وعلى معرفتهن العميقة بحالتهم الخاصة وعلى رفضهن للغة السياسيين واحتياجهن لإيجاد حلول ملموسة للمشاكل. وهو كل ما يؤدي إلى تطبيق سياسة أكثر قربا من اهتمامات الناس. ولكن قلة تواجدهن أدت إلى عدم القدرة على ترسيخ التغييرات في هذا الاتجاه داخل الجمعيات التي يشاركن أو شاركن فيها. وفي الواقع سوف نرى قدرتهن على تطبيق هذا التغيير في السلوك السياسي عند مساواة التمثيل في الجمعيات أو على الأقل عندما تشكل النساء كتلة نقد حقيقية.

ومع الأخذ بكل الاحتياطات المتعارف عليها يمكن افتراض أن هؤلاء النساء اللاتي يتحملن عبء العام والخاص في الوقت نفسه بإدارتهن حياة عائلية ومهنية وسياسية قد تعودن مهما حدث على الالتزام بالوصول لنتائج. وحسب قولهم فقد تعلمن تنظيم الوقت بأفضل شكل ممكن وعدم إضاعته في سماع النقاشات المملة والعمل بهدف الحصول السريع على نتائج ملموسة، ففي العام والخاص أصبحت النساء قادرات على إيصال ما يحدث في القاعدة إلى القمة مع التفاصيل الضرورية والمعرفة اللازمة لاحتياجات «الناس».

وعلى كل الأحوال يضفي الفرنسيون على النساء صفات خاصة. وحسب استقصاء قامت به الـSofres في مايو سنة 1997هناك 68٪ من الأشخاص (رجالا ونساء) يقدرون أنه «فيما يخص السياسة ومقارنة بالرجال» فالنساء «أكثر قربا للناس»، و 64٪ يجدون أن النساء أكثر قتالية، و 59٪ يعتبرون أن لديهن شعوراً أكبر بالواقع و 57٪ يجدون أنهن أكثر انفتاحا على الأفكار الجديدة. فهناك إذن مطابقة بين ما قالته النساء عن أنفسهن وبين الصورة التي كونتها عنهن غالبية مجتمعنا.

واذا استطاعت النساء في المستقبل التواجد بعدد أكبر في الجمعيات المنتخبة فقد نستطيع الرهان على قدرتهن على تعديل مهنة السياسة وعلى تقريب النخبة السياسية من المواطن مما قد يساهم في التخفيف من أزمة التمثيل التي نعيشها اليوم.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

علم الوراثة والمجتمع وعلم الأخلاق البيولوجي

بقلم: ليونيد كوروتشكين *

ترجمة: د. أشرف الصباغ

في متاهات علم الوراثة

لقد وصلتني أخبار النعجة «دوللي» عبر البرامج التلفزيونية، وبالنسبة لمن اشتغل طوال حياته بعلم الأجنة وعلم الوراثة، لم يكن الخبر يقينا أو مقنعا، ولذا ففي اليوم التالي دخلت إلى شبكة الإنترنت وتأكدت أن «دوللي» بالفعل موجودة. حيث قام عالم الأجنة الاسكتلندي يان فيلموت، وهو مدير المعامل بجامعة روسلين، بنشر المقال في مجلة «*Nature*» ذات السمعة الجيدة، في ذلك المقال، أعلن أنه اخترع طريقة لاستنساخ (*Cloning*) الحيوانات، وهي التي كانت أساسا للحصول على النعجة التي تتكون من مادة وراثية لنعجة أكبر منها، بعد ذلك أعلن فيلموت أنه من الممكن على المستوى التقني تحقيق عملية استنساخ حيوي للإنسان رغم ما سوف يكون في ذلك من مشكلات أخلاقية وقيمية وقانونية متعلقة بالتحكم في الأجنة البشرية، وبدا أنه قد انفتحت أمام علم الوراثة آفاق جديدة ومغرية، وأخذ العلماء يفكرون في مشروعات كونية عامة شاملة، ويناقشون في جدية الجانب الأخلاقي للقضية، أما النشطاء وأصحاب الهمة «ممولو ومخططو العلوم» فقد اندفعوا في منافسة حامية لتوفير الأموال من أجل هذه المهمة.

نشر هذا المقال في العدد الرابع من مجلة «نوفي مير» (العالم الجديد) الروسية. أبريل 1999.

* ليونيد إيفانوفيتش كوروتشكين من مواليد 1935 بروفسور، وعضو مراسل في أكاديمية العلوم الروسية، ومدير المعامل بمعهد بيولوجيا الجينات بأكاديمية العلوم الروسية ومعهد بيولوجيا التطور بأكاديمية العلوم. حاصل على جائزة الدولة، وعلى جائزة ن.ك.كولتسوف.

أما الموظفون الكبار من لجنة الجيوبولوتيكا بمجلس الدوما «البرلمان الروسي» والذين لا يفقهون أي شيء، فقد أعلنوا رسميا أنهم على استعداد تام لتمويل الأبحاث والتجارب التي يمكن أن تكون من نتيجتها بعد عامين عملية الاستنساخ الحيوي للحيوانات والبشر، المدهش هو أنه كيف يمكن لمجلس الدوما أن يخطط لذلك الإهدار المتهور والصبياني غير المسؤول لموارد الدولة والتي يمكن أن تستخدم بشكل أكثر جدوى ومنفعة لدعم المشروعات العلمية المهمة والواقعية، ولكن لسبب ما لم يهتم أي أحد بأنه حتى وإن كان كل شيء على ما يرام لدى فيلموت، فإن نسبة الناتج من الحيوانات المولودة كانت قليلة جدا. نعجة واحدة فقط من 36 محاولة، فماذا حدث للبقية؟ ولدت البقية مشوهة، ثم ماتت؟ إذن فأين، على وجه الخصوص، العشيرة (Clone)، أو السلالة التي تفترض وجود العديد من النسخ؟ وهل فعلا كان كل شيء لدى فيلموت على ما يرام، وأنه فعلا حصل على ما نفخت في أبواقه التلفزيونات ووسائل الإعلام المتحمسة؟

في أحد أعداد مجلة «Science» المعروفة ظهر مقال للدكتور فيتوريو سجاراميللا من جامعة كالابري «إيطاليا»، والدكتور نورثون زايندر من جامعة روكفلر الشهيرة «الولايات المتحدة الأمريكية» ورأى كل منهما أنه لم يتم تقديم البراهين المقنعة بأن دوللي هي ناتج لعملية الاستنساخ الحيوي، إضافة الى ذلك، اتضح أن ثلاثة من كبار الباحثين العاملين في هذا المجال حاولوا إعادة إجراء تجارب فيلموت، ولكنهم فشلوا! ويشير مؤلفا هذا المقال الى احتمال خطأ علماء الأجنة الاسكتلنديين. المسألة في أن النعجة التي أخذوا منها الخلية الجسدية من أجل إنتاج دوللي، كانت حاملاً، والمعروف أن الخلايا الجينية «خلايا الجنين» لدى بعض الحيوانات يمكنه أن تقع في الجهاز الدوري «في مجرى تيار الدم»، وقد اعترف فيلموت أنه أغفل تماما هذا الظرف، ولم يستبعد إمكانية حدوث مثل هذا الخطأ التقديري في تجاربه، ومنذ فترة قريبة أثبتت الأبحاث الوراثية الجزيئية أن دوللي - هي نعجة مستنسخة، وبالتالي يمكن رفع الاعتراضات المقدمة ضد هذا الأمر.

بيد أن الأخبار العديدة من نوع أنه في اليابان تم الحصول على عشيرة من البشر، أو أن هناك قطيعاً من الأبقار المستنسخة يرعى في مكان ما، إما أنها أخبار مغلوطة أو عملية تضليل مقصودة، وعلى أية حال، ففي الأدبيات العلمية الجادة لا توجد إثباتات وبراهين لمثل تلك الأخبار، ومع ذلك فلم يقف الأمر عائقا أمام عملية الاستنساخ، بل وجعلها موضوعا رائجا لا يجتذب اهتمام المتخصصين فقط، وإنما أيضا شرائح واسعة من الجماهير العادية.

إن التعريف السائد في العلم لعملية الاستنساخ الحيوي هو: إعادة الإنتاج الدقيقة لهذا الكائن الحي أو ذاك في عدد معين من النسخ، ومن الطبيعي تماما أن جميع هذه النسخ يجب أن ترث صفات متشابهة، أي تحمل مجموعة جينات مماثلة بالضبط لجينات «الكائن الذي ولدها» خلافا للحالات التي تحدث عن طريق التناسل الطبيعي الذي يتم فيه امتزاج المواد الجينية للوالدين في كل فرد بالسلالة وبشكل مختلف. وفي مجموعة الحالات التي حدثت لم تستدع عملية الحصول على عشيرة من الحيوانات أية غرابة أو دهشة، وتعتبر إجراء روتينياً على الرغم من أنه ليس هكذا سهلا أو بسيطا. فعلماء الوراثة يتوصلون إلى ذلك باستخدام الكائنات القادرة على التناسل ليس فقط عن طريق الأجهزة التناسلية، وإنما أيضا عن طريق التوالد العذري، أي من دون عملية إخصاب مسبقة، ونظرا لأنه يتم التحكم في هذه العملية بشكل جنيني، فمن الممكن إنشاء خطوط تجري فيها عملية التكاثر عن طريق التناسل فقط. ومن الطبيعي أن أولئك الأفراد، الذين سينمون من سلالة هذه الخلية الجنسية الأولية أو تلك، سوف يصبحون من الناحية الوراثية متطابقين ويمكنهم أن يشكلوا عشيرة أو سلالة. وفي بلادنا، على سبيل المثال، توجد الأبحاث الرائعة في مجال هذا النوع من الاستنساخ والتي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يقوم بها الأكاديمي فلاديمير ألكسندروفيتش سترونيكوف على دودة الحرير بمساعدة الطريقة الخاصة التي ابتكرها، وعشائر دودة الحرير التي سيقوم بإنتاجها تتمتع بشهرة واسعة في العالم كله. بيد أنه يشير الى أن الأفراد المستنسخين لا يتطابقون مع بعضهم بعضاً، وإنما يكونون متنوعين ومختلفين على مستوى مجموعة كاملة مما يسمى بالمميزات الكمية أو الأصلية - بالنسبة لحجم الإنتاج وكثرة النسل، وهذا التنوع والاختلاف في سلسلة العشائر يكون كثيرا، بل وأكبر مما في مجموعة الخصائص العادية المتنوعة وراثياً والموجودة في هذا النوع أو ذاك من الكائنات.

هناك أيضا طرق معينة في علم الأجنة للحصول على العشائر والسلالات، فلو قمنا بتجزيء صناعي لجنين القنفذ البحري، وهو مازال في مرحلة الانقسام المبكرة، إلى الخلايا الأولية المكونة له - الخلايا الأرومية (blastomerus)، فسوف ينمو من كل واحدة كائن كامل. ولكن أثناء النمو اللاحق تفقد الخلايا الجنينية تلك الإمكانية الرائعة وتصبح مخصصة، أي غير بكرية (بمعنى أنها معدة للعمل) ومن الممكن أيضا استخدام نواة ما يسمى بالخلايا الجنينية الجذعية من أي جنين مبكر، على ألا يكون قد تم إعداد هذه الخلايا إطلاقاً أو تجهيزها للعمل، أي تكون غير مخصصة (وسوف تكون سلالتها بهذا الشكل أيضا). تلك النواة تزرع في خلايا البويضات التي أزيلت منها نواتها الأصلية، وبنمو تلك الخلايا البويضية في الكيانات الجديدة، يمكنها أيضا أن تكون مرة أخرى عشيرة حيوانات متطابقة من الناحية الوراثية. ولدى الإنسان أيضا حالة استنساخ «طبيعية» معروفة ولها خصوصيتها - وهي ما يسمى بالتوائم ذات البويضات الواحدة، والتي تتكون بفضل الانقسام الطبيعي الذي يحدث بشكل نادر للخلية البويضية المخصبة إلى خليتين منفصلتين تماما عن بعضهما بعضاً، ومن ثم إلى خليتين أروميتين تنمو كل منهما بشكل ذاتي. تلك الخلايا تكون متشابهة جدا مع بعضها بعضاً ولكنها على أية حال لا تكون أبدا متطابقة.

إلا أن الحديث في الوقت الحاضر يدور حول نوع آخر من عمليات الاستنساخ، وتحديدا حول الحصول على مجموعة من النسخ المتطابقة تماما من هذا الحيوان البالغ أو ذاك عن طريق زرع نواة خلية جسدية لكائن واحد بالغ في خلية بويضية تم انتزاع نواتها الأصلية مسبقا. حيث يكون هذا الحيوان البالغ متمتعا بصفات ما نوعية مهمة (على سبيل المثال، رقم قياسي في إدرار اللبن، أو نوعية عالية من فروة الصوف.. إلخ). ومن الممكن أن يكون عالما أو سياسيا أو فنانا يمثل قيمة كبيرة للإنسانية نتيجة، ولنقل مثلا، عبقريته. وهنا تحديدا تظهر العقبات الكثيرة والصعوبات الهائلة جدا التي يجب أن نواجهها ونتعامل معها.

أول ندوة تم فيها تناول قضية الاستنساخ الحيوي للحيوانات بجدية كانت في المؤتمر الدولي لعلم الوراثة في بيركلي (الولايات المتحدة الأمريكية) في أغسطس العام 1973م، وهو المؤتمر الذي قدر لي أن أشارك فيه ضمن وفد ضخم يمثل الاتحاد السوفييتي، وكانت هذه هي المرة الأولى التي اصطدم فيها بالجوانب الاجتماعية لعملية الاستنساخ، وعندما خرجنا في الصباح لافتتاح المؤتمر أصابنا الفزع والدهشة حيث قابلنا، بدلا من منظمي المؤتمر، مجموعات ضخمة من قوات الأمن التي يتميز أفرادها بضخامة الأجسام وقد شكلت سلاسل كثيفة تحمل مدافع رشاشة، فماذا حدث؟ اتضح أن طلاب الجامعة سمعوا أنه سوف تتم مناقشة قضية الاستنساخ في هذا المؤتمر، فهددوا بتمزيق أولئك الباحثين الأشرار عديمي المسؤولية الذين - ولا أدري لماذا اعتقدوا ذلك - يزمعون استنساخ لينين وهتلر وستالين، وكل المجرمين الذين على شاكلتهم. وسارت في المدينة الجامعية التجمعات والمظاهرات الرافضة، ووجه الخطباء كلمات الخزي والعار ضد المشاركين في

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الندوة العلمية، وقاموا بتوزيع المنشورات، وخيمت على المؤتمر سحابات الغضب الطلابي، وظهرت تهديدات بإفشاله. إلا أن المنظمين لم يقابلوا ذلك باستهتار أو استخفاف، وإنما بخوف وجدية، فأسرعوا إلى الكتابة في الصحف وتقديم البرامج التلفزيونية، وحاولوا أن يوضحوا للشباب الثائر أن الحديث سوف يدور ليس حول استنساخ الناس، وإنما فقط عن مجرد إمكانية عمل نسخ للحيوانات الأليفة النافعة - على سبيل المثال، البقر. وانتهى كل شيء بسلام - واتضح أن الطلاب الأمريكيين على قدر عال من الفهم والتفهم، فهدأوا، وفي النهاية وجهوا الدعوة الى جميع المشاركين في المؤتمر إلى حفل جماعي حيث تناول الجميع المشروبات والمأكولات في سلام، وصافحوا بعضهم بعضاً، وفي غضون المؤتمر تمت الإشارة إلى أن قضية الاستنساخ ليست هكذا أبدا بسيطة وسهلة كما تصوروا في البداية، ولكن هناك العديد من العقبات والمصاعب الخفية والمجهولة، ومن السابق لأوانه تقدير حسابات وأعداد العشائر التي سوف يستنسخونها من الأبقار، ناهيك عن استنساخ الإنسان نفسه.

.. لقد بدأت كل هذه القصة منذ أعوام الأربعينيات البعيدة حينما ابتكر عالم الأجنة الروسي جريجوري فيكتوريفيتش لوباشوف طريقة لنقل أو ازدراع (Transplant) النويات في بويضة ضفدعة. وفي يونيو عام 1948م أرسل الى مجلة «البيولوجيا العامة» مقالا يتضمن مواد تجاربه ونتائجها. إلا أنه، ولسوء حظه، في أغسطس 1948م عقدت الدورة الشهيرة المؤسفة لأكاديمية العلوم الزراعية لعموم الاتحاد السوفييتي التي أقرت، بناء على رغبة الحزب، السلطة غير المحدودة للباحث المعروف ترافيم ليسينكو في مجال البيولوجيا. وبالتالي قضوا على مجموعة مقالات لوباشوف، التي كانت قد أعدت للنشر، لأنها كانت تثبت الدور الرائد للنواة والكروموسومات الموجودة فيها في النمو الفردي - الذاتي للكائن. وتم نسيان أعمال لوباشوف، إلا أنه في سنوات الخمسينيات قام عالم الأجنة الأمريكي بريجس كينج بتجارب مماثلة، وحصل هو على السبق كما حدث مرارا في تاريخ العلوم الروسية.

وبعد ذلك، قام البريطاني جون جيردون بإتمام هذه الطريقة بإزالة النواة الأصلية من الخلية البويضية للضفدعة وزرع فيها نوايات مختلفة تم فصلها من خلايا مخصصة. وفي النهاية توصل إلى عملية نقل (Transplant) نواة من خلايا كائن بالغ، وبالأخص من ظهارة (الخلايا اللحائية) الأمعاء. إضافة إلى أن جيردون نجح في الوصول إلى أن الخلية البويضية قد نمت مع نواة غريبة المولد، بنسبة محددة من الحالات، إلى مراحل أعلى وبشكل كاف. وهكذا فنسبة 1٪ - 2٪ منها تجاوزت المرحلة الأولية وتحولت إلى ضفادع بالغة. بيد أن هذه الضفادع لم تكن من دون عيوب، وبدت أكثر سقما وضآلة ونقصا في النمو بالمقارنة مع «من ولدها» (الذي أعطاها النواة). وهكذا، فحتى في هذه الحالة من الصعب جدا أن نتحدث عن استنساخ دقيق بشكل مطلق ومع ذلك فقد تصاعدت ضجة كبيرة حول إنجازات العالم البريطاني، وأخذوا يتحدثون عن استنساخ الحيوانات الثديية والإنسان: إذا كان من الممكن استنساخ الضفدعة، فلماذا لا يمكن أن نجرب مع أهداف - كائنات - أخرى؟ وظهرت قصص الخيال العلمي حول العشائر والسلالات البشرية الخيرة أو الشريرة التي يستخدمها المحاربون القساة الحمقى أو السياسيون قصار النظر وقاموا بتصوير الأفلام السينمائية حول هذا الموضوع، أما الأخلاقيون أصحاب القلوب الحنونة فقد أصابهم القلق على الطريقة الأكثر متعة وبساطة للتناسل، والتي بدت وكأنها قد ولت مع الماضي..

وفي روسيا أيضا كان هناك اهتمام بهذه القضية: حيث كان برنامج «استنساخ الثدييات» ضمن خطة العمل المشترك لاثنين من المختبرات - المختبر التابع لي ومختبر الأكاديمي ديمتري

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كونستانتينوفيتش بيليايف. وحتى في العام 1974م تقدمت إلى أكاديمية العلوم الزراعية لعموم الاتحاد السوفييتي ببحث أثبت فيه على نحو سابق لزمنه أن مهمة الحصول على عشيرة من الثدييات أمر في غاية الصعوبة، ولكنه محلول من حيث المبدأ. وتم تمويل محاولاتنا الأولية بشكل جيد، ولكن سرعان ما فقدت الدولة اهتمامها بتلك المحاولات، وكانت النتيجة الأساسية التي توصلنا إليها على ضوء ما حصلنا عليه من نتائج هي الاعتراف بعدم وجود آفاق مستقبلية لعمليات نقل النويات أثناء محاولات الحصول على عشائر أو سلالات من الحيوانات الثديية. واتضح أن هذه العملية جارحة ومثيرة لصدمة قوية، وكان من الأفضل استخدام طريقة التهجين الجسدي، أي نقل نواة غريبة المولد عن طريق إدماج الخلية البويضية مع الخلية الجسدية للنواة التي نريد «إحلالها» في الخلية البويضية، وهذه هي تحديدا الطريقة التي استخدمها يان فيلموت. وبالمناسبة، فقد قام أحد موظفيه بزيارة لمعهد علم الخلايا والوراثة في نوفوسيمبرسك وتبادل الآراء والأحاديث مع الذين كانوا يشتغلون آنذاك في عمليات الاستنساخ «وهذا، بالطبع، لا يعني أن هذا الموظف قام بشكل مباشر وعلى الفور باستخدام طرقهم».

وفي سنوات السبعينيات نشر الباحث الأمريكي، سويسري الأصل، كارل إللمينزس مقالا اتضح فيه أنه نجح في الحصول على عشيرة تتكون من ثلاثة فئران. ومن جديد علت «ضجة استنساخية» أزاحت جميع الأخبار العلمية الأخرى، ومن جديد نفخوا الأبواق وأعلنوا عن تحقيق الحلم الذي ظل لسنوات طويلة يراود البشرية بالخلود، وأن هذا الحلم قد أصبح في متناول اليد وبطريقة أصيلة ومتفردة - أي أنه من خلال الإنتاج الصناعي يمكنك أن تنتج نسخا مشابهة لك، ولكن سرعان ما أعلن الفشل عن نفسه: ظهرت في الأوساط العلمية إشاعات عن أنه في تجارب إللمينزس شيء ما غير نظيف، فلا أحد «حتى أقدر الباحثين وأكثرهم خبرة» يستطيع إعادة التجارب والحصول على النتائج.. وفي النهاية شكلوا لجنة ذات مستوى عال وضعت على أبحاث إللمينزس علامة «إكس»: أقروا بعدم صحتها، وعلى هذا النحو، تم توجيه ضربة موجعة جدا إلى القضية نفسها، وصار حلها أمراً في دائرة الشك. وساد الهدوء لبعض الوقت، ولكن فجأة، ومثلما يحدث الرعد في السماء الصافية - النعجة دوللي!

بالطبع، فالحصول على هذه النعجة - إنجاز علمي ضخم يمكن أن نخرج منه بنتائج مهمة حول عمق تغيرات النويات الخلوية «نسبة إلى الخلية» في عملية التمييز أو التفريق بين الخلايا. والمسألة أنه في أثناء مسار عملية النمو الفردي لكائن في نويات الخلايا مختلفة الأنواع، تحدث سلسلة من التغيرات:

بعض الجينات تعمل بنشاط، والبعض الآخر خامل لا يبدي أي رد فعل، وكلما كان الكائن أكثر تخصيصا «أي تم إعداده للعمل من قبل»، وكلما كانت درجة سلم الارتقاء التي يقف عليها أعلى، كانت هذه التغيرات أكثر عمقا وتجذرا وغير قابلة للإلغاء. ولدى بعض الكائنات - على سبيل المثال، الطفيليات المعوية المعروفة بديدان الإسكارس - المادة الوراثية في الخلايا الجنينية المستقبلية تبقى على حالها دون تغيير في أثناء عملية النمو، وفي البعض الآخر من الخلايا الجلدية تتدافع وتتساقط من الكروموسومات كميات كبيرة من (D.N.A) - حامل الصفات الوراثية (في هذه الحالات لا يمكن بطبيعة الحال التحدث عن أي شيء يخص عملية الاستنساخ). ففي كريات الدم الحمراء (خلايا الدم الحمراء) للطيور (تتجعد) النويات وتتحول إلى حصوات صغيرة تكف عن «العمل». وبالتالي فمن خلايا الدم الحمراء للحيوانات الثديية، التي توجد في درجة ارتقاء أعلى من الطيور، تتساقط هذه النويات من جراء عدم الحاجة إليها. ولدى ذبابة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الفاكهة (حشرة الدروسوفيلا Drosophila) تكون هذه العمليات - التكاثر الانتقائي، أو العكس، وعدم كفاية أجزاء ما من (D.N.A) تظهر بأشكال مختلفة في أنسجة مختلفة - على وجه الخصوص أكثر وضوحا ودقة. ولقد قام كارل إللمينزس بعمل بحث رائع في مجال عمليات نقل النويات «البالغة»، التي تم فصلها من خلال الدروسوفيلا، في البويضة الناضجة لهذه الحشرة، من أجل التعرف على إمكاناتها في العمل على نمو الذباب. في هذه الحالة، اتضح أن الأجنة تنمو على مراحل محددة فقط وبانحرافات عن المعايير والمواصفات، أي بظهور تشوهات. وبالتالي، ففي أثناء عملية النمو في النويات «البالغة» للدروسوفيلا تحدث تغيرات لا عكوسية (Irreversible)*، ومن ثم تفقد النويات إمكانية إعطاء أساس لكائن عادي كامل.

إضافة لما سبق، فكثيرا ما يجري الحديث في الوقت الحاضر عن أحد الأعمال التي أثبتت أنه في الخلايا الجسدية، في أثناء مسار نموها، تتقلص الكروموسومات تلقائيا إلى نهاياتها، بينما تقوم المادة الزلالية الخاصة في الخلايا الجنينية بإعادة بنائها وتشكيلها، أي أن الحصول على تلك المعطيات يؤكد مرة أخرى على الاختلاف بين الخلايا الجسدية والجنينية.

ولكن إذا كان حتى لدى الضفدعة - الكائن الأقل نموا، وبالتالي الأقل وضوحا ودقة من حيث التغيرات النووية - نسبة ضئيلة جدا من النجاح في أثناء عملية الاستنساخ، كما ذكرنا سابقا، ففي حالة الحيوانات الثديية سوف تتضاعف هذه النسبة، وسوف يتوقف النجاح على «العثور»، بين الخلايا الكثيرة، على تلك الخلية التي تندر تماما مقابلتها وتكون محتوية على نواة لم تفقد بعد طاقتها أو قدرتها، أو حل المشكلة بإعادة نواة الخلية الجسدية التي تغيرت إلى حالتها الأولية.

وليس مصادفة ما يثار اليوم من اهتمام خاصة حول أبحاث مجموعة علماء جامعة هونولولو وعلى رأسهم ريوزيو ياناهيماتش. فقد استطاع الباحثون إتمام طريقة فيلموت: رفضوا التنشيط الكهربائي لإدماج الخلية الجسدية (المعطى) مع البويضة وابتكروا ذلك الممص الصغير (Micropipet) الذي استطاعوا عن طريقه نقل النواة «من دون صعوبات» إضافة إلى أنهم استخدموا نويات الخلايا المحيطة بالبويضة كـ «معطى». وكانت نسبة «الخارج» من الفئران المولودة «حيث أخرجوها عن طريق إجراء جراحة قيصرية» في المجموعة المختلفة من 2٪ الى 2,8٪. وأكدت الأبحاث الجزيئية أن الفئران هي ناتج عملية الاستنساخ كما حدث أيضا في حالة النعجة دوللي. على هذا النحو، وفي أسوأ الأحوال، تم إثبات إمكانية نويات الخلايا الجسدية في بعض الحالات على ضمان نمو طبيعي للحيوانات الثديية.

ومع ذلك فهذه النتائج لا تسمح لنا بشكل جدي أن نتحدث عن عملية الاستنساخ، وأكثر من ذلك عن عملية «نسخ» الإنسان. وفي الحقيقة، لو افترضنا أنه قد تم بالفعل نقل بويضات في طور النمو مع نويات غريبة المولد إلى عدة مئات «إذا لم يكن إلى عدة آلاف» من الأمهات الحوامل «نسبة الناتج أو الخارج ضئيلة جدا! وفي أبعد الأحوال لن يتيسر لها أن تزيد أبدا» من أجل الحصول ولو حتى على نسخة واحدة حية «ليس حتى بشكل كامل!» لأحد السياسيين المرموقين كما وعد، في برنامج تلفزيوني، السيد ميتروفانوف** أحد قادة الحزب الديمقراطي الليبرالي الروسي. فهل يفكرون عما سيحدث مع بقية الأجنة؟ إذ إن الجزء الأكبر منها سوف يموت في أرحام الأمهات، أو سينمو

---

* تغيرات لا تقلب أو تعكس، ويتعذر إلغاؤها. المترجم.

** الحزب الذي يترأسه المتطرف اليميني فلاديمير جيرينوفسكي. المترجم.

الجزء الذي سيولد منها، لا قدر الله، مشوها، هل تتصوروا - مئات من البشر الممسوخين والمشوهين الذين تم الحصول عليهم صناعيا؟ أعتقد أن ذلك ليس فقط فسادا وفجرا ولا أخلاقية، وإنما أيضا جريمة. ولذا فمن الطبيعي أن نتوقع سن قانون يمنع مثل هذه التجارب. لقد اتخذ الاتحاد الأوروبي القرار الملائم، والآن يأتي الدور على روسيا! وبغض النظر عن كل ذلك، ففي علم الوراثة يوجد ذلك المفهوم الذي يطلق عليه: معيار التفاعل، وهو درجة التقلب أو التذبذب في إظهار الميزات أو السمات التي تتحكم فيها هذه الجينة أو تلك، وعلى سبيل المثال، فهناك جينة البلق أو الترقيط التي يتوقف عليها اللون المبرقش للحيوان، وهي الجينة نفسها «وليس أخرى غيرها» التي يمكنها أن تصنع لدى بعض الحيوانات، على سبيل المثال، بقعا قاتمة منفصلة ومتفرقة على أرضية ملونة أو فاتحة، ولدى البعض الآخر جسداً «قاتماً» تماماً. ودرجة «القتامة» تتوقف على تأثير العديد من الجينات الأخرى «من تلك التي تمتلك كل واحدة منها معيار تفاعلها الخاص بها»، وتأثير الوسط الخارجي «درجة الحرارة، مستوى درجة الإشعاع.. وهلم جرا»، ويطرح السؤال نفسه: هل احتمالية إعادة إنتاج خصائص النموذج «الاستنساخ» كبيرة؟

وبشكل عام، إذا كان الحديث يدور حول الحيوانات الثديية، فمن الملائم مواصلة مثل هذه التجارب، ولكن على الفئران والعرس والأرانب. فهي ستكون أقل تكلفة تماما من التجارب، مثلا، على الأبقار، ولكن النتيجة - هي نفسها: الإجابة نفسها عن السؤال المبدئي المطروح حول طابع تغير النويات في أثناء النمو الفردي والذي يعتبر أمراً مهماً للغاية بالنسبة لبناء علم الوراثة. أما الأموال الضخمة المطلوبة لأبحاث استنساخ الحيوانات الزراعية، فمن الأفضل استخدامها من أجل دعم وتطوير الأبحاث الخاصة بالحصول على الحيوانات ما بعد الوراثية (Transgenetic) التي تنطوي على صفحات غريبة مفيدة (على سبيل المثال، الأبقار أو النعاج القادرة على إنتاج مواد علاجية مفيدة مثل الأنسولين، وذلك إلى جانب الألبان)، أو العلاج بالجينات (العلاج عن طريق الإدخال الصناعي للجينات السوية التي تصحح عيوب الخلايا)، أو الوراثة البشرية، أو الهندسة الوراثية. أنا لست من المحافظين، وإنما على العكس أكون سعيدا على الدوام من أجل الاكتشافات العلمية الثورية وأحاول قدر الإمكان الوقوف إلى جانبها والدعاية لها، ولكنني توصلت عبر الاستنساخ إلى أمور واقعية وأصبحت الآن على قناعة بكل ما قيل أعلاه، وربما تغضب آرائي هذه القراء، ولكن الحقيقة المرة أفضل من الكذب الحلو.

لقد تم التعارف على أن الراهب التشيكي جريجور ميندل هو «أبو» علم الوراثة، نظرا لأنه في هدوء حديقة بأحد الأديرة اكتشف القوانين الأساسية لهذا العلم منذ مائة وثلاثين عاما مضت. ولكن لدى علم الوراثة يوجد «جد» (ولعل الأصح أن نقول «أبوالجد») الذي عاش في القرن الرابع الميلادي، واسمه أبريل أغسطين الذي لم يكن مجرد أسقفا فقط وأحد أهم المعلمين الكبار والمبجلين للكنيسة، وإنما كان أيضا أحد أكثر الناس دقيقي الملاحظة والمحبين للمعرفة. وكان يعمل في تربية الأسماك وتدريبها على تناول الطعام في أماكن محددة بالحوض الزجاجي، وقد لاحظ أن هناك أسماكاً «ذكية» تتعلم بسرعة، وأخرى «غبية» تفكر بشكل بطيء ومتخلف. ولكن أهم ملاحظات أغسطين كانت تتعلق، بالضبط، بالظاهرة التي نسميها الوراثة - حيث إن سلالات الأسماك كانت تشابه أبويها: من «الأذكياء» تم الحصول على «أذكياء»، ومن «الأغبياء» - على «أغبياء». وكان أبريل أغسطين يسبق عصره بكثير - حيث ظهر الاهتمام بالوراثة في ميدان العلم في حدود القرن الثامن عشر. وولد مندل بعد أغسطين بحوالي أربعة عشر قرنا. بيد أنهم لم يلتفتوا إلى قوانينه في البداية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لأنها كانت تهدم الكثير من التصورات التربوية الطبيعية المألوفة والسائدة الموجودة في المفاهيم الأساسية، وفقط في بداية قرننا هذا قام كل من هوجو دي فريز، وتشيرماك، وكورينس، «بإعادة اكتشاف» مندل، وظهرت «المندلية» الحقيقية، وبالتالي علم الوراثة، وسرعان ما أثبت عالم الحيوانات والأجنة الأمريكي توماس هينج مورجان أن حاملات الصفات الوراثية، أي الجينات، «مرتبطة» بتركيبات معينة من النويات الخلوية (نسبة إلى الخلية)، أي الكرومسومات، وبالتالي أسس نظرية الكرومسومات الوراثية. ومنذ ذلك الحين عرف علماء الوراثة الكثير والكثير، وحققوا نجاحات خيالية في النظرية والتطبيق على حد سواء، وابتكروا العديد من فصائل الحيوانات وأنواع النباتات، واكتشفوا الأمراض الوراثية لدى الإنسان، ومن خلال فهم ميكانيزماتها تعلموا كيف يعالجونها، وفي النهاية «ابتكروا» الهندسة الوراثية وصاروا ينتجون تلك الأعاجيب التي أخذت تثير قلق «الخضر» وبالتالي المطالبة بالمنع المطلق للعلماء من التلاعب بالجهاز الوراثي والتحكم فيه (توجد الآن عملية تنظيم قانونية لإجراء مثل تلك التجارب).

والآن أصبح علم الوراثة محط اهتمام الجميع، وصار يغري العقول بالتسلل الى جوهر الكائن الحي، تلك العقول التي تنطوي على جرأة متهورة، بل وحتى على شيء من الغرابة والشذوذ. وليس مصادفة أن تدور الأحاديث حول أنه في القرن الواحد والعشرين سوف تجري في مجال العلوم الطبيعية عملية استبدال المواقع للعلوم الرائدة: سيحل علم الوراثة محل الفيزياء. لا أدري، سوف يحدث ذلك أم لا، ولكنني على قناعة شديدة بشيء واحد، ألا وهو أن علم الوراثة سوف يظل محافظا على مكانته الرائدة في إطار العلوم البيولوجية فقط. الكثيرون يعتقدون أن «العمود الفقري» للبيولوجيا الحديثة هو مبادىء التطور، بيد أنه لا يمكنني الاتفاق مع ذلك، وأرى أن هذا «العمود الفقري» يمكن أن يكون فقط علم الوراثة. وفي الواقع، إذا انتزعنا فجأة مبادىء التطور من البيولوجيا، فهل ستتغير صورة هذا العلم كثيرا؟ لا، كل ما في الأمر أن مبادىء التطور سوف تكون غائبة. مجرد نقص ملحوظ! ولكنه لا يمثل كارثة: وسوف تظل، ببساطة، جميع فروع علم البيولوجيا على مستوى علمي راق وحديث.. ولكن ماذا لو حذفنا علم الوراثة من البيولوجيا؟ إنها لن تتغير فقط، ولكنها في الحقيقة ستعود إلى المستوى الذي كانت عليه في القرن الماضي! ومن ضمن ذلك مبادىء التطور ذاتها التي لم تقدم أي شيء إلى علم الوراثة في ذاته، خاصة وأنها هي نفسها تتأسس بدرجة ملحوظة على فرضيات علم الوراثة. وفي الوقت الحاضر يحتل كل من الفيزياء وعلم الوراثة نقطتي القمة في اتجاهين أساسيين، ولكن مختلفين، في المعرفة الإنسانية، ويتمتع كل منهما باهتمام بالغ من قبل الفلاسفة، وفي ظروف معينة من قبل بعض الدوائر الإيديولوجية أيضا.

لقد أصبح تدخل علم الوراثة في حياة المجتمع أمرا ملموسا وله قيمة كبيرة حتى أنه منذ فترة غير بعيدة تم الإعلان في ضجة كبيرة عن قصة رفات الأسرة القيصرية. وعندما كان يتم اكتشاف آثار أحد من أكثر البلاشفة وحشية ودموية ويظهر شك في حقيقة رفاته، كانوا يتوجهون تحديدا الى علماء الوراثة، وفي نهاية الأمر تكون كلمتهم هي الأخيرة والفاصلة في النقاشات التي كانت تحمل في الأساس طابعا سياسيا مغلفا ببعض الأفكار المزعومة عن المثل العليا. وكان علماء الوراثة يجيبون عن السؤال الموجه إليهم إجابة واحدة فقط وأكيدة بالإيجاب. والتجارب والتحليلات التي أجراها عالم الوراثة الروسي بافل إيفانوف بالاشتراك مع زملائه الغربيين، وبعد ذلك عالم الوراثة الروسي يفجيني

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

روجايف يؤكد أن ما عثروا عليه هو فعلا رفات الأسر القيصرية، ولكن كل ذلك لم يعجب القائمين على السلطة، وبدأت الصحف والمطبوعات نقاشات مخزية وتجديفية شارك فيها أولئك الذين نسوا فعليا العلم منذ زمن بعيد.

وهكذا، فقد حدث «صدام» جديد بين علم الوراثة والسياسة، ولهذا السبب تنظر السلطات الحاكمة إلى ذلك العلم باهتمام شديد جدا من أجل تقويمه وتقديره بشكل أو بآخر من حيث تدخله في المنظومة الاجتماعية للحياة، ومن أجل أن تقرر بأية درجة يمكن السماح لهذا التدخل أو منعه. ومن المعروف جيدا التمويل الضخم في تلك الفروع من علم الوراثة التي تعود بالفائدة على الزراعة أو الطب، ومعروف أن أكثر التدابير المانعة المتخذة ليست فقط في روسيا، وإنما في العالم كله، وفي زمن ما «كان مخزيا لبلادنا» منعوا علم الوراثة كليا نظرا لأنه وقف مثل الشوكة في حلق الإيديولوجية السائدة. وفي أمريكا أرادوا منع الهندسة الوراثية التي صنعت الكثير من عوامل ومثيرات الأمراض المعدية البشعة الجديدة. وفي مجموعة من الدول يجري إعداد مشروعات أو اتخاذ تدابير وإجراءات حول منع تجارب استنساخ البشر وهو الأمر الذي أرى أنه صحيح تماما. وفي هذا الاتجاه تسير، على وجه الخصوص، جماعات «الخضر»، والجمعيات المختلفة التي تعمل في مجال الحفاظ على حياة الحيوانات، وهناك تلك الحادثة المعروفة التي جرت في الولايات المتحدة الأمريكية عندما هجموا على أحد الأماكن (vivarium) التي توجد بها حيوانات التجارب وأطلقوا سراحها وهي التي لا تقدر بثمن وأفشلوا بذلك تجارب في غاية الأهمية.

هناك بعض الممارسات، مع الأسف، تترتب عليها في أحيان كثيرة العديد من المشاكل والقضايا الاعتراضية - تعامل العلماء القاسي مع حيوانات التجارب (وفي أحيان كثيرة مع الحيوانات المريضة). وأنا أعرف أحد الأطباء الذي كان يعمل على إعداد رسالة الدكتوراه، فكان يثير في البداية كلبا جائعا بقطعة لحم، ثم يقوم بضربه من أجل إثارة مرض ضغط الدم لديه. أما الآخر فكان يكسر، من دون تخدير، عظام الأرانب من أجل دراسة عملية إعادة التوليد أو التجديد لديه، ولذا فهناك حاجة ملحة لوضع مجموعة قوانين محددة لعلم الأخلاق البيولوجي والطبي والتي من شأنها أن تستبعد القسوة غير المبررة أثناء إجراء التجارب البيولوجية أو الطبية، ويجب أن يقوم بوضع مجموعة القوانين هذه اختصاصيون كبار في هذا الميدان، ويكونوا على دراية تامة بالمواد القانونية والتشريعية، ومن دون ذلك سوف يظهر مشروع قانون مماثل لمشروع قانون علم الأخلاق البيولوجي الذي تم تقديمه إلى مجلس الدوما - كان من بين الذين شاركوا في وضعه طبيب ومحام واثنان من القساوسة الأرثوذكس، وكان من الواضح أنهم على غير دراية بعلم البيولوجيا. ومع ذلك فهناك بين رجال الدين أشخاص مؤهلون تماما في هذا الموضوع، وأحدهم على سبيل المثال هو الأب ألكسندر بوريسوف أحد أمهر علماء الوراثة عندنا، وفي مشروع هذا القانون تتم الدعوة عمليا إلى المنع التام للأبحاث الطبية الفعالة - علم زراعة الأعضاء والأنسجة. أما الأجزاء التي وردت في المشروع، والخاصة بعملية التحديد والتقليص في ميدان الهندسة الوراثية والطب الوراثي، فلم يستشر فيها أحد من المتخصصين. وليس مصادفة أن المشروع الذي تم تقديمه إلى مجلس الدوما استقبله الرأي العام بانتقاد حاد وشاركه في ذلك كبار المتخصصين في مجال الطب الوراثي - الأكاديميون بالأكاديمية الروسية للعلوم الطبية مثل ف. إ. إيفانوف، ن. ب. بوتشكوف. ولكن إذا كان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من الممكن الموافقة على مثل هذا القانون، فمن الضروري أن يقوموا بمناقشته علنا في الصحف والتلفزيون، ولا يختبئوا في حجرتهم بمجلس الدوما. ومن البديهي أن الذين أعدوا مشروع هذا القانون تقودهم النوايا الحسنة، ولكن طريقهم كما هو معروف محفوف بالمخاطر*.

لدى علم الوراثة العديد من الجوانب التي تمتلك مخرجا للدخول إلى المجال الأخلاقي والسياسي والاجتماعي، وعلى سبيل المثال، قضية استخدام إنجازات هذا العلم في أغراض تحسين «الفصيلة» البشرية. ولقد فكر القادة النازيون بجدية في هذه القضية وشاركهم كذلك المخلصون لهم ولأفكارهم من علماء البيولوجيا الألمان في سنوات الثلاثينيات والذين قاموا بجهد بالغ لإعداد وصياغة النظرية العنصرية، بيد أن مثل هذه الأفكار، التي أعطوها من دون وجه حق تسمية الـ «يوجينا» (Eugenics)**، كانت غريبة عن ميدان علم الوراثة الذي نشأ في جو ديمقراطي وإنساني. وفي الواقع فالذي أسس علم الـ «يوجينا» هو فرنسيس جالتون، بينما قام علماء الوراثة الكبار من أمثال ن.ك كولتسوف، ج.موللر، يو.أ.فيليبتشينكو بتخصيص مكان آخر ودور آخر مختلف لهذا الفرع من علم الوراثة - استخدام المعرفة في مجال علم الوراثة من أجل الحفاظ على صحة الإنسان. أما مواطننا فيودوسي دوبرجانسكي، الذي اضطر إلى الفرار من وجه البلاشفة ورحل إلى أمريكا، والذي يطلقون عليه داروين القرن العشرين، فقد فهم اليوجينا على أنها استخدام المعرفة بمبادىء وأساسيات علم الوراثة وإجراء الاستشارات والفحوص والتجارب الطبية والوراثية. ورأى أنه من الضروري أهمية إقناع حاملي العيوب الوراثية بأنهم ليسوا مذنبين في حالاتهم هذه، ولا يمكن أن يوجه إليهم أي اتهام أو وصم بالخزي والعار. ومن الضروري أيضا إخطارهم باحتمال وجود مخاطر في سلالاتهم في المستقبل. ولا يحق لأي أحد كان، ما عدا حامل العيب الوراثي نفسه، أن يقرر: هل يجب أن ينجب أولادا أم لا. وهذا هو المفهوم العلمي الصحيح لليوجينا.

وفي روسيا البلشفية، أعلنت السلطة التي لم تكن تفهم جوهر الأمر أن اليوجينا علم برجوازي، كاذب ورجعي، واتخذت موقفا متطرفا. منعوا عمليا دراسة علم وراثة الإنسان، وبالمرة الطب الوراثي، على اعتبار أن كل ذلك عوامل لإنتاج العنصرية، بيد أن هذا

* بعد إعداد مقال ليونيد كوروتشكين للنشر، وصلت أخبار تفيد أن هناك مجموعة من أعضاء مجلس الدوما قد تقدمت بمشروع قانون جديد حول أخلاقيات البحث العلمي. هذا المشروع يقترح إجراءات منع أكثر راديكالية في العديد من فروع البحث العلمي المختلفة وعلى رأسها، كالعادة، علم الوراثة. ولكن هيئة تحرير مجلة «نوفي مير» - العالم الجديد- لا تضم اختصاصيين مؤهلين بشكل كاف في علوم البيولوجيا من أجل تكوين وجهة نظر خاصة واتخاذ موقف واضح وصريح ومحدد. وهنا تبرز تلك الفكرة المهمة التي كانت تمتلك أهمية ضخمة لدى ليف نيكولايفيتش تولستوي: «في القضايا الأخلاقية لا توجد قرارات عامة»، وبالتالي فنحن ندعو الفلاسفة المتخصصين، وكذلك المتخصصين في العلوم الأساسية والاجتماعية للمشاركة بآرائهم في هذه القضية، والمواد التي سترد إلينا سننشرها في باب بريد القراء، أو في مقالات منفردة. هيئة تحرير مجلة «نوفي مير».

** من الكلمة اليونانية (Eugenes) بمعنى علم تحسين النسل أو الفصيلة الجيدة، وهي نظرية تدور حول الوراثة وصحة الإنسان وطرق تحسينها. وقد تشكلت مبادىء الـ «يوجينا» لأول مرة على يد فرنسيين جالتون عام ١٨٦٩م ودعت إلى دراسة التأثيرات التي يمكنها أن تعمل على تحسين الصفات الوراثية (الصحة، العقل، القدرة، الذكاء) للأجيال المستقبلية. ولكن العلماء التقدميين وضعوا أمام اليوجينا أهدافا إنسانية مهمة تقضي بالاستفادة القصوى منها على مستوى إنساني عام وشامل، ومع ذلك فكثيرا ما تم استخدام أفكارها لتبرير العنصرية وترسيخها وإشاعتها (وعلى سبيل المثال في النظرية العنصرية الفاشية). وفي العلوم المعاصرة أصبح من السائد حل العديد من مشاكل تحسين النسل، وخاصة الصراع مع الأمراض الوراثية، في إطار علم الوراثة والطب الوراثي، ولا يزال الاستخدام القانوني لمصطلح «يوجينا» محل خلاف قائم إلى وقتنا هذا - المترجم.

ARCHIVE http://archive.beta.sakhrit.com

الاتجاه في علم الوراثة، والضروري جدا للحفاظ على صحة الإنسان، ظهر في بلادنا بفضل جهود أولئك العلماء المرموقين من أمثال س.ن.دافيدينكو، س.ج.ليفيت، إ.إ.آجول، وآخرين. ولكن تحقق أفكارهم بشكل كامل في الواقع لم يكتب له النجاح نظرا لأن «الحزب» كان مهتما للغاية بالعلم!

هذا «الاهتمام» أعاق بشكل ملحوظ تطور ذلك الفرع المهم من علم الوراثة - علم وراثة السلوك. وكانوا يؤكدون أن الإنسان ما هو إلا ثمرة التربية الصرفة والتي عن طريقها يمكن تشكيل أي «منتج» أو «بضاعة» من المنشأ، ومن دون التمييز إطلاقا بين «المواد» البشرية المختلفة (بالضبط كما كانوا يفسرون مفهوم «المساواة»)، بينما أكد علم الوراثة أن الكثيرين، ليس فقط عن طريق الصفات العضوية وإنما أيضا النفسية، قد تم تحديدهم بشكل وراثي، وبشكل جزئي فقط يخضعون لتأثير الوسط والمؤثرات الخارجية، ولذا فدراسة علم وراثة السلوك أمر ضروري للغاية، لأنه يسمح بفهم ميكانيزمات الانحرافات المرضية (ومن ضمنها الجريمة) في سلوكيات الإنسان وتصرفاته، ويظهر القدرة نحو هذا النوع أو ذاك من النشاطات الإبداعية. ولعل الكثيرين يتذكرون كيف كانوا يتعاملون في بلادنا بقسوة مع الشاذين جنسيا، ويتهمونهم بأنهم أعداء الأخلاقيات الشيوعية، وبأنهم مواد جاهزة لانحلال وتفسخ المجتمع الذي يقوم باستفزازه عملاء الإمبريالية العالمية. ولكن اتضح أن حالة الشذوذ الجنسي تم العثور عليها لدى العديد من الحيوانات المختلفة، وحتى لدى الحشرات، زد على ذلك أن علماء الوراثة الأمريكيين أثبتوا أن هذه الصفة وراثية (لدى ذبابة الفاكهة «الدروسوفيلا»، وحددوا، بل ووجدوا موضع الجينة المسببة لذلك، ثم قاموا بعزلها ودراسة تكوينها). ومنذ فترة غير بعيدة، في مختبر عالم الوراثة دان هامر من معهد الصحة الوطني بالولايات المتحدة الأمريكية، عثروا على هذه الجينة لدى الإنسان أيضا، وتم تحديد موضعها في الكروموسومة X، ولا جدال في أن اكتشاف العلماء هذا يمتلك قيمة اجتماعية وقانونية في غاية الأهمية.

من الطبيعي تماما أن يظهر اهتمام الناس بموضوع إمكانية انتقال القدرة على التعلم من عدمه عن طريق الوراثة، وفي الظروف المختبرية، عن طريق الوسائل الوراثية، من الممكن عمل خط لإنتاج الفئران والعرس «الذكية» أو «الغبية»، والتي «بسرعة» أو «ببطء» وبشكل «جيد» أو «سيىء» تستوعب أية خبرة. وقد تم البرهنة بشكل لا يقبل النقاش على الشرطية «الظرفية» الوراثية لهذه التمايزات والاختلافات، وفي بعض الحالات تم العثور على أسبابها الجزيئية أو المو- فولوجية «التشكلية». غير أنه ليس من الضروري أبدا أن يكون الحيوان، «الذكي» في استيعاب خبرة ما معينة، ذكيا ولماحا جدا في أثناء استخدام الاختبارات الأخرى للتعلم. وبكلمات أخرى، فمن الممكن أن يكون هذا الحيوان «أحمق» في ظروف ومواقف أخرى، وبالتالي، فالحديث يدور حول الاستعداد الوراثي للنجاح في اكتساب خبرة أو معرفة ما محددة، وليس حول تحتيم العبقرية أو الغباء بشكل عام على المستوى الوراثي.

ولكن كيف يكون الأمر مع الإنسان؟

بعض علماء الوراثة، ومن ضمنهم عالمنا الكبير ن.دوبينين، وكذلك علماء النفس (على سبيل المثال، أ.ليونتيف) رأوا وكأن الإنسان مختلف إلى حد كبير عن الحيوانات حتى أن طرق التحكم الوراثية للنشاط العصبي لدى الحيوانات لا يمكن أن تطبق على الإنسان. وباختصار، فهم وكأنهم يقسمون الإنسان بالمفهوم الوراثي إلى قسمين - الأول، عام ومشترك مع الحيوانات ومرتبط بالخصائص الجسدية (القامة، اللون، العيون، الشعر.. إلخ). والثاني، مختلف عن الحيوانات ولا يخضع لقوانين علم الوراثة، ولكن يقع كليا وبشكل كامل تحت تأثير الوسط الاجتماعي. وأعتقد أنه لا يوجد أي أساس

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لهذا التقسيم، وأن قوانين علم الوراثة صالحة لجميع أفراد عالم الكائنات الحية، وتنسحب على مختلف جوانب حياة الإنسان بداية من اللحم والدم حتى النشاط العصبي. ومن المعروف أنه لدى المجرمين العريقين، وخاصة القتلة، توجد مجموعة من الانحرافات المميزة في نمو الجهاز العصبي. وقبل كل شيء فالمخ لديهم غير كامل النمو، وهو ما يجد له انعكاسا في حجم الرأس الصغير والجبهة الضيقة والعينين الصغيرتين الباردتين. وفي إطار ذلك، كقاعدة، يبرز فكه السفلي الضخم بشكل ملحوظ. وهناك أيضا واحدة من الصفات النوعية: تركز الأطراف العصبية (المستقبلات Receptors) على وحدة مساحة الجسم، وبالتالي نجد أن الإحساس بالألم لديهم يتدنى بشكل حاد بالمقارنة مع الناس الطبيعيين، ولذا لا ينبغي أن نندهش من أنهم قادرون على ارتكاب بعض الأعمال بحق أنفسهم لا يمكن أبدا للإنسان العادي أن يقوم بارتكابها في حق نفسه.. على سبيل المثال، خياطة الفم، أو تسمير الجسد الى المقعد بالمسامير كي لا يذهبوا إلى العمل، أو بتر أيديهم لكي يختارونهم رؤساء للعصابات. الأمر بالنسبة لهم لا يمثل أي ألم! أليس عن طريق ذلك يمكن تفسير القسوة الهائلة في أثناء ارتكاب جرائم القتل حينما يقوم المجرم بطعن الضحية طعنات عديدة؟ ومن الممكن أن نتصور أن صراخ الضحية وأنينها وعذابها يثير لدى القاتل اهتماما «استقصائيا» جنونيا: فالقاتل لا يفهم ماذا يشعر الإنسان الذي يمزقونه بالسكين. لأنهم حينما يمزقونه هو لا يشعر تقريبا بأي شيء! فهل تعتبر هذه الصفات أموراً حتمية من الناحية الوراثية؟ وماذا غير ذلك؟ أنا لا أتصور بأي شكل، أو على أي نحو، كيف يمكن للوسط الاجتماعي أن يؤثر على تطور أو نمو الأطراف العصبية. بالإضافة إلى ذلك، توجد معطيات بأن الصفات المميزة التي يشار بها هنا للمجرمين يمكنها أن تكون متلازمة ومرتبطة بوجود كروموسومة زائدة بين الكروموسومات التي يسمونها Y، مما يجعل أفعال الشخص مصحوبة بشراسة وعدوانية زائدتين، وفي الوقت نفسه، فالمجرم - إذا لم يكن يعاني من مرض نفسي «فصام، أو صرع، أو نقص في النمو النفسي»، يدرك بوضوح ودقة أن عمله هذا يحمل طابعا مضادا للقانون، وهو بالطبع، يجب أن يتحمل مسؤولية أفعاله، ومن الأصلح أن يتم عزله عن المجتمع. أما الأحاديث التي تدور حول إعادة تنشئة المجرمين أو إعادة تربيتهم، والتي كانت مجرد «موضة» في عهد نيكيتا خرتشوف، والتي لم يكن لها أي أساس من الصحة، فلم يمكنها إلا أن تعود على المجتمع بالضرر الفادح، فالمعاملة الإنسانية للقتلة وإبداء الاهتمام بهم أمر يفصح عن الاستهانة بمصالح المجتمع والاستخفاف بها، لأنه عندما يعفو أصحاب المشاعر «الإنسانية» لدينا عن هؤلاء «اللابشر»، ومن ثم يتسببون في نهاية الأمر في إطلاق سراحهم، بينما أولئك المجرمون كما أوضحت التجارب والخبرات لا يتغيرون إلى الأفضل تحت تأثير ما يبدونه تجاههم من عطف ورحمة، ينتج عن ذلك أنهم أثناء حريتهم هذه يقومون بالقضاء على بعض الحيوات الأخرى لبعض المواطنين الشرفاء والمخلصين.

هناك أيضا أمر آخر مهم وملموس وواضح، ألا وهو البروز المحسوس للنشاط النفسي للإنسان في الإطار الاجتماعي - العدائية، التي يرتبط مستواها بمنظومة أقسام معينة من المخ، والتي يتم التحكم فيها وراثيا في أثناء مسار نمو الكائن وتطوره. وقد قام كونراد لورنتز، الحائز على جائزة نوبل، بتحليل هذه القضية في كتابه «العدوان» (موسكو، «دار التقدم»، 1994م) أورد لورنتز نتائج في غاية الأهمية للأبحاث النفسية - الاجتماعية التي أجريت على الهنود الحمر من قبائل الـ «يوتا» التي تسكن مروج أمريكا الشمالية. واتضح أنهم يعانون بقسوة من تنامي الدوافع العدائية التي حرموا من إمكانية تحقيقها في ظروف الحفاظ على حقوق الهنود الحمر في أمريكا الشمالية. المسألة تتلخص في أن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هؤلاء الهنود عاشوا خلال عدة مئات من الأعوام حياة متوحشة تمثلت في الحروب والسلب والنهب، ومن البديهي أنه قد حدثت عملية انتقاء عملت على تعزيز عدائيتهم وتقويتها. وحدثت تغيرات كبيرة في «الرصيد» أو «الاحتياطي» الوراثي لديهم خلال فترة زمنية قصيرة نسبيا. ولا ينبغي أن نندهش من ذلك: فأثناء عملية الانتقاء القاسية تتغير فصائل الحيوانات المنزلية الأليفة بسرعة كبيرة. وبناء على تلك الفرضية، تقول الحقيقة إن الهنود الحمر الآخرين من قبل اليوتا، الذين نشأوا في ظروف أخرى، يعانون من هذا الأمر أيضا بدرجة ليست أقل من أفراد قبيلتهم الأكبر سنا، بالإضافة إلى أن الظهور المرضي للعدوانية يميز فقط الهنود الحمر الذين يقطنون مناطق المروج إذ إن قبائلهم قد تعرضت بدرجة أكثر إلى مثل تلك العملية من الانتقاء.

إلا أن هنود اليوتا المضطرين دائما إلى كبح عدوانيتهم، يعانون من نوبات عصبية دورية ومتكررة، ويشعر الكثيرون منهم بأنهم مرضى، فكيف يمكن التخلص من كل ذلك؟ يقول لورنتز إن الطريقة الوحيدة «الناجعة» - هي تصعيد الانحراف العدواني وتوجيهه في صورة أخرى للنشاط من أجل إعطاء «مخرج» للطاقة الكامنة، أي كما يقولون، من أجل «تنفيس البخار»، وهذا قبل كل شيء رياضة! فإعادة توجيه العدوانية - تعني جعلها غير مضرة أو مؤذية، والتنافس في الرياضة يعمل على فتح ذلك الصنبور من أجل تسريب تلك الطاقة المحبوسة، ويتيح لها الظهور ليس في صور الأنانية الخشنة، وإنما في أشكال عمل جماعي لها خصوصيتها، بل وأكثر جدوى ومنفعة من الصور المؤذية للمجتمع. هناك أيضا شيئان عملا على توحيد الناس الذين كانوا في السابق متفرقين ومعزولين عن بعضهم بعضاً، وكانوا يظهرون نوايا عدوانية تجاه بعضهم بعضاً - هذان الشيئان هما العلم والفن. ومن المهم، على حد رأي لورنتز، أن مثل هذه العملية من التصعيد تتحقق بنجاح عندما تتساوى فيها قوى الجذب بين الجوانب العقلانية والانفعالية والوجدانية، للنفسية الإنسانية، لكل واحدة على حدة وبينها جميعا.

لا شك أن المجتمع يؤثر في الشخصية الفردية - وبشكل قوي جدا. فهو إما أن يساعد على نموها وتطورها، وإما يكبحها ويقمعها ويضغط عليها في اتجاه معين، بيد أن هذا الاتجاه ذاته، وكذلك قدرة كل شخص منفرد على حل هذه المشكلة أو تلك، أو النجاح في العلم أو الفن أو الرياضة أو السياسة، أو تحقيق ذاته كشخصية فردية بهذه الدرجة أو تلك، كل ذلك يتم التحكم فيه وراثيا بدرجة كبيرة للغاية. ولقد قام علماء الوراثة الأمريكيون بإجراء تجارب مهمة على الفئران، حيث قسموا سلالات هذه الحيوانات التي ظهرت إلى النور لتوها، على أساس أنماطها الوراثية (أو على أساس مجموعة الجينات)، إلى مجموعتين، واحدة منهما «نشأت» في ظروف «وسط غني ومريح» (من حيث بناء القفص، والعديد من عناصر «الألعاب» المختلفة - الدرج والمكعبات.. إلخ)، والمجموعة الثانية - في وسط فقير وغير مريح (قفص ضيق، وعدم وجود أي مواد أو أشياء أخرى). واتضح أن القدرة على التعلم لدى حيوانات المجموعة الأولى كانت أعلى، بل وحتى كانت قشرة المخيخ أسمك بكثير من مثيلتها في المجموعة الثانية، وبالطبع، فهذه الاختلافات لم يتم انتقالها بالوراثة: تبعا للقوانين الوراثية، حيث الصفات المكتسبة لا تورث.

على نحو مشابه أيضا يكون بناء المجتمع: الكيفية التي بني بها، وإمكانيته على كبح جماح الصفات الحتمية الوراثية للنشاطات العصبية أو تسببه في تطورها وتزايدها، أي - باختصار - زحزحة معيار التفاعل في هذا الاتجاه أو ذاك. على ضوء ذلك يتوقف ازدهار المجتمع وتقدمه، وإذا ظلوا عندنا، على سبيل المثال، يحتقرون العلم ويستخفون به، وإذا لم يسارعوا إلى دعمه ومساعدته، فلن تبعث روسيا أبدا أو تنهض.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في العام الأول للميلاد أطلق الإمبراطور أغسطس أعنة الأزمنة السعيدة

أوشك عام ٢٠٠٠ أن يداهمنا، فماذا كان عليه حال العالم "الغربي" حيث بدأ العد التصاعدي (منذ مولد المسيح)؟

بقلم : ليونيل كاسون*

ترجمة: أ.د.محمد السيد عبدالغني

في الوقت الذي تخطو فيه الألفية الثانية من الفترة المسيحية نحو نهايتها سيتفكر محررو مجلة «تايم» في اختيارهم للشخصية البارزة عن العام الأخير من تلك الألفية، أي «رجل عام 1999 ميلادية» لكي يضعوه على الغلاف في العدد الملائم. ماذا سيكون عليه الحال لو كان عليهم أن يضيفوا الى اختيارهم كذلك الشخصية البارزة عن العام الأول من الحقبة «المسيحية»، أو رجل عام 1 للميلاد؟ أو بصفة أكثر تحديدا رجل العام الأول للميلاد في العالم الغربي وهو العام الذي ابتكر لحساب تقويم الزمن منذ مولد السيد المسيح وترسخ على هذا الأساس. ونظامنا هذا في التأريخ فكر فيه راهب مسيحي مثقف هو ديونيسيوس إكسيجووس «دينيس الصغير» الذي عاش في روما في حوالي نهاية القرن الخامس الميلادي وبداية السادس. لقد كان نظام التأريخ السائد في عصر ذلك الراهب قد وضعه من قبل دقلديانوس، وهو إمبراطور روماني سيئ السمعة بسبب اضطهاده الوحشي للمسيحيين، ولما كان الراهب ديونيسيوس يرى هذا النظام غير ملائم للمسيحيين. فقد ابتكر تقويما جديدا اختار له. كما نعرف جميعا اليوم. ميلاد يسوع المسيح. كما حسبه. كنقطة بداية له.

العنوان الأصلي للمقال: In The Year 1 Augustus Let The Good Times roll ونشر في مجلة Smithsonian عدد فبراير 1999

* ليونيل كاسون أستاذ الدراسات الكلاسيكية في جامعة نيويورك وهو كتب كثيراً عن العالم القديم لمجلة Smithsonian



في ذلك العام الذي اختاره ديونيسيوس ليبدأ به تقويمه كان هناك رجل واحد يتربع على «سدة الحكم» في العالم الغربي كتمثال هائل. لم يكن ذلك الرجل هو يوليوس قيصر الذي صوره شكسبير والذي انقطع تربعه «على العالم الغربي» فجأة وبلا مقدمات في منتصف مارس من عام 44 ق.م، أي قبل سنين عديدة، بل كان ذلك الرجل هو حفيد أخته «جوليا» اغسطس الذي عينه يوليوس قيصر وريثا له. لقد كان أغسطس شابا في الثامنة عشرة من عمره حين دفعه اغتيال قيصر دفعا إلى حلبة ومضمار السياسة الرومانية، كما كان في سن الثانية والثلاثين عند انتحار ماركوس أنطونيوس عام 31ق.م. وهو الانتحار الذي ترك أغسطس سيدا بلا منازع لحدود امتدت من أسبانيا إلى سوريا. وقد حوّل تلك الحدود الى الإمبراطورية الرومانية وقبض على أعنة السلطة بين يديه بصورة آمنة: فقد وضع ورتب الجهاز الحكومي الذي أداره وأنشأ الجيش والبحرية لحماية حدود الإمبراطورية. وقام بهذه المهمة خير قيام بصورة جعلت الإمبراطورية الرومانية تبقى وتستمر لقرون من بعده، وكان القرنان الأول والثاني منها هما قرنا «السلام الروماني أو الـ Pax Romana» الشهير، وهي أطول فترة من السلم ينعم بها العالم الغربي في كل عصوره.

كان العام الأول الميلادي هو العام الثلاثون من حكم أغسطس الذي حكم الإمبراطورية بسلطة مطلقة. وفي ذلك التوقيت كانت الحكومة التي أرسى قواعدها تؤدي عملها بصورة سلسة، كما ارتفع الستار عن الرفاهية التي يمكن أن يأتي السلام بها. لقد أصبح البحر المتوسط بأكمله مفتوحا آنذاك أمام التجارة وكانت دروبه ومسالكه آمنة لأن البحرية الرومانية - التي لم يعد أمامها عدو تحاربه - ركزت جهودها في القضاء على القراصنة.

كان الرومان يخففون نبيذهم بكثير من الماء، ومع ذلك فقد كانوا يصلون إلى حالة السكر

وكانت كميات هائلة من السلع تنتقل فوق المياه في سفن يمكن أن تكون في حجم وضخامة سفن شركة الهند الشرقية من القرن الثامن عشر. وكان القمح هو السلعة الأولى والأساسية لصناعة الخبز والثريد اللذين كانا أساس النظام الغذائي القديم. وكان زيت الزيتون والنبيذ يأتيان في المرتبة الثانية، حيث كان زيت الزيتون يشحن في السفن بكميات كبيرة لأنه كان بالنسبة للإغريق والرومان أكثر بكثير من مجرد صنف غذائي، إذ كان يؤدي لهم ما تؤديه الكهرباء والصابون بالنسبة لنا، إذ كان الناس يشعلونه في مصابيح للإضاءة ويدهنون به أنفسهم كمنظف، كما كان النبيذ يشحن بكميات كبيرة لأنه كان أكثر من مجرد مشروب مع الوجبات، إذ كانوا يحتسون قدحا منه كما نتناول نحن فنجانا من القهوة أو الشاي، وكلاهما لم يكن معروفا في العصور القديمة. ونظرا لأن الويسكي والبراندي وغيرهما من المشروبات الكحولية لم تكن معروفة. كذلك فقد كان النبيذ هو المشروب الوحيد في جميع

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



المناسبات الاحتفالية، وقد كان الرومان يخففون النبيذ بكثير من الماء ـ إذ كان الرأي السائد هو أن البرابرة ومدمني الشراب هم وحدهم من يحتسونها كما هي بغير تخفيف ـ ومع ذلك كانوا يثملون. وكانت هناك شخصيات شهيرة من أمثال الإسكندر الأكبر وماركوس أنطونيوس اشتهروا كذلك بولعهم بالشراب، وكذلك كان أحد الآلهة «أو بالأحرى أحد أنصاف الآلهة» وهو هرقل «هيركوليس» الذي كان مفرطا في الشراب كإفراطه في القتال والنزال. وكان بوسع ملاك السفن أن يكونوا ثروات وفيرة من التعامل في السلع الرخيصة ذات الحجم الكبير مثل الزيت والنبيذ. أما إذا كان منهم من يتوق إلى عائد أوفر وأكثر فقد كان يذهب لاستيراد الحرير والديباج والبهارات وما أشبه من سلع الرفاهية من بلاد الهند القصية ـ وهي سلع كانت قيمتها تجعل من السفينة التي تحملها كنزا حقيقيا. وسواء أكان التعامل في زيت الزيتون أو أنواع الحرير الفاخر فإن التاجر كان يحصل على المبالغ الطائلة التي يحتاج إليها لتمويل صفقته من خلال القروض البحرية التي كان يتعهد فيها بأن يكون الضمان للمبلغ المقترض هو البضاعة التي سوف يشتريها بهذا المبلغ. وكان لزاما على التاجر المقترض أن يدفع فائدة مقدارها 30٪ أو أكثر، لا بأس فإن الربح الذي يمكن أن يجنيه عندما يبيع سلعه يمكن أن يغطي ذلك بسهولة ويسر. وبالإضافة إلى ذلك فإنه في ظل القوانين التي كانت تحكم القروض البحرية فإن التاجر لم يكن يرد دينه إلا بعد أن تكون شحنته قد وصلت إلى بلده بسلام، وإذا ما غرقت السفينة «التي تحمل الشحنة المستوردة» فقد كان المقرضون هم الذين يتحملون الخسارة، إذ كان المستثمرون على استعداد لتحمل المخاطرة.

وفي بلاد اليونان وروما القديمة، حيث نادرا ما كانت الملكية العقارية تطرح في الأسواق وحيث لم تكن هناك مؤسسات نقابية أو أسهم وسندات وأشياء من هذا القبيل فإن القروض البحرية كانت من بين السبل القليلة المتاحة لتوجيه ضربة مالية قاتلة. ولم يكن هناك نقص «شح» في الرجال الراغبين في تدعيم صاحب سفينة بما يعادل مئات الآلاف من الدولارات حتى وإن لعب قدر من الحظ السيىء من رياح وطقس غاضب دوراً في الإطاحة بالصفقة الاستثمارية بالكامل، لأنه في حال وصول السفينة بسلام ـ وهو ما كان يحدث في أغلب الأوقات ـ فقد كانوا يجنون ثلاثة أضعاف ما كانوا سيجنونه من أرباح صافية من قرض عادي.

وعلى الرغم من أن تكوين ثروة طائلة من المال كان يأتي عن طريق البحر «كما رأينا» فإن البر كذلك كان يعرض فرصا طيبة في آونة السلم السائدة آنذاك. إذ كان بوسع التجار والحرفيين أن يثروا ثراء كبيرا، ولا سيما الصناع بصفة خاصة. وكان من بين المجالات الكبرى للصناعة صناعة الأواني الفخارية عن طريق تشكيل وحرق الطمى بكميات كبيرة. ولم تكن هذه الأدوات تشتمل على القطع الصغيرة الحجم فقط كمصابيح الزيت والأطباق وأدوات المطبخ للاستعمال المنزلي، وإنما كذلك الجرار الفخارية الضخمة أو الأمغورات التي يبلغ ارتفاعها في المعتاد حوالي خمسة أقدام والتي كانت تستخدم كحاويات لشحن الزيت والنبيذ ومواد غذائية أخرى لأن الخشب كان غالي الثمن بحيث

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لم يكن متاحا استخدامه لصنع البراميل. وكانت هناك حاجة إلى أعداد ضخمة من الجرار الفخارية إذ كانت سفينة الشحن العادية للزيت أو النبيذ تتسع لنحو ثلاثة آلاف جرة بينما تتسع سفينة الشحن الكبيرة لما يزيد على عشرة آلاف. وإذا ما وصلت سفن عديدة إلى ميناء لكي تحمل بضاعتها فيمكن أن تستوعب عشرات الآلاف من الأمفورات «الجرار» لكمي تملأ فراغاتها، وكان تصنيع مثل هذه الأعداد من الجرار الكبيرة يتم - مثل كل أنواع التصنيع في القصور القديمة - يدويا وفي مصانع صغيرة. إن التنظيم والإدارة التي جعلت من ذلك أمرا ممكنا لا بد أنها كانت على درجة عالية من الكفاءة التي لا تعرف إلى الرحمة سبيلاً.



ولم يكن يعيش هذه الرفاهية تلك الكثرة «من الصناع» وحدهم، بل إن جيرانهم الأقل حظا كانوا يستمتعون هم أيضا بأسباب الراحة والترويح العامة التي كانت تزودهم بها البلدات أو المدن التي يعيشون فيها. وكان شعور الرومان هو أن البلدة أو المدينة الصغيرة لا ينطبق عليها ذلك المسمى على الوجه الصحيح إلا إذا وفرت لقاطنيها شوارع ممهدة وإمدادات مياه غالبا ما كان يتم جلبها فوق قناطر مياه من مسافة أميال بعيدة، وحمامات عامة ذات أحواض وبرك بها مياه ساخنة وفاترة وباردة وهي حمامات كانت مفتوحة للجميع أغنياء وفقراء، وفي العام الأول للميلاد كان الفقراء في المدن الرومانية والبلديات يشربون مياها أفضل ويغتسلون أكثر من كثير من أقرانهم في المدن والبلدات الأمريكية مع حلول عام 2000 ميلادي.

وكان من بين وسائل الترويح التي كانت تقدمها البلدات والمدن مجانا لقاطنيها الإمتاع والترفيه الذي يتضمن الألعاب ذات الحضور الجماهيري في المقام الأول مثل سباقات العربات ومصارعات السيافين المتبارزين. وكانت سباقات العربات تشكل جزءا من برنامج بعض الاحتفالات الدينية الرسمية، كما كانت تعرض مبارزات السيافين ولكن ليست كأحد الملامح أو المظاهر المنتظمة وإنما كانت تعرض من قبيل الإغراءات الإضافية التي يتحمل تكلفتها سياسيون طموحون أو الإمبراطور في عهد أغسطس وما تلاه. فقد مول أغسطس - على مدى فترة حكمه - ثمانية عروض مبارزة للسيافين ليشاهدها عموم الشعب الروماني، وفي هذه المبارزات تصارع ما لا يقل عن عشرة آلاف رجل، أي بمعدل متوسطه حوالي 1250مصارعا في العرض الواحد. وعرض واحد من هذه العروض الثمانية عام 2 ق.م، ولا بد أنه كان عرضاً كبيراً لأنه كان جزءا من طقوس واحتفالات إهداء «نذر» معبد للإله «مارس المنتقم Mars Ultor» كان قد أقامه الإمبراطور ليعبر عن شكره للإله على الانتصار في الموقعة الحاسمة ضد قتلة قيصر، وهو الانتصار الذي شكل خطوة حاسمة وحيوية في طريق أوكتافيان «الإمبراطور أغسطس لاحقاً» نحو العرش الإمبراطوري. وفي عصره لم تعد منافسات السيافين مرتبطة بالضرورة باحتفالات دينية رغم أن سباقات العربات بقيت مقترنة بتلك الاحتفالات، وفي الحالتين لم يتأثر المشاهدون لأن الدخول للمشاهدة كان مجانياً.

أما عن الرعاية الصحية فإنها - وإن لم تكن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

صورة الإمبراطور أغسطس باعتباره رجل العام الأول لميلاد المسيح على غلاف مجلة «تايم» الأمريكية كما تخيل المؤلف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مجانية ـ كانت على الأقل في متناول الفقراء. ولم يكن مصدر البر والإحسان في هذه الحالة الحكومة وإنما الدين، إذ كانت المدفوعات المطلوبة هبات للإله الذي كان يقبل بصورة حانية كل ما كان يقدم له. كان ذلك الإله هو أسكليبيوس الذي كانت مزاراته ـ المزودة بالمباني الملائمة ولها أطقمها من الكهنة المدربين تدريبا جيدا ـ تقوم بالخدمات التي يؤديها مركز طبي. وكان المرضى يتدفقون إلى هذه المزارات من جميع الأرجاء لأنهم كانوا يعلمون أن من سيتولى علاج حالاتهم طبيب لا يبارى هو الإله نفسه. فبعد أن يتلقوا إعدادات طقسية وعقائدية ذات رهبة وجلال كانوا يمضون الليل في مكان مبيت مقدس وكان الإله يتراءى لهم في المنام ويصف لهم العلاج الذي ينبغي اتباعه.

وإذا لم يكن الحلم واضحا كان كهنة المعبد أمامهم يقدمون لهم تفسير الرؤيا. فمن خلال ما يذكره المرضى عن عللهم كان بوسع الكهنة عادة تقديم وصفات طبية علاجية قياسية مثل تغيير النظام الغذائي وممارسة التمارين الرياضية والأدوية والمطهرات والحجامة. ولم يكن أي من طرق العلاج المذكورة هذه يجدي نفعا كثيرا مع مرضين من أكثر الأمراض شيوعا في العصور القديمة هما الملاريا والسل «الدرن»، وربما كان تأثيرهما محدودا بالنسبة لأمراض أخرى كثيرة كانت تواجه الكهنة، ولكن ما كان يعين بالقطع في الشفاء في كل الحالات هو التأثير والإيحاء النفسي لتلك الطقوس والإجراءات ذات الجلال.

ومن بين العناصر التي أسهمت بدرجة كبيرة في الأيام المشرقة في العام الأول لميلاد المسيح وما سبقه وما تلاه من أيام. فضلا عن الاقتصاد المتنامي بقوة والبلديات والمدن المزدهرة بما فيها من خدمات عامة وسبل ترفيه ـ الأمن الذي حظيت به الإمبراطورية بفضل قواتها المسلحة. فقبل عهد أغسطس كان يتم تعبئة القوات وتجهيز السفن الحربية متى اقتضت الحاجة، ذلك فقط، وكان من أعظم إنجازات أغسطس هو إقامته لجيش نظامي محترف وسلاح بحري «أسطول»، وكان كلاهما على أعلى مستوى. وكان كل أعضاء الجيش من المتطوعين الذين كانوا يوقعون على مدد خدمة بالجيش لا تقل عن عشرين عاما بشغف وحماسة لأن الخدمة في الجيش كانت تمنح الشخص منهم مكانة وملاذا وسكنا وراتبا جيدا ومنافع ومميزات عند التسريح من الخدمة بالإضافة إلى ذلك. وكان البند الأكبر في ميزانية الجيش هو جدول المرتبات لأن أفراد الجيش كانوا يحضرون معهم أسلحتهم وطعامهم، كما كان البند الأكبر في ميزانية البحرية هو بند سفن الأسطول. وكانت سفينة القتال القياسية التقليدية هي السفينة ذات الثلاثة صفوف من المجدفين أو Trireme وهي سفينة شراعية قتالية كبيرة تكفي وتتسع لحوالي 200 مجدف منتظمين في ثلاثة صفوف فوق بعضها وبحارة يقتحمون ويهاجمون السفن الأخرى «المعادية» أو يردون من يحاول اقتحام سفينتهم على أعقابه. كما كانت بعض السفن القتالية أكبر من ذلك بل وتتسع لعدد أكبر من المجدفين.

> "وأما المجدفون في سلاح البحرية فقد كان حافز الالتحاق به هو المزية عند التسريح من الخدمة ألا وهي المواطنة الرومانية"

وكان إجمالي عدد سفن هذه الأساطيل الرومانية مئات عدة من مثل تلك السفن المذكورة، وكان كل منها يمثل قدرا كبيرا من النفقات. فالأخشاب التي خصصت لكل سفينة قتالية كانت أجود أنواع الأخشاب. لضمان وتأمين قوة ملائمة لبدن السفينة كان بناؤها أقرب إلى صناعة الأثاث والموبيليا الفاخرة منه إلى النجارة، إذ كانت الألواح

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

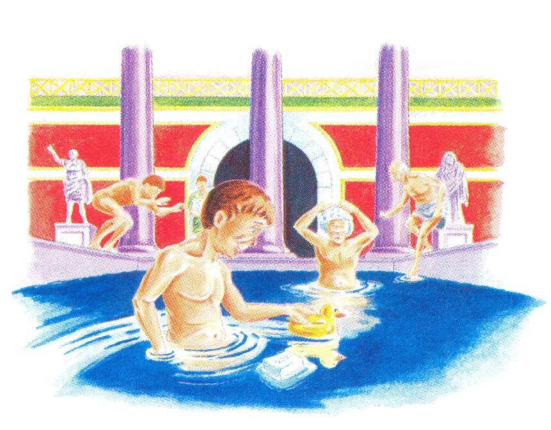
الخشبية تثبت في بعضها بعضاً بآلاف من الوصلات والمفاصل المتصلة بصورة وثيقة معشقة بطريقة التجاويف التي تملؤها ألسنة خشبية محكمة كل منها صنّع يدويا - بطبيعة الحال - بقدر كبير من الجهد.

وكان سلاح البحرية مطالبا كذلك بالوفاء بجدول رواتب كبير لأن المجدفين - خلافا للتصور الخاطىء السائد - لم يكونوا عبيدا، بل كانوا أحراراً رغم أنهم يتقاضون رواتب أقل من جنود الجيش ومع ذلك فقد كانوا يحصلون على أجور معقولة. (إن العبيد الذين يعملون على السفن الحربية لم يدخلوا التاريخ إلا بعد فترة طويلة من نهاية العصور القديمة). ولم يكن السلاح البحري يجد مشكلة في تعبئة وتجنيد الآلاف من الرجال الذين كان يحتاج إليهم لدفع مجاديف سفنه الحربية وكان هؤلاء يأتون من الولايات الخاضعة لروما، وكان الحافز القوي لهم للالتحاق بالبحرية الرومانية هو المزية التي يحصلون عليها عند تسريحهم من الخدمة - ألا وهي المواطنة الرومانية.

وتعد السياحة من جوانب الحياة التي استفادت بدرجة هائلة من السلام والأمن الذي كفله الجيش الروماني في البر والأسطول في البحر. فقبل عصر أغسطس كانت حالة الحرب المزمنة والأوضاع غير المستقرة بصفة عامة تثبط من همة من يريدون السياحة ومشاهدة معالم البلدان. وفضلا عن ذلك فقد كانت هناك قلة من الأثرياء الذين بإمكانهم السفر لهذا الغرض. أما في خلال سنوات «السلام الروماني» فإن الظروف والأوضاع كانت مواتية كما أن الرفاهية العامة جعلت أعداد القادرين على السفر للسياحة أكبر بكثير من أي وقت مضى أو لعدة قرون بعد ذلك، والذين كانوا يقومون بالسفر رغم أنه لم يكن أمرا هينا، إذ كان السفر إلى أي مكان فيما وراء البحار يعني حجز ركوب على ظهر سفينة شحن «إذ لم يكن هناك سفن ركاب بالمعنى المعروف»، وأما الذهاب الى أي مكان بالطرق البرية فيعني تجشم وعثاء السفر في مركبات مرهقة، وفوق هذا كله فإنه متى ما شرع المسافر في رحلته على الطريق فإن صلته بالوطن تكاد تكون مقطوعة، إذ كانت الخدمة البريدية الوحيدة المتاحة هي الخدمة البريدية الخاصة بالشؤون الحكومية سواء الصادرة من رجال الحكومة أو الواردة إليهم. وكان على الأفراد العاديين إذا ما أرادوا أن يبعثوا خطاباً أن يجدوا شخصا متجها إلى الوجهة المرغوبة «حيث يقطن المرسل إليه» بحيث يكون لدى حامل الرسالة الرغبة في حملها ونقلها والاستعداد لتجشم عناء تحديد عنوان المرسل إليه - وهو أمر لم يكن يسيرا في وقت كان فيه عدد الشوارع التي تحمل أسماء قليلا ولم تكن هناك شوارع تحمل لافتات توضيحية ولم تكن المنازل مرممة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وكان السياح يتقبلون المصاعب عن طيب خاطر، وكانت نقطة الجذب للسائح - كما هي الحال في أيامنا هذه غالبا - هي جاذبية أطلال الماضي، فنحن نتلمس طريقنا بمشقة إلى حيث أمضى «جورج واشنطن» ليلة وحيث عاش «كلود مونيه» وحيث دفن نابليون. أما سياح ذلك الزمان فكانوا يتلمسون طرقا وعرة إلى حيث أمضى الإسكندر الأكبر ليلة وحيث عاش سقراط وحيث دفن أخيليوس. ونحن نهرع إلى إنجلترا



لزيارة موطن شكسبير، أما هم فكانوا يتدفقون على طروادة في آسيا الصغرى لزيارة البلد الذي وصفه هوميروس (حيث كانوا يشاهدون الشاطئ الذي سحبت إليه ورست فيه سفن الإغريق، والسهل الذي شهد الصراع المرير بين هيكتور وأخيليوس، والكهف الذي أطلق منه باريس حكمه المدمر «حين احتكمت إليه الربات هيرا وأثينا وأفروديتي عن أجملهن» وهكذا).

كما كانوا ييممون شطر مصر لكي يشاهدوا الأشياء نفسها التي نراها نحن الآن، الأهرامات وأبوالهول العظيم ووادي الملوك. ونحن نعرف الكثير من الأماكن والبقاع التي زاروها بالتحديد لأنه كانت لديهم عادة ما زالت قائمة بين الناس حتى اليوم هي خربشة «نقش» أسمائهم على الموقع الذي زاروه. ففي أحد هذه النقوش أو الخربشات التي تركها زائر روماني على جدران معبد إيزيس على جزيرة فيلاي إلى أقصى الجنوب على النيل قرب الشلال الأول نقرأ ما يلي: أنا لوكيوس تريبونيوس أوريكولا، كنت هنا (مكتوبة باللغة اللاتينية هكذا L.Trebonius Oricule hic fui)، ولو كانت اللغة الأم لكيلروي الذي حظي بشهرة طاغية خلال الحرب العالمية الثانية هي اللاتينية لاستخدم هذه الكلمات نفسها أعلاه، ولكنه تريبونيوس أضاف التاريخ: وهو اليوم الثامن قبل غرة شهر أبريل من القنصلية الثالثة عشرة للإمبراطور أغسطس. وهو ما يعني بحساباتنا الحالية بالضبط 25 مارس من العام الثاني ق.م. أي قبل عامين من بداية التقويم الميلادي.

وكان السائح القديم - مثل نظيره الحديث - يعود إلى وطنه بهدايا تذكارية من أسفاره ورحلاته، وكان من بين المشاهد الكبرى في أنطاكية - على سبيل المثال - تمثال شهير للربة «تيخي» ربة الحظ، وقد عثر على كمية كبيرة من النسخ المصغرة لهذا التمثال ومن جميع أنواع المواد: من الزجاج والفخار والبرونز والفضة والأحجار، وقد كانت عبارة عن حلي صغيرة يتحلى بها السياح، وكانت هي المرادف والمساوي القديم للنسخ المصغرة من تمثال النبي «داود» الذي نحته مايكل أنجلو والتي يبيعها الباعة الجوالون في فلورنسا اليوم، أو نسخ برج إيفل التي تباع في باريس. وكانت التجارة في هذه الهدايا التذكارية هي التي تسببت في متاعب كثيرة للقديس بولس حين كان في إيفسوس: إذ كان معبد الربة أرتميس في إيفسوس واحدا من أعظم مشاهد المدينة. وقد أصاب الإحباط والضيق صناع الفضة الذين كانوا يصنعون نسخا مصغرة من محراب أرتميس لبيعها للزوار وذلك من جراء التأثير القوي الفاعل (بالسلب طبعاً) لتبشير القديس بولس ضد الآلهة «الوثنية».

> "في العام الأول للميلاد كان الفقراء في المدن الرومانية يغتسلون أكثر مما سيفعل كثيرون من الأمريكيين عام 2000م"

أما شؤون السياسة الخارجية - التي لم يكن لأغسطس عليها نفس السيطرة والتحكم الذي مارسه في الشؤون المحلية الداخلية - فقد جرب وذاق مرارة بعض الإخفاقات، إذ على الرغم من أنه كان يمتلك تحت قيادته أفضل وأقوى جيش في العالم الغربي فقد فضل - في نشره للسلام والعمل على استتبابه - المناورة الدبلوماسية والتفاوض على القوة. فقد واجه في عام 4ق.م - على سبيل المثال - اضطرابا كبيرا كامنا في فلسطين، وهي منطقة كان إقرار السلام فيها أمرا شائكا على الدوام. وكان هيرود الأكبر ملك المنطقة قد نجح من قبل في أداء هذه المهمة لأكثر من ثلاثة عقود من خلال جمعه بين التعامل الصارم مع أعدائه والتعامل اللبق الأنيق مع الانقسامات المذهبية «الدينية» والسياسية، لكن وفاته عام 4 ق.م أزاحته من مشهد الأحداث وسرعان ما أطلت المشاكل برأسها. وكان هيرود قد تزوج عشر مرات وأنجب أبناء عديدين، وعلى الرغم من أنه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قتل عددا منهم فإن من تبقى منهم كان فيه الكفاية للشروع في نزاع ومشاحنات حول وراثة العرش. وقد حسم أغسطس النزاع والجدل المحتدم بطريقة سليمان عن طريق تقسيم المملكة بين أكبر ثلاثة أبناء، وكان لهذا الحل نتائج وعواقب خطيرة: فالابن الذي حصل على الجزء الجنوبي من المملكة الذي كان يضم يهودية وأورشليم «القدس» أصبح مكروها للغاية حتى أن أغسطس خلعه في عام 6للميلاد ونفاه وضم حدوده إلى الإمبراطورية كولاية يحكمها موظف روماني. وكان الموظف السادس من هذه السلسلة من الموظفين الرومان في هذه الولاية هو بونتيوس بيلاتي، وكما نعلم فإن «بونتيوس بيلاتي» كان له إسهامه الخاص بالنسبة للعام الأول الميلادي. ففي عام 30م سنجده يترأس إدانة يسوع المسيح والحكم عليه بالإعدام صلبا، وهكذا بدأ العملية التي سوف تقود الراهب المسيحي الصغير دينيس - بعد نحو خمسمائة عام - إلى اختيار مولد المسيح كنقطة بداية لحقبته الجديدة، الحقبة المسيحية.

ولكن كانت هناك منطقة واحدة لم يستطع أغسطس أن يلجأ فيها إلى الدبلوماسية أو المفاوضات وهي المنطقة الواقعة بمحاذاة الحدود الشمالية بين الغالة - التي كانت جزءا من الإمبراطورية - وبعض أراضي متاخمة لها في حوزة القبائل الجرمانية التي كان لها - بناء على ذلك - مدخل يسير وطريق مفتوح للإغارة على القرى الغالية واستفادت من هذه الميزة. هنا كان لابد للإمبراطور من استخدام الجيش، وفي السنوات الافتتاحية من القرن «الأول الميلادي» استمرت العمليات على ما يرام، ثم اختار أن يلقي بالمسؤولية على رجل غير ملائم فأساء الاختيار، ذلك الرجل هو كوينكتيليوس فاروس. ففي عام9م قاد فاروس قوة مؤلفة من نحو عشرين ألفا من الرجال الأشداء مباشرة إلى كمين نصبه الجرمان في غابة تيوتوبرج فأبيدت القوة الرومانية وانتحر فاروس، واستولى الجرمان على رايات وأعلام الفرق الثلاثة، وهو أقسى أنواع الإذلال والمهانة التي تعرض لها الجيش الروماني. وبعد أن وصلت هذه الأخبار إلى أغسطس أطلق شعره بصورة كثيفة لمدة أشهر ولم يحلق وكان بين الحين والآخر يضرب رأسه بعنف في الباب ويصيح «رد إلي فرقي يا فاروس». وكان لهذه الهزيمة عواقبها على المدى الطويل: إذ ساهمت في إقصاء جزء كبير من ألمانيا بعيدا عن قبضة الإمبراطورية الرومانية، وكنتيجة لذلك فإن الألمان يتحدثون الآن بلغتهم هم وليس بلغة تمثل صورة ما من صور اللاتينية *.

كما كانت الحدود إلى الشرق مصدر قلق وإزعاج، وهنا أفلح أغسطس في إنجاز ما سوف يؤول إليه الأمر من بعد من خلال الدبلوماسية، إذ كان يقبع عبر الحدود القوة المنافسة الوحيدة لروما وهي مملكة البارثيين التي تحتل الأراضي القديمة التي كانت في حوزة الفرس وراء نهر الفرات. وكان السبب في صلابة ومنعة البارثيين هو جيشهم: إذ كان الرومان يعتمدون على جموع كبيرة من قوات المشاة المدربة تدريبا عاليا وعلى درجة كبيرة من التنظيم وكان سلاحها الرئيسي هو الرمح والسيف، أما البارثيون فكانوا يعتمدون على فرسان مسلحين تسليحا خفيفا وكان القوس هو سلاحهم الرئيسي. وكانت «الرمية البارثية» واحدة من خصائصهم المميزة: إذ يتظاهرون بالتقهقر وفي أثناء عدوهم السريع على ظهور خيولهم يقومون فجأة برشق أعدائهم الذين يلاحقونهم وهم غافلون بسهام تنطلق إلى الوراء. ففي عام 53ق.م غامر قائد روماني «كراسوس» بعبور نهر الفرات بجيش كبير واختار بلا تمييز وبطريقة خرقاء سهلا منبسطا لكي يلتقي فيه مع القوة البارثية التي أتت لكي توقفه، فقام

* كالإيطالية والفرنسية والأسبانية والبرتغالية، وهي لغات مشتقة من اللاتينية مع فروق محلية في النطق والنحو المترجم

الفرسان البارثيون بتصويب وإطلاق سهامهم على جموعه من قوات المشاة كما لو كانت مجموعة من البط في بركة أو غدير فألحقت بروما واحدة من أسوأ الهزائم التي حاقت بها على الإطلاق. وعاد البارثيون إلى موطنهم ومعهم رايات الفرق الرومانية وآلاف من الأسرى، وظل الرومان على مدى عقود ينتحبون ويتألمون لهذا الوضع، وهو يشبه إلى حد كبير ما فعلناه (يقصد الأمريكيين) بشأن الأمريكيين الذين وقعوا أسرى خلال حرب فيتنام. وأخيرا وفي سنة 20 ق.م نجح أغسطس - بمزيج من الدبلوماسية واستعراض القوة، في استعادة كل شيء وكل فرد ممن كانوا في الأسر.

ولكن الملوك البارثيين الذين كبحت روما جماحهم في الغرب - توسعوا نحو الشرق إلى الهند. إن الهند اليوم - بكل تقسيماتها اللغوية والدينية والثقافية - تشكل على الأقل وحدة سياسية، أما في بداية الحقبة المسيحية فإنها لم تكن حتى كذلك، إذ كان البارثيون مسيطرين على شمالها الغربي وغزاة من آسيا الوسطى على بقية الشمال، وكانت هناك عائلة حاكمة قوية من أهل البلاد في الوسط وعدد من الحكام المحليين يقتسمون الجنوب. وفي ظل هذه التعددية والتنوع السياسي فإن الحياة كانت هندية الطابع بدرجة ملحوظة: إذ كان السكان ينقسمون - كما كان عليه الحال قبل قرون - إلى طوائف اجتماعية وكانت النسوة يحرقن أنفسهن وهن على قيد الحياة في محرقة الزوج المتوفى نفسها رمزا للإخلاص، وكان الأرز هو الطعام الأساسي (كان تجارب الغرب الذين يقيمون في الهند لبعض الوقت تهفوا نفوسهم للخبز لذا اعتادوا أن يضمنوا شحناتهم التي أتوا بها من أوطانهم قدرا ضئيلا من الحبوب لاستخدامهم الشخصي)، كما كان هناك ذلك الخليط من الديانات الشائعة من بوذية ويانية وهندوسية.

وفيما وراء الهند كانت تقع الإمبراطورية الصينية التي كانت تحصر العالم المعروف آنذاك من جهة الشرق كما كانت الإمبراطورية الرومانية تحصره من الغرب. وكانت هاتان الدولتان الكبيرتان تعرفان عن بعضهما بعضاً - وإن كانت معرفة سطحية ليس إلا - وكان ما بينهما من اتصالات غير مباشرة. وكان التجار الغربيون على دراية بأن الحرير الذي كانوا يشترونه في الهند ليشحنوه إلى البحر المتوسط كان يأتي من الصين، إذ كتب أحدهم «هناك مدينة عظيمة جدا في الداخل تسمى (ثينا) تشحن منها خيوط وغزل ومنسوجات الحرير.. وليس من اليسير الوصول إلى (ثينا) هذه إذ نادرا ما يأتي أناس منها، وهم قلة قليلة»، ومن المحتمل أنه توصل إلى هذه المعلومات من بحارة من منطقة الملايو أو الهند ممن كانوا يطوون عباب البحر بين الصين والهند، أو من تجار قوافل من آسيا الوسطى ممن كانوا يذرعون الطرق البرية جيئة وذهابا. وقد كان من سوء طالع العالم الغربي أن العلاقات لم تكن أوثق مما كانت عليه، لأنه ربما كان بوسع الغرب الحصول على بعض الأشياء المفيدة في وقت أسبق بكثير مما حدث في خاتمة المطاف. فقد عرف الحدادون الصينيون - على سبيل المثال - كيف يصنعون الحديد المصبوب، كما كان بحوزة العمال الصينيين تلك الآلة المتواضعة ولكن فائقة الكفاءة وهي عجلة اليد «العجلة ذات الصندوق التي تدفع باليد» لنقل الأحمال عليها، وكان لدى الأطفال الصينيين طائرات ورقية للتسلية، وكل هذه أشياء لم يعلم بها الغرب حتى العصور الوسطى، بل وبعد ذلك.

في العام الأول من ميلاد المسيح كانت الإمبراطورية الرومانية - التي أوجدها أغسطس قبل أقل من ثلاثين عاما - إمبراطورية فتية وقوية. وقد عم السلام ربوع هذه الإمبراطورية وازدهرت التجارة والصناعة واستمتع الناس - غنيهم وفقيرهم، عظيمهم ووضيعهم - بالخدمات الحضرية العامة ووسائل الترفيه المجانية. وكان جيران روما يتسمون بالهدوء - باستثناء الجرمان - ولن تكون الاضطرابات التي يتسببون فيها جادة أو خطيرة حتى وقت لاحق، ويعود الفضل في كل ذلك أساسا إلى أغسطس - رجل العام، حتى وإن كان رجل العام على مدى عقد سبق وسيكون كذلك على مدى عقد لحق.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



الذعر يجتاح أوروبا

بقلم: باتريشيا برنشتاين

ترجمة: د. إسحق عبيد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ونحن نتطلع إلى الألفية الثالثة بمشاعر من التوجس والخيفة يطالعنا كتاب العصور الوسطى بما وقع في أوروبا من أحداث وظواهر مع نهاية الألف الأولى للميلاد.

العنوان الأصلي للمقال: Terror In A. D. 1000 ونشر في مجلة Smithsonian عدد يوليو 1999



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إن الحكايات الشعبية التي وصلتنا عن مشاعر الناس مع قرب نهاية الألفية الأولى في القارة الأوروبية تكشف عن عالم وقد تملكه إحساس بالذعر والهوس. ويحدثنا المعلقون على تاريخ تلك الحقبة أنه مع اقتراب نهاية الألفية الأولى ساد شعور من الهلع بين الناس بأن يوم القيامة قادم، وبأن العالم سوف يكتوي بلظى من لهيب جهنم إيذانا بيوم الدينونة.

ففي حديثه لمحطة الإذاعة الوطنية في برامج «حصاد الأسبوع» سنة 1996 م، قال الأستاذ ليان هانسن: «لقد أصيبت أوروبا بالجنون... وحل بنفوس الناس حال من الذعر الشديد... واكتظت الكنائس بالتوابين الذين هرعوا يبحثون عن كفارة تمسح آثارهم... أما أتقياء القوم فقد جاؤوا يتطلعون إلى قدوم «المخلص»، أو الشيطان نفسه، وكان هذا التزاحم والهلع بسبب اقتراب الألفية الأولى للميلاد من الانتهاء».

وبدا للناس أن ما ورد في «سفر الرؤيا» عن يوم القيامة واقع لا محالة.

إن هذه القناعة بأن العالم قد أوشك على الانقضاء أصابت القارة الأوروبية في مختلف أركانها بمشاعر من الخوف والهلع، إلى حد أن الفلاحين راحوا يهجرون حقولهم، كما أن الجنود أخذوا يفرون من ميادين القتال، وأما أثرياء اليوم من أصحاب الأراضي والأملاك فقد وهبوا ما يملكون تبرعاً للكنائس. كما تقاطر الخلق على «مذابح» بيوت العبادة، يترقبون لحظة النهاية وما تخبئه الأقدار.

في سنة 1997م ظهرت مقالة في مجلة «الأنباء وأحوال العالم» الأمريكية، يقول فيها كاتب المقالة إنه مع حلول سنة 1000م «ساد الناس شعور بأن العالم إلى انتهاء، فتوقف كثير من أهل الإيمان عن ممارسة حياتهم اليومية، سواء في الدار أو الحقل أو المتجر».

وفي طبعة حديثة، لكتاب بعنوان «عالم على شفا النهاية» (صدر في العام 1998 م)، يقدم لنا صاحبه ريتشارد إردوس صورة لما كان يجري على أعتاب بازيليكا القديس بطرس (في روما) في آخر أيام سنة 999م في الآتي:

«إن الكثير من البشر، وقد زاغت نظرات عيونهم، انبطحوا على الأرض الرخامية بوجوههم، وقد بسطوا أذرعتهم على شكل الصلبان. وفي ركن آخر من صحن الكنيسة كانت قلة من الناس في حال من النشوة الهستيرية يتطلعون إلى لحظة التوحد مع شخص المسيح عند ظهوره. ومع مرور الدقائق واقتراب ساعة الصفر خيّم سكون رهيب على البازيليكا بما فيها ومن عليها».

وها نحن اليوم مع اقتراب نهاية الألفية الثانية للميلاد، نلحظ فيما يتداول بين الخاصة والعامة من الناس، وفي وسائل الإعلام بمختلف قنواتها، لغطا متزايدا عن وقع نهاية الألفية الأولى على البشر، وبأنها كانت بالنسبة لهم أوقات ذعر بالغ، شمل المعمورة من أقصاها إلى أقصاها.

غير أن جل ما نلوكه اليوم عن هذا الماضي البعيد من ذعر وهلع يبدو ضربا من ضروب الخيال، لا يؤيده الواقع: إذ لم يكن الهلع بالقدر نفسه الذي نتكلم عنه، كما أن الناس في كل بقاع الأرض لم يهجروا نشاطهم اليومي، ترقباً للحظة الموت ويوم الحساب. ولا نكاد نجد من وثائق العصر أو المراسيم البابوية أو الملكية المعاصرة ما يشير إلى تلك الهستيريا الجماعية التي نتحدث نحن عنها اليوم في إفاضة. كما أن المشتغلين بتاريخ العصور الوسطى من أهل التخصص على مدار هذا القرن الأخير يدحضون بشدة ما يروج بين الناس اليوم عن هذا الذعر المزعوم وهم يصفون هذا الزعم بأنه من باب «الأساطير» عن خاتمة الألفية الأولى.

ولكن واحدا من أساتذة التاريخ الوسيط قد حاج أخيراً بأن ما قد تواتر بين الناس عن ذعر وهلع مع اقتراب نهاية الألفية الأولى للميلاد له ما يؤيده تاريخياً. وهكذا اشتعل وطيس المعركة بين المؤرخين أنفسهم بين أخذ ورد، حتى أن بعضهم راح يتهم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

البعض الآخر «بالتآمر على حقائق التاريخ».

ولئن دلّ هذا الخلاف على شيء فهو إنما يدل على أن هذه القضية الملغزة والمثيرة، كغيرها من القضايا التاريخية الجدلية الأخرى، إنما تكشف لنا عن أمر جوهري للغاية، ألا وهو الكيفية التي نتناول بها أحداث الماضي، والمشاعر التي نترقب بها نحن المحدثين قرب طلوع ألفية ثالثة، وكذا دور البشر في صياغة تواريخهم على مختلف شعابهم.

ما من شك في أن القرون التي سبقت نهاية الألف الأولى للميلاد كانت أوقات ظلام دامس: فقد ابتليت القارة الأوروبية بموجات من الغزوات المتبربرة من ماجيار، ومشرقيين، وفايكنج، إلى جانب سلسلة من الأوبئة الفتاكة والمجاعات، مما أدى إلى حال من الخراب اليباب في كل أصقاع القارة. أما زهرة المدائن الأوروبية - روما - فقد سقطت تحت حوافر خيل قبائل القوط الجرمانية، فحل بها وبأهلها دمار ساحق ماحق. وباتت المدينة التي كان تعداد أهلها من قبل قرابة المليون من البشر، تؤوي 50 ألف نسمة فقط داخل أسوارها المهدمة، بحيث صارت شبحاً شاحباً بالياً ينعي ماضيه التليد، كما يقول الأستاذ جيمس روستون في كتاب بعنوان «يوم القيامة الأخير: أوروبا مع نهاية سنة ألف للميلاد». أما مدرج الاحتفالات الرسمية المهيبة في قلب روما (الكولوسيوم) فقد مسخَ تماما، حتى أن الملابس المتسخة المغسولة صارت تتدلى من نوافذه، بعد أن صارت خرائب المدرج مسكنا لكل من هب ودبّ.

أما سواحل إنجلترا وبلدان الشمال الأوروبي فكانت بقراها ونجوعها في رعب دائم من هجمات «لصوص البحر» من جماعات «الفايكنج» المتبربرين، بحثاً عن الذهب ورقاب الأهلين المروعين. كما أن خيالة الماجيار اجتاحوا وسط أوروبا، وعصفوا بمدائنها واحدة بعد الأخرى. وفي سنة 1991م، في معركة «مالدون» تصدى أهل إنجلترا السكسونية لهجمة أهل الشمال «الدانيين» الوثنيين، ولكن الدائرة دارت على الأنجلو سكسون. وكانت هذه المأساة نفسها تتكرر صبيحة كل يوم في مختلف بلدان أوروبا، لمدة أربعين عاماً متواصلة، وصولاً إلى سنة 999 للميلاد.

ويعقب الأستاذ روستون على تلك الأحوال المتردية بقوله: «لقد ساد القارة الأوروبية شعور بأن شيئا مهولا واقع لامحالة - يعصف بأوروبا عن بكرة أبيها».

ليس غريباً إذن، والحال كذلك، أن يصدق أهل العصر، خاصة البسطاء منهم، ما خرج به بعض المتنبئين من نبوءات بأن نهاية العالم قد اقتربت، وبأنها واقعة مع نهاية الألفية الأولى على وجه التحديد. ولقد صادفت هذه الأقاويل كل القبول في نفوس مستمعيها، خاصة وأن الكنيسة لم تكف عن تذكيرهم بما ورد في «سفر الرؤيا» للقديس يوحنا حيث يقول: «ورأيت ملاك الرب نازلا من السماء ومعه مفتاح الهاوية وسلسلة عظيمة على يده، فقبض على التنين الحية القديمة الذي هو إبليس والشيطان، وقيده ألف سنة وطرحه في الهاوية، وأغلق عليه لكي لا يضل الأمم في ما بعد، حتى تتم الألف سنة، وبعد ذلك لابد أن يحل زمان يسير... وأما الكافرون والخطاة فسوف يلقى بهم في بحيرة النار... أما الأبرار فلن يكون لهم موت ثان، ولا يكون هنالك حزن ولا صراخ ولا وجع فيما بعد، لأن الأمور الأولى قد مضت».

ولقد أجج من مشاعر الذعر بين الناس أن أدعياء النبوة آنذاك قد انتشروا في القرى والكفور الأوروبية في أوقات الضيق والمجاعات والأوبئة وغضب الأرض بزلازلها، واشتعال السماء بالشهب المحترقة، ليروعوا القوم هنا وهناك بأن نهاية العالم تطل من الأفق البعيد.

ورغم أن وثائق العصر التي تشير إلى هذه الكوارث نادرة، إلا أن الأستاذ برنارد ماك جن، من جامعة شيكاغو، قد أوضح أن أهل العصور الوسطى في أوروبا كانوا يعيشون دوماً في حال من الريبة والتوجس والترقب ليوم القيامة، وأن هذه المشاعر التي كانت تخامر الناس وقتئذ «يصعب علينا نحن أبناء اليوم أن نتفهمها تمام الفهم»، ويضيف الأستاذ

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

برنارد، وهو يمثل حجة في التاريخ الوسيط بين أوساط المؤرخين الأمريكيين، أن العصور الوسطى على مداها كانت مشحونة بمشاعر الخيفة والتوجس وإن كان الذعر الشديد قد تركز حول سنة 1000م على وجه التحديد.

ولكنّ فريقا آخر من المؤرخين قد عبروا عن سخطهم بل وغضبهم من آراء الأستاذ برنارد، حتى أن أحدهم صرح أنه «يود من كل قلبه أن يقصف رقبة تلك الأسطورة الزائفة عن الذعر المزعوم الذي قيل إنه قد اجتاح أوروبا سنة ألف للميلاد».

ونحن أمام هذه الآراء المتناطحة، كيف لنا أن نفسر هذه الإشكالية التاريخية، وما يدور حولها من قيل وقال، ثم ماهي الأسباب التي أعطت لهذه الأقاويل مصداقية في ضمائر الكثير من الخاصة والعامة لردح طويل من الزمن؟

إن هذه التساؤلات تأخذنا إلى القرن السادس عشر، عندما انصرف علماء النهضة الأوروبية إلى التنقيب في سجلات العصور الوسطى وما صادفوه منها من أحداث غريبة تزامن وقوعها مع نهاية الألفية الأولى للميلاد. وحقيقة الأمر أن هؤلاء العلماء أسقط الكثير من مجريات أحداث أيامهم على تفسيراتهم لتلك الوقائع من عصور «الظلام» كما كان يحلو لهم تسميتها. ومع مرور الوقت تضخمت إشارات هنا وتلميحات هناك ليتبلور من جُماعها في نهاية الأمر ما عرف باسم «أسطورة الذعر» في نهاية الألفية الأولى.

ولعل المسؤول الأكبر عن تضخيم هذه الأسطورة هو المؤرخ الفرنسي يوليس ميشليه في القرن التاسع عشر، الذي عاش في ظل الثورة الفرنسية الكبرى (1789م) ورصد نفسه لتسجيل العلاقات المتدهورة بين الكنيسة الفرنسية ورجالات الثورة. وقبل ميشليه بقرنين من الزمان وجدت الأسطورة نفسها من ينشغل بأخبارها في شخص الكاردينال سيزار بارونيوس (1605م)، وهو مؤرخ كنسي ذائع الصيت. ولقد شهد العصر الذي عاش فيه الكاردينال بارونيوس حربا شرسة بين الكنيسة الرومانية الكاثوليكية وبين جماعات الإصلاح الديني من المعارضين أو المحتجين (البروتستانت) على هذه الكنيسة. وقد كان لهذا التيار الإصلاحي للتحرر من أغلال الكهنوت (اللصيق بالعصور الوسطى) أكبر الأثر في تفسير أحداث القرن السادس عشر، كما أن كرادلة الكنيسة الكاثوليكية راحوا من جانبهم يعيدون تفسير بعض أحداث العالم الوسيط وهم مؤرقون بما يجري من صراع حولهم. ومن هؤلاء برز الكاردينال بارونيوس الذي يسجل في حوليته العبارة التالية:

«... والآن تبدأ السنة الأولى بعد انقراض الألفية الأولى للميلاد... لقد أشاع بعض الضالين أن هذه السنة سوف تكون نهاية العالم، وحلول الخراب الشامل على ظهر الأرض، وأن إنسان الخطيئة الكبرى، ابن الظلام والهلاك - والمسيح الدجال - سوف يظهر على الأرض... ولقد وجدت هذه الشائعة آذاناً صاغية في بلاد غالة (فرنسا) وصولاً إلى سائر بلدان المعمورة. ولقد صدق القوم ما سمعوا، وشعر بسطاء القوم بالخوف والرعدة. أما أولو الحكمة والعزم فقد كانوا في شك من أمر ما سعموا».

وهكذا فإن الكاردينال بارونيوس وهو يدحض أسطورة الذعر، قد عمل من حيث لا يدري على إعطائها المزيد من المصداقية. وفي سنة 1769م جاء مؤرخ كنسي آخر من اسكتلندة هو وليم روبرتسون، ليضيف الشيء الكثير إلى الأسطورة نفسها في كتابه «تاريخ الإمبراطور شارل الخامس». ولما كان روبرتسون يعيش في قرن تميز بالعقلانية، فإنه شن حملة شعواء على كنيسة العصور الوسطى فوصفها: «بالبالوعة التي تفجرت من جوفها صنوف من الخزعبلات»، كما أنه دمغ أوروبا الوسيطة بأنها كانت غارقة حتى أذنيها في بحور الجهل والظلمات. ومن هذا المنطلق فإن روبرتسون يؤيد ما تواتر عن «أسطورة الذعر» التي قيل إنها اجتاحت أوروبا مع نهاية الألفية الأولى، «حتى أن الكثير قد تركوا ذويهم ومتاعهم وخلانهم، وهرعوا قبالة الأراضي المقدسة، في أمل لقاء المسيح عند مجيئه ليدين العالم».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد كان لكتابات روبرتسون أبعد الأثر في أجيال كثيرة من بعده في أوروبا، ومن أبرز هؤلاء يوليس ميشليه الفرنسي، الذي بالغ في تصوير حجم الأسطورة، التي دخلت هي وتفسيرات ميشليه ضمن أدبيات التاريخ الأوروبي منذ ذلك الحين.

كان ميشليه قد نشأ في وقت مضطرب من تاريخ فرنسا، وذلك عندما كان نابليون بونابرت يجتاح بجيوشه الجرارة بلدان أوروبا الواحدة بعد الأخرى تحت لواء «الثورة الفرنسية الكبرى». كما أن طفولة ميشليه كانت طفولة تعسة، فلقد ولد لعائلة فقيرة، حتى أن والده قد زج به في السجن لعام كامل لعجزه عن سداد ديونه. ويسجل ميشليه في اعترافاته أن «الجوع» قد بلغ به حداً وقتها حتى أنه كان «يقتات أحيانا على الخضروات النيئة».

ولهذا فإن ميشليه قد نشأ كارها للأرستقراطية الفرنسية الحاكمة، ولشخص نابليون الذي كان قد قضى على مورد رزق آل ميشليه بعد أن أمر بإغلاق المطبعة التي كانت تدر عليهم لقمة العيش. ثم يصب ميشليه جام غضبه على الكنيسة الفرنسية، لأنها - كما يقول - قد تخلت عن واجبها تجاه فقراء الشعب الفرنسي والدفاع عن أرزاقهم، فخيبتْ بسلبيتها آمال البسطاء من الشعب، كما أنها المسؤولة أيضا عن ترويع الناس وتخويفهم بشتى الأساليب والطرق.

وعندما أصبح ميشليه مسؤولا عن شعبة التاريخ بدار الأرشيفات الوطنية، وكان عمره اثنين وثلاثين عاماً، انكبّ على فحص الوثائق الأصلية يفتش فيها عما يشفي غليله. وقد عبر عن حالته المزاجية وهو ينقب في المخطوطات الوسيطة المتراكمة بأنه كان «يسمع من داخلها أنيناً خافتاً لأرواح بريئة كثيرة طواها التاريخ بين دفتيه». وعند هذا المنعطف من عمره، بلغت مشاعر ميشليه الوطنية المتأججة ذروتها، فاتخذ منها عقيدة لنفسه يدين بها أكثر من أي عقيدة أخرى - على حد تعبيره.

وعندما وضع ميشليه كتابه «تاريخ فرنسا»، كان قد وصل إلى قناعة بأن الكنيسة والمسيحية معها قد شيعتا إلى الأكفان وبأنه بات على أبناء فرنسا أن يضعوا «الوطن» في قلوبهم على القدر نفسه الذي يضعون به الله في ضمائرهم. وبذلك يقول ميشليه: «يملأ الوطن المحبوب الفجوة المهولة التي خلفتها المسيحية المتوفاة». هذا وقد شن ميشليه هجوما عنيفا على الكنيسة الكاثوليكية، وذلك في لغة درامية بليغة، أثرت كثيرا على الكتاب اللاحقين، وعلى الخيال الشعبي للفرنسيين. ومن بين الفقرات الملتهبة في كتاب ميشليه نطالع الآتي:

«لقد كان القوم في العصور الوسطى شديدي الإقناع بأن نهاية العالم سوف تحل مع نهاية الألفية الأولى للميلاد... وتوجس الناس من المجهول في حال من الويل والثبور، يؤرقهم تبدل الأيام من خراب إلى خراب أزيد... وكان الجميع في ترقب لمجيء الساعة. السجين في زنزانته الكالحة الظلام، والقنُّ الكادح في حقل الشقاء، والراهب في صومعته وقد وقع فريسة لعواصف وزلات الفكر، وقد أرقته رؤى الغرائب وهو بين النوم واليقظة... كل هذا وإبليس يتراقص من حوله ضاحكا متشفيا، يعبث بوسادة الراهب التعس، ويوسوس له في أذنه: ملعون أنت أيها الناسك».

على أن ميشليه، من جانب آخر، يرصد مشاعر أخرى بجانب مشاعر الذعر والهلع: فلقد كان الناس - والحال كذلك - يمنون النفس ببصيص من الرجاء والأمل، إذ فسر بسطاء القوم من الكادحين قيام الساعة كقصاص ينصب على رؤوس السادة الظلمة من أهل الإقطاع، جزاءً على ظلمهم وجبروتهم على الفلاحين التعساء.

وتطلع آخرون إلى لحظة أن ينفخ كبير الملائكة في البوق ليصمّ آذان الطغاة بصلصلته، وعندها سوف ينطلق المساجين من زنزانتهم، والرهبان من صوامعهم، والأقنان من أغلال حقولهم، يتصايحون فرحاً وسط بكاء الباكين.

ويمضي ميشليه في روايته حتى يمضي آخر يوم في الألفية الأولى، ولم تقم القيامة ولا انتهت الساعة،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وعندها «التحفت البشرية بعباءة من الشجاعة المتوقدة، وهبت شعوب من منيتها وقد عقدوا العزم على أمل جديد، ترعرت من خلاله براعم الإحساس بالذات، وهكذا ولدت القومية الفرنسية».

وبعد عصر ميشليه، اتخذت «أسطورة الذعر» مساقا أشد ضراوة ضد الكنيسة الرومانية، كما يقرر ذلك بطرس ستيرنز في كتابه بعنوان: «الألفية الثالثة، القرن الواحد والعشرون». فلقد ذهب الكتاب المحدثون إلى أن رجال الكهنوت هم الذين روجوا عن عمد لهذا الذعر بين الناس مع نهاية الألفية الأولى، حتَى يتنازل الناس عن ممتلكاتهم في شكل تبرعات وهبات للكنيسة، التي كانت تعدهم بخلاص نفوسهم يوم الحساب مقابل نذورهم وتبرعاتهم. وشهد القرن التاسع عشر تصعيداً لحبكة هذه الدراما الوسيطة، حتى وصلت ذروتها في قصيدة الشعراء وروايات ومسرحيات الروائيين.

على أنه مع بدايات القرن العشرين، ظهرت كوادر جديدة من المؤرخين الذين تصدوا لهذه الأسطورة وراحوا يفندونها على أنها تلفيق من محض خيال ميشليه وأمثاله من جماعة الرومانطيقيين الغلاة. ففي سنة 1901م، أعلن المؤرخ الأمريكي جورج لنكولن بيير أنه لا يقبل بحال أسطورة الذعر، التي لا تعدو أن تكون - في تقديره - أكثر من مزحة غبية لا يمكن لها أن تنطلي على عقول المؤرخين المنصفين الذين يلتزمون المنهج العلمي والنقد التاريخي النزيه.

ولقد سلم جل مؤرخي القرن العشرين برأي لنكولن هذا وتحليلاته، حتى نصل إلى المؤرخ ريتشارد لانديس، أستاذ التاريخ الوسيط ومدير مركز «الدراسات الألفية» في جامعة بوسطن، الذي عاود تفسير نهاية الألفية الأولى على درج مخالف جديد: يحاج لانديس بأن نهاية الألفية الأولى قد شهدت بالفعل أحداثا وردود أفعال تشي بحال من الهلع تملك الناس وهم يترقبون نهاية العالم. وهو يعزز ما يذهب إليه من واقع بعض الوثائق الخاصة بسنة ألف ميلادية، خاصة تلك التي تتحدث عن انتشار المجاعات، وسقوط الشهب والنيازك في مختلف ربوع أوروبا، والتي رأى الناس فيها نذير سوء ينبئ بيوم الدينونة. كما أن لانديس يلفت النظر إلى ما ورد من أخبار عن رحلات حج جماعية، ومواكب من التوابين، وجماعات السلام الأمر الذي يفصح عن مشاعر الخلق بقرب نهاية العالم آنذاك. ولكن لانديس يتحفظ بأنه «ليس من شاكلة جماعة الرومانطيقيين الذين ذهبوا إلى أن موجة الذعر قد اجتاحت العالم كله»، ولكنه رغم ذلك لا ينبغي وجود مشاعر خوف وهلع اختلط فيها الذعر ببصيص من الأمل سنة 1000م أكثر من أي تاريخ سابق.

على أن عدداً كبيراً من المؤرخين، وإن كانوا يقرون لانديس في بعض القرائن التي ساقها في جدله، إلا أنهم لا يوافقون على الصورة التي يقدمها عن النشاط المهووس المحموم الذي حركته نهاية الألفية الأولى. وهكذا تدور رحى المعركة الأكاديمية بين المؤرخين: فمؤرخ مثل برنارد ماك جن، الذي انشغل لعدة سنوات في تحليل الفكر الوسيط حول «رؤيوية» القيامة، والذي يترأس أيضا تحرير دائرة معارف حول قضايا «الرؤيوية» (Apocalypticism)، يعتقد أن لانديس «يخفي في ضميره خبيئة رؤيوية من اختلاق خياله».

ويرد لانديس على هذا النقد بأن المدرسة المعادية لنظرية الذعر تعاني من عدوانية ساذجة، وهي تتناول نصوص العصور الوسطى الأوروبية. كما أن لانديس لا يقبل القول إن حال الكهنوت الذين سجلوا وقائع العصر كانوا تحت ضغوط تجبرهم على التحفظ فيما يكتبون في حولياتهم. كذلك يقول لانديس إن الحوليين الذين دونوا تواريخهم في فترات لاحقة، لم يعبأوا بتسجيل مظاهر الحُمى التي واكبت الألفية الأولى، بعد أن كانت قد مضت بسلام دون أن تقوم القيامة. كما أن الكنيسة أخذت تحرّم على كتاب الحوليات التعرض لتحديد تاريخ نهاية العالم، ذلك لأن خط التفكير الكنسي كان خط التزام الصمت.

ولعل أكثر الشخصيات الخلافية من بين ستة من

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كتاب العصر الوسيط حول نهاية الألفية الأولى هو الراهب الفرنسي رودولف جلابر من إقليم برغنديا، الذي وضع تاريخا من خمسة أجزاء في وصف حياة الناس ومشاعرهم مع نهاية الألفية الأولى.

وتأتي كتابات جلابر في أسلوبية قريبة من «الدردشة» فيما يشبه شهادة أحد الشهود في محاكمة على جريمة قتل. والحق إن من يطالع حكايات هذا الراهب يقع في حيرة بالغة فيما يمكن ومالا يمكن تصديقه، فمن الواضح أنه شخص سريع الاهتياج، ميال إلى الخط المأساوي و«الفانتازيا» في كتاباته. ومن ثم فإن مصداقيته تصبح محل شك كبير، خاصة وأن معلوماته ترجع إلى عشرة قرون غابرة، كما أن تاريخه من التواريخ القليلة التي قدر لها أن تفلت من أكفان الماضي. ويزيد الطين بلة أن جلابر يروي لنا أنه قد رأى الشيطان نفسه عند طرف سرير نومه: «في هيئة بشر له لحية ماعز، وأنف أفطس، وشفاه متورمة متهدلة». وهذه الرواية في حد ذاتها جعلت الكثيرين من المؤرخين المحدثين يتحفظون في تناولهم لكتاب العصور الوسطى الأوروبية.

ليس غريبا، والحال كذلك، أن مؤرخا مثل برنارد ماك جن يمر على سيرة وكتابات الراهب جلابر مرور الكرام في كتابه: «رؤى الآخرة»، وهو مجموعة من النصوص الوسيطة حول نهاية الألفية الأولى. يذكر أيضا أن صاحبنا جلابر قد اكتسب سمعة سيئة بأنه مشاغب خطير: فلقد انخرط في سلك الرهبنة وهو لايزال في الثانية عشرة من العمر سنة 992 م، وفي خلال الخمسين عاماً التالية من حياته كان يطرد من دير ليلتحق بدير آخر، ولذا فإنه تنقل ما بين أديرة: أوكزير، وديجون، وبيز، وكلوني، وقد تم طرده منها جميعا، واحدا بعد الآخر.

على أنه لابد من الاعتراف بأن هذا «التشرد» الرهباني قد أتاح لجلابر الفرصة للاطلاع على أحوال العالم من حوله، فلقد طالت أسفاره حتى وصل إيطاليا، وهذا أمر لم يتح لرفاقه من الرهبان الآخرين. ويذكر جلابر أنه قد شاهد بنفسه بناء كنائس كبرى مع مطالع القرن الحادي عشر في فرنسا، والتي رأى فيها «بداية جديدة لعالم جديد، يلتحف هذه المرة برداء أبيض نقي». ولسنا ندري إن كان هذا التحول في فكر الراهب نتاجاً لنهاية الألفية الأولى بسلام دون قيامة، أم لأن إيمانه قد أخذ يترسخ عن ذي قبل.

ولكن جلابر يعود من جديد في ذكر أحداث سنة 1033م، ليسجل موجة هوس جديدة عن يوم الدينونة، لأنها توافقت مع ذكرى موت المسيح وقيامته. كذلك يفيض صاحبنا في الحديث عن انتشار البدع والهرطقات الدينية، وعبادة الشيطان بين أهل لومبارديا (شمال إيطاليا). كا يتحدث أيضا عن المجاعات التي حلت بأوروبا «حتى أن الناس كانوا يأكلون لحوم الموتى من البشر». وهذا - في تقدير الراهب جلابر - نذير بقرب ظهور المسيح الدجال (Anti - Christ) الذي سوف يظهر مع نهاية العالم». ويضيف الكاتب نفسه أن جموعا من الحجاج قد هبت لزيارة الأماكن المقدسة، وقد اختلطت في عقولهم حسابات فصول السنة، كما اختلت أيضا العناصر الأولى للخليقة.. وكل هذا يشير إلى قرب نهاية العالم.

ويسوقنا هذا إلى التساؤل عن التقاويم: فمتى بالتحديد تحولت الألفية الأولى إلى الألفية الثانية؟ ثم متى بالضبط تم ميلاد السيد المسيح؟

في الواقع إن بلدان أوروبا المختلفة كانت تتبع تقاويم مختلفة، الأمر الذي يدحض فكرة وجود شعور أوروبي عام وشامل عن موعد نهاية الألفية الأولى. ومن ناحية ثانية ينبغي أن نعي أنه من اليسير علينا، نحن أبناء القرن العشرين، بما نملكه من ساعات رقمية دقيقة وتوقيت حسب قياسات جرينتش وتحديد بالثانية للحظة حلول السنة الجديدة، أن نتغافل عن واقع ما كان يجري مع أبناء العصور الوسطى في أوروبا، حيث كانت الأقوام تحتفل ببدايات السنة الجديدة في مواقيت مختلفة. فبعضهم كان يحتفل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في أول يناير، وآخرون في 25 ديسمبر، والبعض الآخر في يوم «الجمعة الحزينة» أو حتى في عيد الفصح نفسه (أبريل من كل عام)، ومن ثم فإن فكرة هؤلاء وأولاء عن لحظة نهاية العالم كانت تختلف من بلد لآخر.

يلاحظ أيضا أن بسطاء القوم، وهم الأغلبية الساحقة في أوروبا آنذاك، كانوا أميين لا يدركون الدلالات الحسابية لنهاية السنة، ناهيك عن نهاية القرن، ذلك أن وقع الأيام كان يتعاقب بتعاقب فصول السنة الأربعة المرتبطة بمواسم البذر والحصاد، مرورا بأيام العيد، وهي دائرة تتكرر مع الفصول دون توقف *.

ولكن الأستاذ لانديس يدافع عن أهل العصور الوسطى، ولا يقبل الاستخفاف بعقولهم وحساباتهم، ويحاج بأن أهل القرن العاشر كانوا على وعي بما يدور حولهم، ولا ينبغي إذن أن نصمهم بالجهالة. ويستطرد لانديس قائلا إن التقاليد والأعراف الدينية كانت شديدة الوقع على نفوس الناس آنذاك، وكان طبيعيا أن تحرك نهاية شخص ما أو موته الكثير من القيل والقال، خاصة بين بسطاء الناس. ومن ذلك ما يسوقه لانديس عن الراهب الإنجليزي بيره «الوقور» الذي يشكو بأنه مع نهاية سنة 700م، وفد عليه أهل الريف يلحون عليه بالسؤال عن رأيه في نهاية العالم. ويعقب لانديس على هذه الرواية بأن هؤلاء الأقنان والمطحونين في طاحونة الإقطاع كانوا يتطلعون في شغف زائد إلى لحظة نهاية العالم، كي تخلصهم من عناء وكبد حياتهم في «وادي الدمع والأحزان» على هذه الأرض.

ولابد من القول إن الأفكار «الرؤيوية» عن نهاية العالم يمثل مفرداً مهماً من مفردات العقيدة المسيحية، نقلا عن التقاليد اليهودية القديمة، كما هو واضح في أسفار العهد القديم. فلقد رأى المسيحيون الأوائل في ظل الإمبراطورية الرومانية، أنهم «شعب الله المختار»، إذ كانوا وقتها أقلية مضطهدة على يد السلطات الرومانية. ومن ثم فإن فكرة نهاية العالم كانت بمثابة العزاء لهم، إذ إنها تبشرهم بميراث عالم آخر خال من العذاب والمعاناة الأرضية. على أننا عندما نصل إلى القرن الخامس، نجد أن المسيحية قد انتشرت في أرجاء الإمبراطورية الررومانية، ولم يعد المسيحيون أقلية كذي قبل، بل إنهم تسيدوا على بلدان أوروبا تحت مظلة الكنيسة الرومانية وبابويتها. وفي هذا يقول الأستاذ نورمان كوهن في كتابه «تعقب خطى الألفية الأولى»، إن النخبة الكنسية المتعقلة، بما كانت تحمله في ضمائرها من تراث، لم تعد ترغب في ترويج الأحلام عن الفردوس الموعود، كما كانت الحال يوم أن كانت الكنيسة أقلية مضطهدة من قبل الإمبراطورية الرومانية. وهكذا فإن الكنيسة قد حرمت على الناس الخوض في قضية نهاية العالم وتحديد موعد الدنيوية. وفي هذا كتب القديس أغسطينوس من هيبو (القرن الخامس الميلادي في كتابه «مدينة الله») يقول: «ليس من حق البشر أن يعرفوا المواقيت التي سنها الله لعباده، فهي من سلطانه وحده». كما أن الكنيسة الرومانية راحت تناهض كل فكر يخوض في هذا الأمر الشائك، متعللة بأنه ينبغي على كل إنسان أن يحيا حياته دون أن ينسى أن موته قد يحل في اليوم التالي.

ورغم هذا فإنه يصعب على المرء تماما أن يسلم بأن أوامر الكنيسة الرومانية ونواهيها كانت كفيلة بكبت مشاعر الناس حول ما تواتر عن يوم الدينونة. وما من شك في أن هذا الموقف الكنسي قد أثر كثيرا في كتابات المعاصرين. وفي هذا يقول لانديس: «في حقيقة الأمر أن كل ما وصلنا من نصوص عن هذه

---

* جدير بالذكر أن العصور الوسطى في أوروبا التي امتدت من القرن الرابع عشر للميلاد توصف بعصور الظلام، نظرا للأمية الضاربة بين الخاص والعام، حتى أن عددا وافراً من الأفراد بل والأباطرة كانوا أميين ومن بين هؤلاء الإمبراطور شارلمان نفسه (768-814م) - المترجم.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأوقات كان نسخاً تم نقله عن مخطوطات أقدم في مؤسسات ديرانية، وذلك بعد نهاية الألفية الأولى بوقت طويل. وليس مستبعداً أن السلطات الكنسية كانت تعرض رقابة على كل ما يكتب وينسخ في هذه المؤسسات التابعة لها، وأن الكثير من الوثائق التي تدور حول يوم القيامة المنتظرة قد تم تدميرها أيضا».

وعلى ضوء هذا التحليل الأخير، فإننا لا نستطيع القبول بالرأي القائل إن غياب الوثائق ينفي ما تواتر عن هوس أصاب الناس في أوروبا مع نهاية الألفية الأولى، بل إن غياب الوثائق ربما يكون دليلاً على سياسة عمد لطمس أخبار هذه الحقبة بالذات. وفي جميع الأحوال، فإن غيبة القرينة لا تكفي وحدها لإصدار حكم بالبراءة أو الإدانة سواءً في ساحة القضاء أو في الأروقة الأكاديمية. ولا يوجد لدى المشتغلين بتاريخ العصور الوسطى ما يكفي لإيجاد إجابة شافية حول هذه القضية، وعما وقع بالفعل من أحداث وردود أفعال.

ولكن الشيء الواضح أن أوروبا وهي ترتدي مسوح المسيحية كانت تجتاز تحولات فكرية خطيرة. وعليه فإنه يتوجب علينا أن نتحفظ في التعميمات عن موجة ذعر شاملة حلت بكل أصقاع القارة الأوروبية مع نهاية الألفية الأولى للميلاد.

والأمر الذي يستوقف الانتباه حقاً هو أن هوس نهاية الألفيات قد وقع لنا نحن أبناء القرن العشرين: من ذلك الانتحار الجماعي الذي أقدمت عليه جماعة ميسورة الحال في سان ديجو بولاية كاليفورنيا في 26مارس 1997م. فلقد انتحر تسعة وثلاثون من أفراد جماعة «بوابة الجحيم»، بزعم أن أرواحهم تتحرق للحاق بالمقام الثاني على متن نجم يختبئ وراء النيازك «هالي – بوب» (Hale - Bopp Comet).

وعليه فإنه يجدر بنا أن ننظر إلى سلوك البشر في أيامنا هذه، كي نستخلص من سلوكهم ما قد يعيننا على تفهم كيف كان البشر وهم مثل بشر القرن العشرين بطبيعة الحال – يتصرفون إزاء اقتراب نهاية ألفيتهم الأولى.

والحق إنه رغم أجيال متعاقبة من التقدم العلمي وانتشار التعليم، إلا أن الملايين من البشر في أواخر القرن العشرين يؤمنون إيمانا شديدا بأن مخلوقات من الفضاء تهبط بيننا لتخطف أفراداً بعينهم من بين ظهرانينا، كما أن البعض الآخر يزعمون أن أرواح الموتى قد تلبستهم وأنهم ينطقون بأصواتهم، في حين أن فريقا آخر من الناس يتوجسون من هبوط طائرات مروحية سوداء اللون تحمل سادة جدداً لإرساء قواعد نظام عالمي جديد.

كما أن عددا وافرا من الأمريكيين يشعرون بقلق متزايد، لأن آلات الكمبيوتر في حيرة من أمرها أمام النقلة إلى الألفية الثالثة ومعضلة الصفرين لسنة ألفين للميلاد، كما أن ما يقال عن حشرة الألفية الثانية أو فيروسها (y2k) يتهدد شبكات الكمبيوتر والإنترنت، إذ إنها قد تعبث بأزرار تحرك وابلا من الطائرات لضرب الكرة الأرضية أو تخرب محطات توليد الطاقة، أو تطلق الصواريخ النووية العابرة للقارات. وهكذا يتضح لنا أن الخيط الذي يفصل بين الحقيقة والخيال، وبين الواقع والأسطورة هو خيط دقيق للغاية.

وتظل أسطورة الذعر تستحوذ الناس خارج الدوائر العلمية، لأننا في قرارة أنفسنا نرغب في أن نعتقد أن العصور الوسطى كانت عصور ظلام دامس، لا تشرق فيها الشمس وقت النهار، مثلما هي الحال معنا، وأن الأقوام وقتها كانت تعيش في شفق ليل طويل متثاقل الخطى، وأن الخلق كانوا بشراً غيرنا نحن أهل المدينة الحديثة ومواكب الاستنارة.

وبالنسبة للأجيال التالية، فإن ما يقوم به الأستاذ لانديس ورفاقه من بحوث ودراسات عن «الألفيات» يمثل طرحا «رؤيويا» على مختلف قنوات الإعلام والثقافة، لعله يعود بالنفع على المؤرخين عند نهاية الألفية الثالثة للميلاد.

ولكن ترى ماذا سوف يحكي أهل سنة 2999 م عن ردود أفعالنا مع انتهاء الألفية الثانية؟

بقلم: جون هورن

ترجمة: أحمد الحضري

«عزيزتي المومياء»: المخرج ستيفن سومرز (ووجهه مغطى بالأربطة) ينذر بأشياء ستحدث، استخدم سومرز في فيلمه مومياء من نتاج الكمبيوتر لانتاج المومياء، كما انه استخدمه في إعادة اخراجه لفيلم المرعب هذا والذي سيظهر قريباً.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحدود الخارجية..

مستقبل السينما والأنظمة الرقمية

العنوان الأصلي للمقال:
The Outer Limits، ونشر في مجلة Premiere عدد فبراير 1999

إنها النهاية بالنسبة لصناعة الأفلام السينمائية كما نعرفها، بينما يشعر سادة ثورة الأنظمة الرقمية بالتميز والبراعة، إليكم هنا لمحة سريعة عن المستقبل كما يصنعونه.

يحاول فنان المؤثرات المرئية دينيس تيرنر، في أحد المكاتب الركنية المزدحمة المظلمة داخل حرم «شركة الضوء والسحر الصناعية» في شمال كاليفورنيا، أن يحقق مهمة من أكثر المهام تعقيدا وصعوبة، وهناك مجموعة من المتخصصين، الذين تصل قدراتهم وخبراتهم إلى حد إمكان تنظيم وإدارة دولة بأكملها - على سبيل المثال، رومانيا - يقفون وراء هذا الفنان، بينما يحدق هو أمامه في شاشة الكمبيوتر محدثا بعض التعديلات الدقيقة بواسطة الفأرة Mouse، ودارسا بعناية نتائج التحريك الرقمي digital. إنه قريب، ولكن كأنه غير موجود: إن الأوتار والأربطة الفاسدة لا تتحرك كما هو متوقع منها.

إن دينيس تيرنر وفريقه من فناني «شركة الضوء والسحر الصناعية» يعملون على تحديد الشخصية التي تحمل اسم فيلم «المومياء» The Mummy، وهو إعادة إنتاج لفيلم الرعب الكلاسيكي الذي قدمه بوريس كارلوف من قبل. ومن أجل هذا الفيلم الجديد، المتوقع عرضه في شهر مايو، يأمل مخرجه ستيفن سومرز في استحضار الروح الشفافة «للجثة المتحركة ذات الأبعاد الثلاثة» التي تبلغ من العمر 3000 سنة. ويلزم، لكي ينجح الفيلم، أن تتقبل الجماهير هذا التأثير من نتاج الكمبيوتر كشخص حي، بينما هو في الواقع ميت ومتحلل.

ويقول المخرج ستيفن سومرز: «يجب ألا يكون شخصا في رداء مومياء، لقد أخبرت مسؤولي (شركة الضوء والسحر الصناعية) بما أريد وما يجب أن أحصل عليه، وانتابهم الفزع. إنهم مازالوا يبتكرون البرنامج المطلوب Software أثناء هذا الحوار الدائر بيننا، ولكنني عندما شاهدت اختبار المومياء التي صنعوها، قلت: «يا للهول!» لقد كان حقا يشبه الإنسان».

إن ما يحاول الفنان تيرنر والفريق المتعاون معه من «شركة الضوء والسحر الصناعية» أن يخلقوه من الفراغ - مجرد شخصية «تشبه الإنسان» - هو جزء واحد فقط من الثورة الرقمية التي تتخذ مكانها اليوم في صناعة السينما، لقد أصبحت المعجزات شيئا مألوفا في هوليوود، وفي مشروع فيلم آخر في طريقه إلى الظهور، وعنوانه «المفتش غاجيت» Inspector Cadget، يتغرغر الممثل ماثيو برودريك بعدد من العناكب الكبيرة السامة دون أن يحتاج لأن يضع واحدا منها في فمه. ولن يكون لدى المشاهدين أي فكرة عن أن وجه البديل رجل الحركات المذهلة الذي تجرأ على التعرض للدغات العناكب قد تم استبداله رقميا بوجه الممثل برودريك.

وسوف يتعذر على المرء في القريب العاجل أن يميز بين ما يخلقه الكمبيوتر وما تصوره آلة التصوير السينمائي. وسوف يتم إدراك تشعبات هذا العمل التقني الفذ في جميع نواحي صناعة الأفلام السينمائية: الماكياج والملابس وتصميم الإنتاج وتوزيع الأدوار وإعداد الميزانيات وحتى في الشاشة الكبيرة نفسها.

وأصبح من الممكن اليوم أن نعيد تصوير الفيلم السينمائي في ورشة الرسوم التخطيطية بالسيلكون. كما أصبح في إمكان مصمم الإنتاج المنشغل بأمور عديدة والذي نسي خلالها أن يستبعد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



السيارة ماركة هوندا موديل 1998أثناء تصوير منظر الشارع كما كان في عام 1935، أن يمحو صورة السيارة من اللقطة. ويمكن كذلك بالنظام الرقمي التخلص في لقطة ما من زيادة وزن النجمة السينمائية الجديدة بضعة كيلوغرامات إذا بدت كذلك، وإذا كان بطل الفيلم يرتدي جاكتة رياضية من لون غير مرغوب فيه فيمكن تعديل هذا اللون بعد انتهاء التصوير، ويسأل لاري كازانوف، من شركة مؤثرات «ثريسهولد للترفيه»: «هل أنت غير راض عن ممثل ما في أحد المشاهد بعد تصويره؟ حسنا، يمكننا أن نستبعده».

وفي السنوات المقبلة، سوف يتمكن صانعو الأفلام من تجاهل بعض القيود الحالية في الإنتاج السينمائي. فسوف تقل ضرورة إعادة تصوير اللقطات، ولن نسمع عندئذ عن الماكياج الصعب الذي يستغرق إعداده أربع ساعات في كل مرة. وسيتم في لحظات الحصول على أعداد كبيرة من ممثلي المجاميع أو تنفيذ انفجارات هائلة، وسوف يتمكن الممثلون الموجودون في مواقع مختلفة من أداء بعض المشاهد معا.

كيف سيؤثر هذا على سرد القصة كما هو قائم حاليا؟ ربما تصبح صناعة الأفلام مثل كتابة القصص الطويلة، يقوم بها شخص واحد يجلس إلى مكتبه، أو قد تصبح مثل رسومات الكارتون مع الاستعانة ببعض عناصر التصوير الحي كما لو كانت مرسومة باليد، وبذا ننقل الواقع إلى أقصى أبعاده المستحيلة.

وقد يبدو اليوم أن سحرة المؤثرات الخاصة يقومون ببساطة بإعادة تنظيم الديناصورات والمومياوات وسكان الفضاء الخارجي الذين يحتلون عالم الخيال السينمائي، ولكنهم في الواقع يقومون بإعادة تنظيم هوليوود نفسها.



وهناك حاليا ما لا يقل عن خمس من شركات المؤثرات الخاصة تتنافس في إجراء الاختبارات المتكتمة، لكي تصل إلى شكل السمكة الرقمية Digital الكاملة التي تناسب وجه الممثل جيم كاري. السبب: (الخطوة الطموح التي تقوم بها شركة إخوان وارنر لإعادة إنتاج فيلم عام 1964«السيد ليمبت العجيب» The Incredible Mr.Limpet، حيث تحول الممثل دون نوتس إلى مخلوق متحرك يعيش في أعماق البحار. ويقدم فيلم «ليمبت» الجديد،



«المدمر ٢: يوم الحساب» (1991)

من الصعب تصديق هذا، ولكن تقنية التشكيل التي أتاحت للممثل روبرت باتريك أن ينتقل من شكل ت ١٠٠٠ إلى شكل الأم البديلة ذات الشعر الأحمر، استخدمت لأول مرة في فيلم المخرج رون هوارد «الصفصاف» Willow (1988). ولكن الفرق هنا أن المخرج جيمس كاميرون استخدم المؤثرات إلى مدى بعيد وجعلها مقنعة قابلة للتصديق. هل يمكن لبركة من الأشكال المعدنية المنصهرة أن تتحول إلى حامل للبطاقات؟ نحن نرحب بهذا. لقد أضاف هذا الجزء الثاني فخراً للجزء الأول الذي عرض في عام 1984 للمخرج نفسه.

«الهاوية» (1989)

أثارت المياه الكاذبة التي عكس وجه الممثلة إليزابيث ماستر أنتونيو في هذا الفيلم تلهف المتفرجين في أثناء مشاهدتهم لهذه المغامرة في قاع البحر، والتي أخرجها جيمس كاميرون. لم يسبق لأي أحد أن شاهد شيئاً مثل هذه السابقة الأولى لماء يحركه النظام الرقمي (وإن كان يبدو في الواقع وكأنه زئبق). وكان تمويجه يتم بكمبيوتر بإعادة خلق خصائص «يد2أ»، أي الانعكاس والانكسار.



«لوكسو الصغير» (1986)

لو لم يتم عمل هذا الفيلم القصير الذي يستغرق عرضه مدة دقيقتين، لما كان هناك فيلم «قصة لعبة» أو فيلم «حياة حشرة» (وربما أيضا فيلم «النمل العجيب» Antz). كان فيلم لوكسو هو أول فيلم صنعه الكمبيوتر بأكمله. لقد حصل المخرجان جون ليسيتر وويليام ريفز على ترشيح لجائزة الأوسكار عن هذه القصة الصغيرة البارعة للوكسو (وهو اسم لمصباح مكتب) وابنه. وإن كانت التقنية منبثقة من تقنية باك مان نفسها (pac- Man). إلا أن التعبير في فيلم «لوكسو الصغير» يؤكدأن هناك الكثير في مجال التحريك أكثر من مجرد الحبر والألوان.



٢- «شرلوك هولمز الشاب» (1985)

المخرج باري ليفنسون معروف في مدينة بالتيمور أكثر مما هو في مدينة النظام الرقمي، ولكن هذا الفيلم عن قصة المخبر السري الذي أنتجه ستيفن سبيلبرج، أسهم بحدث واضح في عالم المؤثرات، وهو أول شخصية رقمية ثلاثية الأبعاد، معروفة باسم «رجل الزجاج الملون». وكانت برامج الكمبيوتر تقلد الحركة الآدمية، بحيث تسمح لفارس مكون من قطع من الزجاج أن يخوض نزالا مدهشاً بالسيف في سلاسة وروعة. لقد استغرق خلق هذا المشهد أربعة شهور.



١- «حرب الكواكب» (1977)

أصبح من الممكن تنفيذ منظور عام، مأخوذ كوكب الموت بفضل ابتكار آلة تصوير تتحكم في الحركة خصيصا لهذا الفيلم الذي يعتبر نقطة تحول. وعندما لم يجد المخرج جورج لوكاس شركة تنفذ له المؤثرات الخاصة التي يريدها، أسس «شركة إي. إل. إم»، التي قدمت من المعارك العنيفة في الفضاء ما لم يسبق مشاهدته من قبل. ما هي الخدعة هنا؟ إن آلة التصويت هي التي تتحرك وليس النموذج المجسم، ويتذكر الكمبيوتر الحركة، ويكررها مع كل نموذج مجسم.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويحل فيه جيم كاري محل دون نوتس، فرصة ممتازة لدمج التصوير الحي بالرسوم المتحركة التي ينفذها الكمبيوتر، وهذا ما سينقل فيلم «من حاصر الأرنب روجر؟» Who Framed Roger Rabbit? إلى مستوى عال من الإبهار. ويقول بيل جيربر منتج فيلم «ليمبت»: «هذا هو في الواقع مسألة «ماذا لو» * الخاصة بعالم الخيال. ماذا لو تحول ممثلك المفضل إلى سمكة؟ من الصعب جدا إنجاز هذه المهمة، ولكن هذا هو ما يجعل هذا الفيلم فريدا في تميزه.

والحد الأقصى لمسألة «ماذا لو» في المؤثرات الرقمية يصل إلى ما هو أبعد من مجرد أن يكتسب رجل حراشيف سمكة وقشورها. ويقول جيف كلايزر من شركة «إنشاءات كلايزر ووالزاك»: «الحصول على ممثل من نتاج الكمبيوتر مقنع في صورته بنسبة مائة في المائة هو «الكأس المقدسة** » في هذه المهنة. أما الحصول على ممثل من نتاج الكمبيوتر يتحدث حديثا على الشاشة الكبيرة - فهذا مطلب بعيد المنال.

ومع ذلك فإن الأشكال البدائية من المخلوقات الاصطناعية Synthespian، كما يطلق على الممثلين من نتاج الكمبيوتر، متواجدة وواضحة للعيان. ولقد قام «مصنع الحركة» وهو شركة صغيرة في منطقة «باي» تهتم أساسا بألعاب الفيديو، بتطوير تقني «ممثل رقمي ذكي» يلعب دورا في مجال الرسوم المتحركة الحية للكمبيوتر مثلما لعب ستانسلافسكي دورا في تطوير المسرح. يقول ديفيد بريتشارد رئيس هذه الشركة: «يمكنك أن تضع شخصا من نتاج الكمبيوتر داخل قاعة للمؤتمرات وسوف يعرف هذا الشخص كيف يتحرك داخل القاعة، إنه يعرف ألا يسير خلال المنضدة، بل يلف حولها».

وتتميز المخلوقات الاصطناعية بميزات واضحة عن الممثلين البشر: فلا حاجة هناك لتفاضل بين النجوم ذوي المرتبات الباهظة، أو لمساومة مندوبي الممثلين وحاشيتهم، أو لمعاناة الاتفاق فيما يتعلق بعربات الإقامة الفخمة أو بساعات العمل الإضافي.

ومع هذا فلا أحد يتنبأ بأن المخلوقات الاصطناعية ستؤدي إلى الاستغناء عن الممثلين

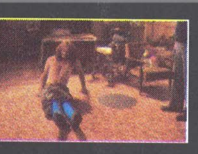
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

«تيتانيك» (1997)

السؤال هو، ما الذي كان حقيقيا في هذا الفيلم؟ لقد جمع المخرج جيمس كاميرون برشاقة بين جميع أنواع تقنيات المؤثرات. ومن السخرية، أن أصعب قطعة من مكملات الفيلم من حيث التحدي، وهي السفينة نفسها، قد تم بناؤها فعلاً. أما الدرافيل والركاب الذين كانوا يشغلون السطح العلوي للسفينة واللقطات العريضة للمحيط وللسماء، فقد تم ذلك كله بالنظام الرقمي. وأما حدقة عين الممثلة كيت وينسلر فقد تم وضعها بالنظام الرقمي على إحدى عيني الممثلة جلوريا ستيوارت للمزج بين هويتيهما.

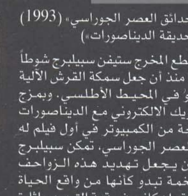
٩- «قلب التنين» (1996)

لم يكن الممثل الأول في هذه الفانتازيا التي تدور حول السيف والسحر، في حاجة لأي مدرب أو مدلك. كان دراكو التنين أول نجم من نتاج الكمبيوتر، وكان على خلاف باقي المخلوقات التي أنتجها الكمبيوتر، لا يكتفي بالوقوف والزئير، فقد كانت رأسه وحدها، تعادل أربعة من مخلوقات «حدائق العصر الجوراسي». أما صوت التنين العميق وشخصيته المهزوزة، فقد تكفل بالتعبير عنهما الممثل شين كونري.



٨- «فورست غامب» (1994)

المؤثرات الأفضل هي التي لم يرها أحد. وبطبيعة الحال فإن مشهد توم هانكس وهو يتحدث مع الرئيس كيندي مشهد مزيف. ماذا عن مجموعات الطيور؟ وكرة تنس الطاولة؟ حتى الحشد الذي كان يتابع مباراة تنس الطاولة، فكان من نتاج الكمبيوتر. أما الريشة التي كانت ترفرف في الجو على شاشة زرقاء، فقد قام النظام الرقمي بمسح الخيوط التي كانت تحركها. كما كان من الواضح، وإن كان له الوقع المذهل نفسه، دور النظام الرقمي الخالي من أي هفوة في استبعاد الجزء الأسفل من رجلي جاري سينز.



٧- «حدائق العصر الجوراسي» (1993) (أو «حديقة الديناصورات»)

لقد قطع المخرج ستيفن سبيلبرج شوطاً بعيداً منذ أن جعل سمكة القرش الآلية تطفو في المحيط الأطلسي. وبمزج التحريك الالكتروني مع الديناصورات الناتجة من الكمبيوتر في أول فيلم له عن العصر الجوراسي، تمكن سبيلبرج من أن يجعل تهديد هذه الزواحف الضخمة تبدو كأنها من واقع الحياة رشيقة وإن كانت في قمة التهديد وإثارة الرعب. وكانت اللقطات القريبة واللقطات الجزئية تتضمن المجسمات التي أعدها ستان ونستون. أما اللقطات البعيدة والمشاهد سريعة الحركة فكانت من نتاج الكمبيوتر.



«الجميلة والوحش» (1991)

إن الدمج بين لوحات الباغة (السليولويد) المرسوم عليها باليد والصور المتحركة التي ينتجها الكمبيوتر أسفر عن تزاوج مثالي أوجد عدة قصص خيالية. ويوضح مشهد صالة الرقص التقنيات التي ترقص خلالها الجميلة مع الوحش في خلفية من نتاج الكمبيوتر تتميز بعمق مذهل. وكان فيلما ديزني «المرجل الأسود» (1985) و«الفار العظيم بوليس سري» (1986) بمثابة حقل اختبار. أما فيلم «الجميلة والوحش»، والذي حصل على ترشيح لجائزة الأوسكار عن أحسن فيلم، فقد أثبت أن هذا الدمج ناجح تطبيقياً.

* «ماذا لو» تعبير شائع في كتابة السيناريو - المترجم

** المقصود هنا الكأس المقدسة التي شرب منها المسيح في العشاء المقدس ومازال البعض يبحث عنها حتى الآن - المترجم.

البشر، ويقول رولاند إيمريك مخرج فيلم «يوم الاستقلال» وفيلم «جودزيلا»: «عليك أن تبحث عن الممثل الذي (سيحرك) تلك الشخصية، لأن الكمبيوتر وحده لن يقدر على ذلك»، وبناء على هذا يثير المخرج رولاند إيمريك فكرة أنه من الأصوب أن نضع الممثل أمام آلة التصوير بدلا من أن نضعه خلف الكمبيوتر، وفي مشروع الفيلم الذي يقوم المخرج نفسه بتنفيذه حاليا، وهو دراما عن الحرب الثورية باسم «المحب لوطنه» The Patriot، ستكون أرض المعارك مزدحمة بآلاف الجنود الرقميين وكذا الخيول والمدافع، أما الأشخاص الخمسون المسكون ببنادقهم من الطراز القديم في المستوى الأمامي للقطة فهم حقيقيون، بقدر ما كان جودزيلا مزيفا. ويضيف رولاند إيمريك: «إنني في الحقيقة أحب الممثلين».

ويؤيد هذا الرأي الفنان المخضرم دينيس مورين من (شركة الضوء والسحر الصناعية) إذ يقول: «إنني شخصيا لا أهتم بالممثلين الرقميين، إنني أفضل أن أتحدث مع ممثل حقيقي عن أن أتحدث مع أربعة من متخصصي التحريك الذين يحاولون تحريك ممثل واحد رقمي».

ويرى الفنان فيل تيبيت، الذي ثارت مخلوقاته في فيلم «حدائق العصر الجوراسي» Jurassic Park (عرض الفيلم تجاريا في البلاد العربية تحت اسم «حديقة الديناصورات») وفيلم «فرسان سفينة الكواكب» Starship Troopers، أن ظهور المخلوقات الاصطناعية هو خطوة إلى الوراء، ويقول: «لماذا تقوم بدفع 35 مليون دولار لتؤجر مجموعة من المحركين غير الأكفاء ليقوموا بعمل ممثل واحد أخرق؟ إن كنت تعمل لحساب وكالة المخابرات الأمريكية أو مثيلتها الروسية فيلزمك عندئذ أن تحصل على الإقناع بواقعية الصورة بنسبة مائة في المائة. أما بالنسبة لي فهذا أمر من عمل الشيطان، ويمكنني أن أرى كيف أن أي مدير سيئ التصرف في أحد الاستوديوهات يمكنه أن يسيء استخدام هذا النظام الرقمي عندما لا يريد أن يبدو تقدم العمر على وجه أحد نجومه».

وسيظل الحكم على نجاح المخلوقات الاصطناعية من حق المتفرجين، وليس من حق صانعي الأفلام، فالنجوم يكتسبون نفوذهم فقط من خلال قدرتهم على جذب الجماهير.

وخلال أعوام الستينيات والسبعينيات أصبح التصوير في الأماكن الفعلية وما يقدمه من مظهر واقعي للفيلم هو القياس الجديد للدراما الهوليوودية. وقدمت الأفلام مثل «الراكب السهل» Easy Rider و«شوارع حقيرة» Nean Streets أسلوبا شجاعا يقرب من الطابع التسجيلي.

والآن خلال أعوام التسعينيات، أصبحت المناظر المرسومة إلكترونيا متقنة وخالية من أي عيب، بحيث أصبح الانتقال إلى أي موقع فعلي لا يستحق المشقة في أغلب الأحوال، لقد اكتشف مارتن سكورسيزي مخرج فيلم «شوارع حقيرة» هذه الحقيقة عندما كان يصور فيلمه «كوندون» Kundun، عن الدلاي لاما. فقد رفضت السلطات الصينية السماح له بالتصوير في التبت، وهكذا نقل سكورسيزي التبت إلى كاليفورنيا. وباستخدام مناظر خلفية لبيئة منطقة «لهاسا» تعتمد على النظام الرقمي، تمكن سكورسيزي من إعادة الدلاي لاما إلى بيته السابق دون إثارة أي أحداث دولية. وعلى النقيض من الخلفيات المسطحة ذات البعدين التي تنتمي لبضع سنوات مضت، صنعت له شركة «مات وورلد ديجيتال» Matte World Digital خلفيات تتضمن جيشا يعدو بسرعة مثيرا سحابة من الغبار، (تم تصوير بعض أجزاء فيلم «كوندون» في المغرب).

وتظهر في فيلم «ساحة الدمار» Armageddon لقطة لخط السماء في باريس يملؤها الدخان قدمتها شركة «مات وورلد ديجيتال» من كتاب مصور، دون أن يحتاج مصمم اللقطة إلى الانتقال إلى فرنسا، ويقول الفنان كريج بارون من

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

صورة لفنان الرسوم الحية في المسلسلات: هنري سيليك (مع مجسم صغير لمنظر في فيلمه القادم «عظمة القرد») يرى أن هناك دورا لذوق الفنان واجتهاده في مستقبل النظام الرقمي.

شركة «مات وورلد ديجيتال»: «لم يعد من الضروري الآن أن تنتقل إلى أي موقع فعلي، ومن الأرخص دائما أن تنتقل إلى نيويورك مثلا إذا كانت أحداث الفيلم جميعها تدور هناك، أما إذا كان المطلوب هو مجرد لقطتين منها فلا داعي للانتقال».

ومن عجائب الأمور أن هذا التقدم في تقنية الساتر matte يبدو كأنه تراجع، إذ يؤكد القول المأثور القديم في هوليوود إن كل ما هو مزيف يبدو أكثر واقعية من الواقع، وما هو أهم، أنهم يوضحون كيف أن التفكير في الحد الأدنى من متطلبات الأمور يقرر سرعة الثورة الرقمية واتجاهها. يقول توم جوكابسون، منتج فيلم شركة والت ديزني «مهمة الى المريخ» Mission to Mars المتوقع الانتهاء من تنفيذه في صيف عام 2000: «أعتقد أن المؤثرات المرئية الضخمة التي ابتدعت في يومنا هذا جلية للمشاهدين، ويصبح السؤال هو، ما التقنية التي تمت تجربتها واختبارها والتي يمكننا أن نستخدمها، وإلى أي مدى يمكننا أن نوسع حدودنا؟ وإذا كان عليك أن تخترع كل شيء، فلن يتم عمل أي شيء». ونجد في الواقع، أن بعض الحلول التي لجأ إليها فريق المؤثرات في فيلم «مهمة إلى المريخ» تعتمد على تقنيات بسيطة إلى حد يثير الضحك. ولكي يزيفوا الجاذبية الأرضية الضعيفة في ذلك الكوكب الرابع، على سبيل المثال، ربطوا الممثلين ببالونات بها غاز الهليوم وضعت بعيدا عن مرمى عدسة التصوير.

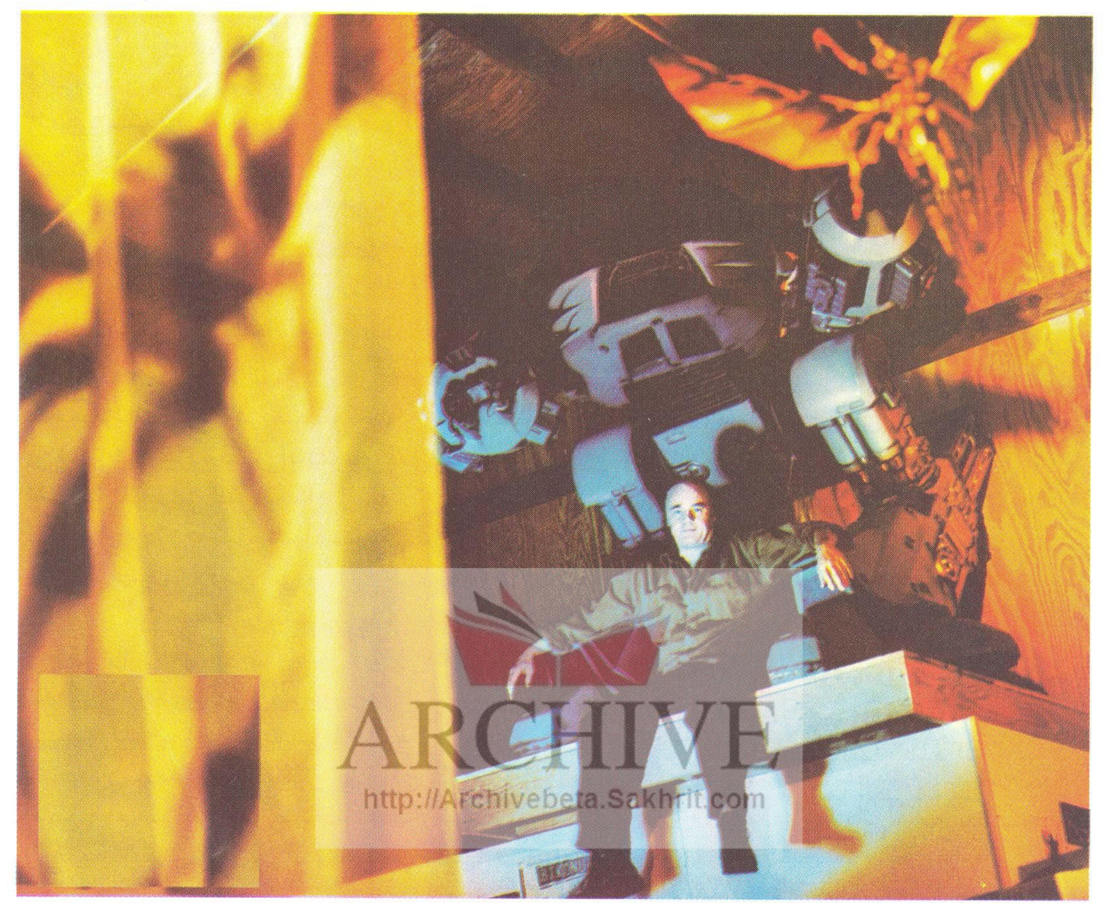
ومن أجل تصوير فيلمه الجديد «حرب الكواكب ـ الجزء الأول ـ تهديد الشبح» (The Phantom Menace)، ومن أجل الحصول على مناظر طبيعية تقديرية وشخصيات من نتاج الكمبيوتر، اعتمد المخرج جورج لوكاس اعتمادا كبيرا على التقنيات التقليدية من النماذج والمجسمات الصغيرة. يقول دينيس مورين من «شركة الضوء والسحر الصناعية» عن المخرج جورج لوكاس: «هذا المخرج لا يعترف بأي حدود، ويمكنه أن يصنع الفيلم بأي طريقة يريدها، ولكن هناك بعض الأشياء يكون من الأفضل أن يتم تنفيذها عن طريق النماذج المجسمة» ويؤكد المنافسون أن الكمبيوترات لدى «شركة الضوء والسحر الصناعية» لم تعمل بالسرعة المطلوبة لكي تتجز سفن الفضاء المعقدة المطلوبة في «الجزء الأول»، أما النقطة غير القابلة للنقاش فهي أن المؤثرات الرقمية لا تحل كل المشاكل في العالم.

ويجب على التقنيات أن تمنح الحرية للفنان، وليس العكس، يقول سكوت روس رئيس شركة «ديجيتال دومين» Digital Domain: «لا يمكننا أن نتكلم معا باللوغاريتمات ونظام العد العربي والتعبيرات الهندسية. يلزمنا أن نبدأ بالكلام عن كيف سيبدو الشيء المطلوب؟ يجب أن تقدم للناس الأدوات التي تمكنهم من أن يخلقوا الصور بالطريقة التي اعتادوا أن يخلقوها بها، بفرشاة الألوان وبكتلة الصلصال وبالمطاط».

وتأتي الحلول غالبا من أدوات الكمبيوتر التي تم تطويرها أصلا لأغراض لا ترتبط بصناعة الأفلام السينمائية، وعلى سبيل المثال، قامت شركة «سايرا تكنولوجيز» (Cyra Technologies) بتصميم نظام للمسح بالليزر للحصول على صيغ من الإنشاءات المعمارية الكاملة الرقمية ذات الأبعاد الثلاثية «مثل السطح العلوي للسفينة الأمريكية تاراوا ومباني معمل للغاز الطبيعي في آسيا». ثم اتصل بالشركة صانعو فيلم «فرسان سفينة النجوم» بخصوص مطلب غريب: هل يمكن لشركة سيرا أن تحاول رسم خريطة لمنظر الكهف الممتد الذي يظهر في الفيلم؟ وتمكن فريق المؤثرات بالفيلم، بناء على النموذج الذي قدمه الكمبيوتر لشركة سيرا، من توجيه المخلوقات الرقمية خلال سيرها داخل الكهف من دون أي مشقة.

وقامت شركة تقنيات سيرا حديثا بمسح جانب لأحد التلال بمنطقة لون باين في كاليفورنيا، لخدمة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



نموذج لمواطن: يتنبأ الفنان فيل تيبيت (وتحيط به هنا بعض ابتكاراته- حشرة من فيلم «فرسان سفينة الكواكب» وآلة القتل من فيلم «الشرطي الآلي») باستمرار المزج بين المؤثرات الرقمية ومؤثرات الحياة الفعلية.

فناني الرسوم المتحركة في فيلم شركة والت ديزني «الديناصور» وهو فيلم يتضمن أكثر من 1400لقطة لديناصورات من نتاج الكمبيوتر، تتجول في بيئة من الحركة الحية. وسوف يتمكن فنانو فيلم «الديناصور»، اعتمادا على النموذج ذي الأبعاد الثلاثية لمنطقة لون باين الذي قدمته شركة تقنيات سيرا، من التركيز على النجوم الحقيقيين للفيلم، أي حيوانات ما قبل التاريخ.

ويقول الفنان ريتشارد هولاندر من شركة «بلو سكاي فيفكس» (Blue Sky Ivifx): «تحدث الثورة، من وجهة نظري، عندما نصل الى النقطة التي تصبح فيها الأجزاء الملموسة من الجهاز hardware سريعة فنكتفي بتحديد تركيزنا على القصة».

ولكن بمجرد أن تصبح الأجزاء الملموسة hardwareمن الكمبيوتر سريعة ورخيصة، يصبح من المحتمل أن ينطبق الشيء نفسه على الإنتاج جميعه. ونجد في الواقع أن المؤثرات الرقمية في حدها الأدنى من التكاليف آخذة في النمو والازدهار، إن مسلسلات التلفزيون من أمثال «رحلة الكواكب: المسافر» Star Trek: Voyager تعتمد عليها تلقائيا، كما أصبحت

الأفلام المكتظة بالمؤثرات والتي تتكلف أقل من 30 مليون دولار أمرا شائعا الآن. وأصبح من الممكن استخدام المخلوقات والمواقع الرقمية مثلما كان الحال مع استخدام اللقطات الأرشيفية من قبل.. إذا احتجت لقطة لحيوان الأغوانة الاستوائي من نتاج الكمبيوتر، يمكن أن تطلب لقطة سبق استخدامها بدلا من طلب تكوينها من جديد.

وتوجد شركة السيد كازانوف المسماة «ثريسهولد للترفيه» في منطقة تجارية من العسير وصفها في غرب لوس أنجلوس، تقوم بتصميم لقطات المؤثرات التي تحتاج إليها الأفلام قليلة الميزانية. وعندما تقوم امرأة عارية بالسير خلال حجرة خلع الملابس في فيلم «الكلية» The Faculty تضيف ثريسهولد لها ظلا ثعبانيا زاحفا. وفي فيلم «بيوولف» Beowulf الذي سيظهر قريبا ويتكلف 20 مليون دولار، قام فريق ثريسهولد للمؤثرات بوساطة النظام الرقمي بتحسين عدد من المناظر التي لم تكن تثير الاهتمام من قبل، وإضافة بعض الوحوش الرقمية، ويقول لاري كازانوف: «لقد صنعنا هذا الفيلم مقابل مبلغ قليل من المال لدرجة مذهلة». ويضيف أن هذه المؤثرات نفسها لو تم صنعها من قبل هذا بعشر سنوات لتكلف وقتئذ ضعف هذا المبلغ.

وتحافظ شركة ثريسهولد للترفيه على خفض التكاليف بتأجير فناني رسوم متحركة حية يعملون عادة من منازلهم، إذ تملك الشركة نظاما للاتصال السريع وعقد الاجتماعات بوساطة الفيديو مع مجموعة من الذين يتعاملون بالقطعة في مدن أمريكية عديدة كأتلانتا وسان ديجو وسان جورج ويوتا ولندن، الى جانب أماكن أخرى. يقول كازانوف: «يمكننا ان نعمل لإعداد لقطة ما في أي وقت من اليوم. إن الشاب الجالس في مدخل مسكنه مرتديا خفا من الفراء، في ولاية تكساس، يتكلف أقل من نظيره هنا، ويشعر بسعادة أكثر منه في الوقت نفسه».

* * *

وفي ظل هذا التقدم الهائل للثورة الرقمية، أصبح صانعو الأفلام أكثر اهتماما بالطموح الخلاق عن الاهتمام بتوفير النقود. ويقول جون لاسيتر من شركة بيكسار (Pixar) وهو مخرج فيلمي «قصة لعبة» Toy Story و«حياة حشرة» A Bug's Life (عرض تجاريا في البلاد العربية باسم «العالم الصغير»): «إننا نستغرق دائما حوالي ثمانين ساعة لكي نحصل على صورة واحدة من الفيلم السينمائي، لأن هذا هو كل ما يعنينا، ونحن دائما نطالب الكمبيوتر المتاح لنا بالمزيد، وتصوراتنا سوف تزداد تعقيدا».

ويقتنع المخرج جون لاسيتر بأن الرسوم الحية عن طريق الكمبيوتر سوف تزداد ازدهارا وتطورا بسبب هذا الاهتمام بالجودة، ويقول: «لا يعتقد أحد في أن ألوان الزيت هي التي تحدد الشكل الذي تتخذه اللوحة الزيتية، إنما الطريقة التي يستخدم بها الفنان هذه الألوان الزيتية هي التي تفعل ذلك».

ولن تؤدي المؤثرات ذات التقنيات العالية إلى أن تصبح الصناعة القديمة للأفلام صناعة مهجورة ومندثرة، ولو حدث شيء فسيكون العكس هو الصحيح. إن فنان الرسوم الحية هنري سيليك (الذي ظهر عمله في فيلم المخرج تيم بيرتون «الكابوس السابق للكريستماس» The Nightmare Before Christmas) يجمع بين طريقة توقف الحركة Stop - Motion (حيث يتم تحريك النماذج بمعدل ضئيل صورة تلو الأخرى) وبين الصور المنتجة من خلال الكمبيوتر والتي تتلاحق بطريقة سريعة، وذلك في فيلمه المقبل «عظمة القرد» Monkeybone. ولأن قصة الفيلم من تأليف سيليك أيضاً فهو يطبّق أسلوبه التقني إلى أبعد مدى. وتعرض مقدمة الفيلم تنشئة صبي في

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مدرسة ابتدائية، وتدور أغلب أحداث الفيلم في منطقة ملاهي تشبه ديزني لاند تضم فيما تضمه من لمسات حانة للمصابين بالغيبوبة حيث يتعاطى المرضى كوكتيلاتهم عن طريق الحقن في الوريد. ويعترف سيليك قائلاً: «إن أسلوب توقف الحركة أصبح عديم الجدوى سينمائياً. ولكنه ما زال عظيماً في مجال إثارة روح الدعاية والفكاهة. ولا يمكنني أن أجادل من يقولون لي «هيا، انتقل إلى مرحلة أكثر تقدماً». ولكننا فعلاً نوفق فيما يتعلق بمسألتي التمثيل وتصميم الشخصيات، وبنصف تكلفة أفلام ديزني من الرسوم المتحركة. إنها مرحلة عظيمة لهذا النوع من الأفلام».

***

وخلال النجاح المبهر في الصيف الماضي لفيلم «هناك شيء فيما يتعلق بماري» There's Something About Mary (عرض تجارياً في البلاد العربية تحت اسم «البنت دي هتجنني»)، لم تحظَ بعض الأخبار المهمة التي تتعلق بمبيعات شباك التذاكر على الاهتمام اللازم. لقد حصل فيلم إيماكس «إيفرست» Everest، وهو فيلم تسجيلي عن كارثة ارتياد قمة ذلك الجبل، على مبلغ 53 مليون دولار، وهو مبلغ مذهل يكاد يتساوى مع حصيلة فيلمي «بعيداً عن مرمى النظر Out of Sight و«شيء حقيقي واحد» One True Thing معا، يبدو أن الفيلم الأخير لشركة إيماكس «ت. ركس: العودة إلى العصر الطباشيري» T-Rex: Back to Cretaceous سوف يحقق كذلك مبيعات بهذه الضخامة. وهذا الفيلم الجديد، وعلى العكس من فيلم «إيفرست» فيلم مجسم ثلاثي الأبعاد حيث يرتدي المتفرجون على رؤوسهم سماعتين من البللور السائل، وبعضها مزود بسماعات دقيقة.

ولم تعد تقنيات أفلام شركة إيماكس مجرد تجربة للعرض الفني. بل قد تصبح هي مستقبل الأفلام التي تنتج وتعرض في دور السينما. لقد أصبح في إمكان ضخامة الصورة التي ترتفع إلى 21 مترا أن تثير ردود أفعال ملموسة في وجدان المتفرجين.. إنها تقترب مما سنصل إليه من الأفلام «المحسوسة» feelies والتي لها تأثير عميق، كما تم التنبؤ بها في رواية «عالم جديد شجاع» لألروس هكسلي، وقد يزداد اقترابها عن ذلك. وكلما تقدمت تقنيات التجسيم ثلاثية الأبعاد، بدا الممثلون وكأنهم ليسوا على الشاشة بل كأنهم يحلقون في الفضاء ويطيرون فوق رؤوس المتفرجين.

وقد تكون المساحات الضخمة لشاشات العرض، كما في حالة شاشات شركة إيماكس، هي الوسيلة الوحيدة التي تقدم للمتفرجين السبب المقنع لكي يتركوا منازلهم، ويولوا ظهورهم لشاشات تلفزيوناتهم عالية الوضوح. ويقول ريتشارد هولاندر من شركة «بلو سكاي» التي نفذت المؤشرات الخاصة لفيلم «ت. ركس»: «سوف تزداد مساحة شاشة العرض، وهذا الازدياد سيشكل الميزة الفريدة».

ويبدو أن دور العرض الرقمية، التي ستهبط عليها أفلام خفية من قمر صناعي ليتم عرضها دون تواجد الشريط نفسه، لن يمكن تجنبها أيضا، وسيوفر هذا التحول مئات الملايين من الدولارات على استوديوهات السينما، كانت تنفقها كل عام على طبع النسخ وشحنها، وسوف تقدم للجماهير صورة فائقة الوضوح بتنويعات أكثر من الألوان التي لن يخف بريقها. ويقول كينيث.س.ويليامز من شركة «استوديوهات سوني الرقمية»: «ليس الفيلم فقط هو ما يمكن إخضاعه للنظام الرقمي، بل سيتم ذلك أيضا بالنسبة لكل المواد، بدءا من لوحة رسومات السيناريو إلى صور الدعاية».

وتمر تصميمات هندسة الصوت أيضا بمراحل التحول الرقمي الآن، فقد قام جاري ريد ستروم من «شركة صوت سكاي ووكر» منذ خمس سنوات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بالتقيب خلال أكوام من شرائط الصوت القديمة لكي يخلق تأثيرا جديدا فمزج صوت وشوشة انفجار هادىء من فيلم «الجر الخلفي» Backdraft مع صوت هسهسة جهاز إشعاع حراري (رادياتير) عالي الحرارة من فيلم «المدمر2: يوم الحساب» Terminator 2: Judgment Day، ولديه الآن 2000صوت في أرشيف خاص به في جهاز معين، ويمكنه ببضع لمسات لمفاتيح هذا الجهاز أن يمزج بين صفير الريح وصرخات الأطفال ليضيف مؤثرا صوتيا من عالمنا إلى فيلم جان دو بونت الذي سيظهر قريبا «الأشباح في منزل هيل» The Haunting of Hill House. وأحسن ما في هذا الخبر: إنه يعتمد على الواقع، وليس على الخيال الرقمي، يقول ريد ستروم: «الصوت الاصطناعي لا يعطي إحساسا واقعيا، إن صوت الكمان الاصطناعي لا يقدم صوتا يشبه صوت الكمان، كيف يمكنك إذن أن تقدم أصوات صخب المرور بطريقة اصطناعية؟».

* * *

وبينما كان المؤلف المخرج جاري روس يفحص في غرفة التركيب «المونتاج» الخاصة به الشرائط التي تم تصويرها لفيلمه «بليزانتفيل» Pleasantville، (عرض تجاريا في البلاد العربية باسم «الزمن الجميل»)، أدرك أن مشهد حرق الكتب غير صالح. لقد قام هو ومصممة الأزياء جوديانا ماكوفسكي بتزويد بعض شبان الفيلم بأربطة على أذرعهم مثل الأربطة الفاشية. وبينما كان هؤلاء الشبان يلقون بكتب توين وسالينجر ولورانس إلى النار الموقدة، كانت هذه المكملات من الملابس تبدو بعيدة تماما عن أفكار الفيلم، وكان التصوير الأساسي للفيلم قد انتهى أمره منذ أسابيع، وأي إعادة لتصوير هذا المشهد ستتسبب في خلافات وتكاليف باهظة.

بيد أن تغيير المشهد لم يشكل أي مشكلة. اجتمع المخرج جاري روس مع فرق المؤثرات المرئية، وببعض التنقيحات «الرتوش» الرقمية الحكيمة، أمكنهم التخلص من أربطة الأذرع وإلقاؤها داخل جزء من الكمبيوتر وكأنهم ألقوا بها على بلاط غرفة التركيب «المونتاج»، ويقول روس: «يمكنني أن أفعل ملايين الأشياء بوساطة الكمبيوتر في مرحلة ما بعد التنفيذ. إن أكثر الناس ينزعجون لما قد يحدث لعملهم بعد مرحلة التنفيذ، ولم يكن هذا حالهم من قبل».

وإزالة أربطة الأذرع هو مجرد تغيير بسيط، يماثل عشرات التعديلات الدقيقة التي تتم كل يوم في العديد من حجرات التركيب (المونتاج) في هذه الصناعة، إلا أن هذه التعديلات البسيطة تمثل انتقالا مهماً له شأنه في الكيفية التي تتم بها صناعة الأفلام. ويقول أندرو شيلدون من شركة «رسومات سيليكون»: «إن المؤثرات المرئية المتوافرة والمستخدمة اليوم ليست هي المؤثرات التي نبصرها بالعين. وتكاد كل لقطة في فيلم «تايتانيك» Titanic أن تضم نوعاً من المؤثرات المرئية. ومع هذا يقول الناس: لم أر أية مؤثرات».

وسواء كانت المؤثرات واضحة أو خفية، فإن للكمبيوتر» الفضل في كل الأحوال. يقول سكوت روس رئيس شركة «ديجيتال دومين»: «إن الخط البياني يواصل مسيرته إلى أعلى، ونلحظ كل عام الكثير من التقدم. كما نجد هناك تلك القفزة الكبيرة عندما يحدث شيء- سواء كان ذلك فيلم «تايتانيك » أو فيلم «حدائق العصر الجوراسي» أو فيلم «حرب الكواكب»- يدفع بالخط البياني أربع درجات إلى الأعلى. وإذا قلت لكم إنني أعرف ما هي القفزة التالية، أكون كاذباً. إنني لا أعرف ما هي. ولكنني كنت ألاحظ ما يحدث منذ 25 سنة، ولذا فسوف تحدث قفزات بطبيعة الحال، أما إذا لم يحدث، فدعوني أخلد إلى النوم».

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com



هل سنبقى على حالنا؟

بقلم: جلين كيني*

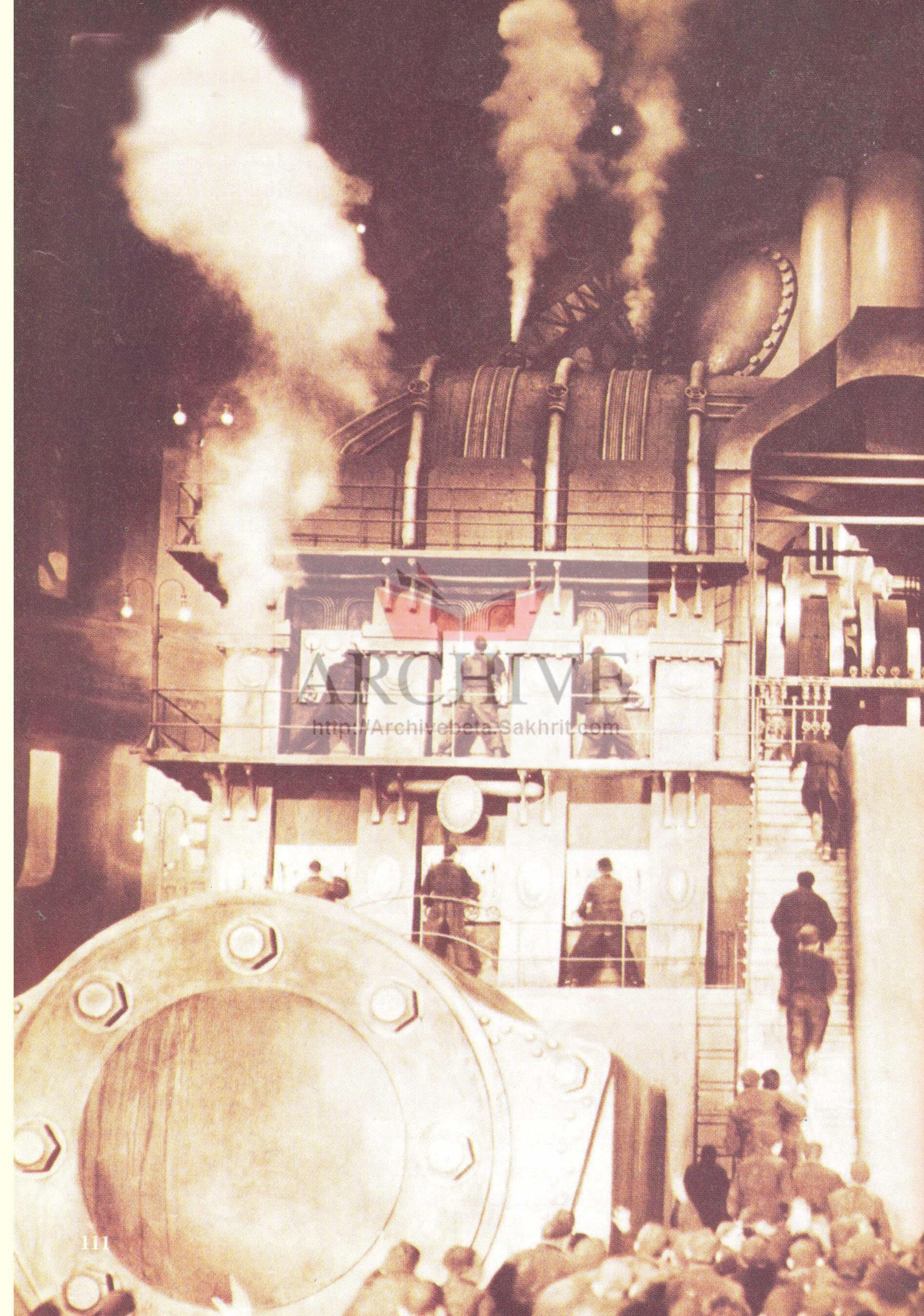
ترجمة: محسن ويفي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

رأى صناع السينما دائما في نهاية القرن العشرين مصدر إلهام لأحلام وكوابيس المستقبل. والآن يبدأ قرن جديد، فإلى أي مدى كانت أحلامهم قريبة من الواقع؟

العنوان الأصلي للمقال:
ARE WE THERE YET? ونشر في مجلة Premieve عدد فبراير 1999

* جلين كيني، كبير محرري مجلة بريمير ورئيس قسم النقد السينمائي فيها.


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هل سنبقى على حالنا ؟

في عام ١٩١١ قامت شركة باتيه Pathé الفرنسية بإنتاج فيلم بعنوان: «بعد مائة عام» One Hundred Years After. والواقع أن هذا الفيلم المفقود - الآن - وطوله حوالي خمس عشرة دقيقة - يتنبأ بالحياة في مدينة نيويورك عام 2011. وفي هذا الفيلم، تختلف الأمور عما كانت عليه عام 1911، بطبيعة الحال، حيث يحدث تحول كامل في الحضارة كنتيجة لتغير اجتماعي وحيد: حصول المرأة على حق التصويت. وفي الوقت نفسه، تصبح المرأة هي التي تحكم العالم. لكن الأمور تعود إلى نصابها في نهاية الفيلم للكل عن طريق تدخلات رحالة من الماضي ينتمي إلى عصر الرجولة «الحقة»، حيث تنتصر أفكاره العتيقة عن الحب الودود على العذاري المسيطرات.

لقد فشل الفيلم في إحدى تنبؤاته: طبعا فقد نالت المرأة الحق في التصويت. لكن الشبان المهمشين يتذمرون اليوم من كيفية حكم النساء العالم دائما (ذلك الاحتجاج الذي يظهر كلما أدار المرء جهاز التلفزيون).

وهناك إجماع عام على أن المرأة لا تستحق بعد تولي دفة الأمور، رغم كل الإنجازات التي حققتها، ومع ذلك، فإن سذاجة فيلم «بعد مائة عام» تعد نوعا من الكوميديا الحزينة.

تخيل ماض كانت فيه هذه القضية تتصدر اهتمامات عقول صناع السينما وتشغلهم عن تسجيل الأحداث الرهيبة التي وقعت في عام 1911، لكنه استقراء المستقبل كان دائما أحد سمات صناعة السينما منذ بداياتها المبكرة. وقد أصبحت لحظة قدوم الألف الثالثة نقطة جذب محورية لهذه الإشارات المنذرة.

والآن نستطيع وقد وصلنا إلى - نهاية - الألفية ، أن نحكم على الكثير من تلك التنبؤات، ونخلص إلى أن الأمور قد سارت شوطا بعيدا تجاه الأفضل وشوطا بعيدا آخر نحو الأسوأ.



يبدو أن القرن العشرين، بداية من الحرب العظمى، قد أعد المسرح لفزع رهيب لا يوصف: الحرب الكيماوية، والمحارق النازية والأسلحة النووية. وهي ليست مجرد - أمور - لا توصف بل يصعب تخيلها عمليا. أما تلك التي يصعب تخيلها (الكاتب الوحيد الذي توقع المحارق النازية هو فرانز كافكا Franz Kafka ،ولكن فعل ذلك على نحو حافل بالغموض والالتباس) فهي، إلى حد ما - حقيقة. احتاج جورج أورويل George Orwell إلى مثال نظام ستالين المخيف كي يصل إلى «1984». وبالمثل احتاج كل من ستانلي كوبريك وتيري ساوثرن إلى هيروشيما، ومجموعة منطوية من شخصيات وزارة الدفاع ورواية تجارية لبيتر جورج Peter George (الذي حصل على حق كتابة السيناريو رغم أنه لم يكن قد كتب إطلاقا للسينما من قبل) وذلك كي يصنعا - فيلم - د .سترانجلوف Dr.Strangelove (اعتمد كوبريك وآرثر .س. كلارك على بعض من تلك السوابق نفسها لواحد من المفاهيم المبكرة لفيلم « 2001: أوديسا الفضاء : 2001 Aspace Odyssey » والذي ينتهي بأحد أطفال الفضاء وهو يشاهد الأرض بأسى وهي تتفجر بوابل من الحرائق بفعل الإنسان ذاته) ولكن هذا لا يسيء لكوبريك أو أورويل، بل ويعزز من مصداقيتهما

أن معظم الفنانين لا يستطيعون أن يدركوا بأنفسهم الأشياء البشعة التي قد تأتي بها بقيتنا.

وإذا استعدنا بعض النماذج التي أطلقت العنان لتخيلاتها حول القرن الحادي والعشرين وأخضعناها للمقارنة مع الواقع لوجدنا أشياء مضحكة، والواقع أنها ليست مضحكة على الإطلاق. وهو ما ينطبق على كيفية إحلال الفرصة محل التفكير الفعلي، وكيف أن ما نعيشة اليوم هو في نواحي عديدة أكثر رعبا وإحباطا حتى من أكثر التنبؤات تشاؤما، وكيف أن كل شيئ - البؤس، القمع، الكوارث البيئية، وخاصة المباني الضخمة وسفن الفضاء - يبدو على شاشة السينما أفضل بكثير من صورته في الواقع الحقيقي.

بابل التكنولوجية

رؤيتان فيلميتان ديستوبيتان Dystopias* بتقنية عالية اقترنا بالقرن العشرين مثل مساند الكتب: متروبوليس لفريتز لانج Fritz Lang Metrpolis - عام 1926 - وعداء الشيفرة لرايدلي سكوت Ridley Scott Blade Rummer - عام ١٩٨٢ - وكلا الفيلمين كل بفرديته الخاصة ذو معايير أفلام الخيال العلمي الجذابة، ولا يزالان متألقين بصريا حتى الآن. تكمن قيمة متروبوليس، خاصة، في المجموع الكلي لصوره المدهشة. مع مشاهد المدينة المهيبة المعقدة والآلات الهائلة، الضاخة المتناغمة التي لا تخدم أي وظيفة، وأي مهندس حقيقي لا يستطيع رصدها، خفقان أقواس الكهرباء (يصبح من العسير تبين تأثيره الفعلي) هذا هو المستقبل التعبيري لكوابيس - الفن - التام - الفعلية الموجهة.

تتم الحكاية (كتبتها ثيا فون هاربو زوجة لانج في ذلك الوقت) عن أمر خطير إلى أبعد حد والذي يعني الكل من أجل الأفضل: لو أن لانج قد منحك الوقت الكافي لتأملها فسوف ترى الهراء التام لها.

نذيرا بتلك الأيام التي أصبحت فيها واحدة من كتاب رئيس الدعاية النازية جوزيف جوبلز المفضلين، لفقت فون هاربو حزما من توافه الفاشية الأصلية التي تتوق إلى الرومانسية الرفيعة.

سيرى عالم مستقبلها عملا منعزلا بطريقة متصاعدة بناء على أمر طفل الروبوت الماكر، لكن في النهاية يصنع سلاما مع رأس المال حيث تخبرنا الفكرة المبتذلة المستخلصة من الفيلم: «ما بين العقل والأيدي... يجب أن يتوسط القلب». لقد كره لانج نهاية فون هاربو. لماذا إذن أزعج نفسه بإخراج الفيلم؟ حسنا فكي يستطيع أن ينفذ كل هذه المشاهد العظيمة. كي يضع الإمكانات الضخمة لجهاز إنتاج الاستوديو الألماني يوفا UFA تحت إمرته بشكل كامل. إنه شيء من هذا الأمر. فعاطفته لم تنجم عن النظرة التنبؤية إلى حد كبير بل نجمت عن الرؤية الفنية التي استحوذت عليه عندما نتطلع إلى أفق مدينة نيويورك من مقعد



ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

* ديستوبيا Dystopia، مقابل لليوتوبيا (المدينة الفاضلة) في الحياة المعاصرة، وقد استخدمت الكلمة بمشتقاتها بدءاً من عام 1950، وهي تعني مكاناً متخيلاً يعيش الناس فيه حياة مزرية باذسة

مسافر سفينة - بعد - سنوات لاحقة.

إنه لأمر لافت للنظر أن نتأمل كيف صار فيلم رايدلي سكوت أكثر طموحا من الناحية الفكرية من فيلم فريتز لانج، لكن «عداء الشيفرة» Blade Runner المأخوذ عن رواية العبقري الشعبي فيليب. ك.ديك Philip.K. Dick قد اعتمد كثيرا على منطقه الخاص أكثر مما فعل متروبوليس. معالجة استعارية لأسرار تصنع الوجود «الإنساني». يعد الفيلم أكثر أصالة فلسفيا من حال المعدل المتوسط - لأفلام - الخيال العلمي.

ما الذي يكسبه قوته القاهرة، مع ذلك، الظلمة، مشاهد المدينة شديدة السطوة، المكان المهيب، البنايات المتدفق - منها - الدخان تحزم المنظر الطبيعي كالمتهور القبيح، ويبدو الناس على الأرض مأسورين إلى الأبد تحت المطر. كما تبدو كآبه أسلوب - الفيلم - الأسود مهيمنة. شيء واحد مفقود في كلا الفيلمين: تفاعلات الناس العادية. تقوم أغلب الأفلام بإلقاء نظرات على هؤلاء كخلفية لأسلوبها الخاص.

لم يستطع متروبوليس أن يفعل ذلك لأن كل شخص هو تمثيل للنموذج الأصلي Archetype: فالعمال هم العمال، ماريا هي الخير، الإنسان الآلي لماريا هو الشر، الصناعي هو الصناعة، وابن قوس الصناعي هو الفوسييه... إلخ. في الفارق الدقيق الإضافي لفيلم «عداء الشيفرة» يتم تحديد العلاقات الإنسانية عن طريق القوة أو عن طريق الاختلاف: يبدو ديكارد Deckard بلا أصدقاء فيما عدا الرؤساء، زميل ملغز، يرتاب ويخضع. أشباه الناس لدى كل منهم - شبيه - لآخر. ج.ف. سباستيان هو الوحيد الذي لديه أصدقاء مصنوعون. ليست هناك حياة اجتماعية. هل يعتقد سكوت وأصحابه أن المستقبل سيكون بهذا الجدب؟ إنه الأثر الخاص الوحيد للفيلم الذي يبدو أقل مما يمكن تصديقه.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



إنهم يحبون المراقبة:

مثلما هو الحال في - فيلمي متروبوليس وعداء الشيفرة، تبدو نسخة 1956من «فيلم 1984» لجورج أورويل مظهرا جيدا للحكم المعادل لديستوبيا مثبطة للهمم يصعب تخيلها والتي تصور دائما بزخارف فخمة، أسطورية والتي لا توجد إطلاقا في ديستوبيا الحياة الفعلية.



كان عالم رواية أورويل مفعما بالأذى، نسخة تقنية رفيعة من الستالينية حيث يقوم الأخ الكبير بمراقبتك. كان الأخ الكبير يصور في الملصقات بجبهة عريضة، حاد البصر كلي الرؤية.

لقد كان مفزعا تماما كالعالم الذي يراقبه، غير أنه ليس بدرجة هائلة، ذلك لأن كل الوسخ الكئيب قد تم تنظيمه بشكل واضح.

بالفعل هناك أخوة كبار حقيقيون وقد أصبحوا أكثر عددا. ولم نعد بشدة قلقين بشأنهم. على سبيل المثال - ففن - الوسخ الكئيب غير المخرج (الموجه) لمدينة نيويورك الآن (والذي هو - كي نكون منصفين - يقاسم الفضاء بكثير من العمارة الفخمة، المطاعم الجميلة وأماكن مسلية للارتياد) تتسلط كاميرات المراقبة على جميع المنشآت - الخاصة - المساهمة وحتى على الأماكن العامة.

يعتقد عمدة نيويورك الملون الميال للعراك رودلف جيولياني Rudolph Guilioni إنهم مجرد مغرورين، وأن أي شخص يعارضهم هو مجرد تافه ذلك لأنهم مرتكبون للجرائم.

إنه 1984 على نطاق محلي، وسوف ينزعج المرء، ليس إلى حد كبير، بسبب حقيقة وجود الأخ الكبير بل من حقيقة أن يصبح إلى حد كبير أقل مهابة بكثير مما تخيلناه (بالمثل يؤكد فيلم «عدو الدولة» Enemy of The State غير المستقبلية لتوني سكوت Tony Scott أن حالة المراقبة هي - مجرد - طريقة لتسيير الأمور وإلا فإنك ستسيء الظن بـ «عدو» هؤلاء الذين يراقبونك.

للتخلص من قلق - تلك الطريقة - القليل، فعليك الانغماس بمرح في Gizmo - Worship عبادة الإلة (التي تفتح كل شيء) هجاء المستقبل:

السخرية من المستقبل

يعتبر فيلم «الشرطي الروبوت Robo Cop » - عام 1987 - الفيلم الوحيد في السنوات الحالية الذي أدرك الفتور الشاذ للعنصر الذي يقوم بدور بارز عندما يقارن المرء ما بين الديستوبية الحقيقية وما بين الذين يصدقون - ها - (والفيلم من إخراج باول فيرهوفن Paul Verhoeven عن سيناريو كحد الموس لإدوارد نيومير ومايكل منير) حيث يرقى جيولياني إلى حد «الشخصية» .ليس هناك أبهة بل كثير من الفساد والعجرفة، رغم ذلك، فهو يعتبر هجائية قاطعة تماما، إنه مرح كما أنه معذب. إنه لا يدور في المستقبل البعيد - لمدينة - ديترويت حيث تحكم عن طريق نهابين متعاونين واعين. ويؤهل من أجل الجزء الأكبر لمختلي العقل متعاطي التلفزيون.

يبدو «الشرطي الروبوت» حادا ومسليا أيضا بشكل صارم إلى حد أن المرء لا بد أن ينسى أن شخصيته الوحيدة النبيلة التامة هي - في الواقع - رجل ميت. ماذا تعتقد إنهم يقصدون بذلك؟

يعالج فيلم «النائم» Sleeper لوودي آلان Woody Allen سيناريوهات كابوس المستقبل،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وإن بطريقة أقل جدية، حيث يتجمد بانتعاش في القرن العشرين، صاحب محل - طعام - صحي لقرية جرينوتش، ثم يعود إلى الحياة مرة أخرى في مجتمع - أكبر الظن - شمولي في القرن الواحد والعشرين. وهذا المجتمع الشمولي - ليس على سبيل التنبؤ - مكرس للإرضاء الذاتي حيث يتوقع المواطنون ألا يفعلوا شيئا غير أنهم يحسون بالنفع. بطبيعة الحال يمكن لمثل العصابي «الآن» أن يتوقع بعض التحفظات إزاء هذا التنظيم الاجتماعي.

في كل الأحوال يبدو من الصعب الآن أكثر بكثير من عام 1973- التأكيد - أن عالمنا يسير في ذلك الاتجاه، رغم ذلك يشغل بعض المحافظين المتطرفين أنفسهم بالتأكيد على نفي ذلك.

ومن المسلي جدا أن ذلك الفيلم ينتهي ببراعة أكثر مما فعل فيلم 1911 «بعد مائة عام» عندما تقنع شخصية آلان ديانا كيتون Diana Keaton أن قدراته تفوق دستة طاقة جنسية. يوضح الفيلم أنه بينما تبدو الطبيعة الإنسانية متصدعة باستمرار إلا أن العلاقات المركبة لا تزال تتصدى لبركة السعادة المحاصرة. الحقائق الخيرة القديمة تنتصر.

نهاية العالم قريبا

تقول لوحة معلقة على مكتبة في نهاية فيلم «على الشاطئ» لستانلي كرامر Stnley Kramer: «أيها الأخ.. ما زال هناك وقت». حيث - عام 1959- نهاية نجم - لـ - كل - العالم الرديء. يدور الفيلم في عام 1964في عالم يزيل تقريبا آثار حرب نووية. وتتبع بنية المسلسلات التلفزيونية مصائر مجموعة ليست بكبيرة باقية بعد الكارثة. وقد حدثت المهمة نفسها بشكل ما أكثر صرامة في فيلم «الأثر العميق» Deep Impact عام 1998حيث يقوم قاتل محترف بتدمير العالم.

وفي هذا الفيلم الأخير يتأكد بقاء البشرية من خلال خطة تعتمد على الاحتفاظ بجزء محدد من السكان (أساسا ذلك الجزء من الشباب، الموهوب، ذي الشكل الجميل) تحت سطح الأرض لمدة طويلة. وتبدو هذه الخطة بالنسبة لهوليوود في التقسيم بين خاسري وكاسبي العالم مقنعة تماما.

وقد وضع لاحقا خطة مشابهة لتلك بيتر سيلرز Peter Sellers قرب نهاية المعركة الفاصلة للكوميديا الخشنة الكلاسيكية «د.سترانجلوف».

بطبيعة الحال يظهر السيناريو من خلال صاحب القفاز الأسود سيلرز المهووس (ذاك القفاز الذي ظهر لأول مرة - عرضا - عند العالم المجنون في متروبوليس) الذي يحابي سلطة النخبة Elite كمرشحين أساسيين للبقاء المتواصل. ومقصود من - ذلك - أن تكون كريهة لكن بشكل أو بآخر تظل - تلك هي الفكرة نفسها لو أن تدميرنا قد حدث بفعل قوى خارجية، فلا بد أن نحاربها. أما إذا كان - ذلك - بفعلنا الخاص فلا بد أن تتلبسنا الحشمة كي نرقد ونموت. أو بمعنى آخر: يقول د.سترانجلوف، فقط لأنه يتضح أننا اللعبة الوحيدة في المدينة فذلك لا يعني أننا نستحق البقاء المتواصل، أما - فيلم - الأثر العميق فيقول، نحن جميعا على ما أصبحنا عليه، فلماذا إذن لا نحب أنفسنا؟

وتعد «لا إنسانية» كوبريك أمرا دافعا للمعنويات، إنه يقي إدراكنا بمفاهيمنا المعيبة، ويفعل ذلك في مواجهة ما كان ولا يزال مستمرا (دعنا لا نمزح من أنفسنا) من الخطر الواضح والحاضر. والتوق الشديد لـ «الأثر العميق» للمخرج ميمي ليدر Mimi Lader في أن تتشبث الإنسانية بالأمل في مواجهة الخوف من المجهول. و بغرابة كافية اختار المخرج تيري جيليام Terry Gilliam الذي لا يذكر كثيرا بسبب ميوله الإنسانية (حيث تشعر بالرؤية الديستوبية لفيلمه برازيل Brazil في ظل عدم وجود زمن محدد على الإطلاق)، نقول اختار، ألا يتخلى عنا الشيء الكبير

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هل نحن ما زلنا هناك؟

داخلنا في نهاية الفيلم، غير أن المشاهدين المتيقظين هم الذين التقطوا ملامح - ذلك - العميل الذي سينقذ البشرية. صحيح أن البطل بروس ويليس يفشل في مهمته المتمثلة في إيقاف المختل الذي ينشر الفيروس، لكن يبدو أن اسياده القساة القلوب يرسلون تعزيزات من المستقبل، تأمل بعناية كابينة الطائرة في المشهد الأخـير من الفيلـم.

يميل المخرجون الذين يحاولون التنبؤ بالحياة بعد انهيار الحضارة الى التأنق، فتقدم الشروط الرهيبة للحياة على الأرض في - فيلم - جورج ميللر George Miller - مقاتل الطريق The Road Warrior كذريعة قوية لإنعاش السرقات السينمائية وأصناف الأزياء - شبان مقنعون عديمو الرحمة ينزلون الدمار في أرض خراب - قاحلة تماما. رجل في حالة بهيمية يقدم نوعا جديدا من الداروينية داخل اللعب Play: كل النزوات التي نفترض أنها تنطوي على مهارات البقاء الشديدة البدائية تصبح مرعبة بعد الطوفان. قلبا لهذا اللامنطق، يوضح ذلك العمل الذي يفتقر إلى الرشاقة ولد وكلبه A Boy and his Dog- عام 1975 المأخوذ عن قصة هارلان إليسون Harlan Ellison الساخرة عن متجول صغير في عالم ما بعد الكارثة النووية، الغريزة الحية بأكثر الطرق السقيمة الممكنة.

لكن كل هذه العوالم الشجاعة الجديدة - في أقل القليل - تشتمل على بضعة أناس داخلها. الباقون من لحم ودم بعد نهاية العالم بفعل آلة في - فيلم - جيمس كاميرون James Cameron «المدمر» - الجزء الثاني - Terminator2 من الصعب حتى تخيل وجود يوم القيامة هناك، فالفيلم يبدأ بقدم معدنية تصدم جمجمة بشرية. وهنا تتعين البشرية على وجه الحصر تقريبا من خلال غيابها.

حدود التسامي:

من بين كل الفنانين الذين تجرأوا للمراهنة على المستقبل كان الفتى هـ. ج. ويلز H.G.Wells هو الذي أحرز الانتصار الكبير. ليس لأنه لا يملك أي سبب للاحتفال بعد تحقق نبؤاته. بمشاهدة فيلم ويلز المعبر - المشترك في كتابته - «أشياء ستحدث» Things To Come الذي يظهر معاناة لندن خلال غارة جوية في حرب عالمية ويتتبع تحول إرادة المجتمع في القرن الواحد والعشرين، لا بد أن يفترض المرء بسهولة أنه قد صنع في ذروة أو في نهاية الحرب العالمية الثانية. غير أنه - في الحقيقة - قد عرض عام 1936. «الله يلعنكم جميعا» كتبها ويلز في أوائل الأربعينيات «لقد أخبرتكم بكل ذلك».

«أشياء ستحدث» يأخذ المتفرج - في نهاية الأمر - لنوع من اليوتوبيا يسيطر عليها نخبة من التقنيين المتقدمين. السلام يسود وكل شخص يرتدي ملابس زاهية. كانت المشكلة الوحيدة هي أن الحياة بلهاء، بلهاء، بلهاء لدرجة مميتة.

عكس الفيلم رد ويلز على متروبوليس الذي رآه أسخف فيلم.

تعتبر بعض من «أشياء ستحدث» بلهاء تماما، لكن فيما يتعلق بمسألة - الطبيعة البشرية - لم يكن ويلز تجاهها في هذا العمل وفي الأعمال الأخرى ببعيد - عنها - بمسافة كبيرة. تتوقع كل من روايته ونسخة فيلم عام 1960 من «آلة الزمن» The Time Machine حركة الهيبز بعاطفة مسالمة وحرة وبصمت - ك - مقابض باب إلوي Eloi. انظر لإيفيت ميميكس الفاتنة وفتاها الأشقر بالز: مشكلتهما الوحيدة أنهما قد أصبحا غذاء سلبيا للميرلوك (الحثالة) Morlocks الحمقى الذين يعيشون تحت الأرض.

تشاؤمية ويلز عن بعد المسافة التي على الإنسان أن يقطعها كي يتطور قد خففت داخل الفيلم الذي قدم بديلا عنها فعليا نماذج أصلية مفعمة بالحياة ولكنها رخيصة.

ومع ذلك فقد صارت الخلاصة في الأساس، هي النتيجة نفسها:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هل سنبقى على حالنا؟



كمال الجنس البشري هو أمر يصعب تحققه. يمكن أن تتعامل فقرتنا القادمة في تجذيرنا للموضوع عن حالة أخرى مربكة من فيلم كوبريك «2001: أوديسا الفضاء» الذي يتناقض مع «د. سترانجلوف» حيث يقدم إجابة خاصة: تقدم للأمام، شموكس، فجر كوكبك، فأنت لم تعد قريبا بعد، حتى تصبح نخبة رفيعة في كل الأحوال.

وحيث إنه لم يبق على عام 2001 الفعلي إلا بضعة شهور فإنه من اللعب اللفظي الظريف أن نرى كيف كانت تنبؤات شركة كوبريك - والمشترك في الكتابة - أرثر. س. كلارك. نوبي Nope لقد أصبحنا قريبين من الرسالة البشرية لجوبيتر وأصبحت الكمبيوترات الراقية تعمل بالاسطوانات Discs وليس عن طريق الشرائط. ولم يكن أحد قريبا من الوصول إلى الكائن (الفلتة) هال Hal في أي من مشاهد الأفلام لافتا للنظر... إلخ.

يبدو أن مخرجي السينما، من جانب آخر، على حق في الالتحاق - بجدول - التسطيح الكلي لجهاز التلفزيون. من اليسير أن نضحك على ملابس مرافقي طيران سفن الفضاء لفن البوب آرت Pop - Art وأثاث ردهات محطات الفضاء المتوسط، ولكن إذا فعلنا ذلك نكون قد تغافلنا عن نقاط حيوية. فعندما عرض الفيلم لأول مرة، شعر بعض النقاد بأن كوبريك وكلارك كانا ساخرين عندما وظفا هيلتون وهوارد جونسون في محطة الفضاء، لكن تلك اللمسة تحولت كي تكون واحدة من أفضل - ما فعلاه - بصيرة.

يا للتفاؤل البريء الذي سيطر علينا عندما أغلقنا أفواهنا حينئذ! - فمن - أين فكروا في مصدر المال الذي سيحتل - أخيرا - الفضاء؟

هل كانا يعتقدان أن ذلك المجرد - «الإنسانية» - المحررة من مصالح الشركات - المساهمة - سيخوض مغامرة واسعة كبيرة؟

بالنسبة لكوبريك وكلارك كان الهروب الوحيد من التفاهة ومن الفساد ومن قسوة أقراننا الآدميين هو القيام برحلة إلى جوبيتر وفيما وراء اللامتناهي. إنه حلم يقدم يوتوبيا توماس مور Thomas More. لكن بما أن عام ٢٠٠٠ يلوح، أمامنا، في الأفق، فنحن مواجهون بحقيقة بسيطة لا يستطيع أحد لا يملك يوتوبيا أو ديستوبيا أن يقلل منها: لا نزال نحن البشر يضرب أحدنا الآخر حتى الآن.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مخرج الروائع جيمس كاميرون يحدد ملامح..

المستقبل الآتي

جيمس كاميرون مخرج سينمائي يتعامل مع كلمة مستحيل باعتبارها تحديا وهو تحد يتطلب ببساطة إطلاق العنان لجهود، وموهبة، وعبقرية واعتمادات لاحدود لها.

وعندما يفكر في مستقبل هوليوود بشجاعته المعهودة، وبصيرته الثاقبة، فإنه يرسم حدود المستقبل الآتي.

حاورته: آن تومبسون

ترجمة: غادة الحلواني

مراجعة: أحمد خضر

العنوان الأصلي للمقال:
The Territory Ahead ونشر في مجلة Premiere عدد فبراير 1999

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إن ملك العالم نفسه لا يحصل دائما على ما يريد. وعلى الرغم من أن فيلم تايتانيك لجيمس كاميرون قد حصد في بلده إحدى عشرة جائزة أوسكار «محطما بذلك الرقم القياسي للجوائز الذي حققه فيلم بن هور»، وحقق مبيعات عالمية غير مسبوقة قدرها 1.8بليون دولار، فقد انتهى الحال بالمخرج إلى التخلي عن مشروعه ذي المؤثرات الضخمة آفاتار Avatar لأنه بالغ الطموح، وفي العام الماضي أنهى هو وستان وينستون علاقاتهما مع شركة ديجيتال دومان Digital Domain، وهي شركة للمؤثرات البصرية شديدة التطور، التي شاركا في إنشائها. لكن كاميرون تستغرقه اليوم شخصية الكاتب- المنتج: حيث إنه يعمل على تجهيز فيلم سولارس Solaris؛ وهو فيلم جديد مأخوذ عن رواية من كلاسيكيات الخيال العلمي كتبها ستانسلاف ليم، كما يشتغل على سيناريو معالجة جديدة لفيلم كوكب القرود Planet Of the Apes، الذي سيقوم ببطولته صديقه القديم أرنولد شوارزينجر. وقد ساعد أيضا شوارزينجر في فيلم الألفية «نهاية الأيام End of Days»، مقترحا أن يقوم بيترهيامس بإخراجه، بعد أن انسحب ماركوس نيسبل من المشروع.

ويبدو كاميرون، الذي يقود دراجة نارية من نوع هامر من بيته في ماليبو، إلى مكاتب شركته الإنتاجية لايتستون إنترتمينت Lightstorm Entertainment في سانتا مونيكا، أقرب إلى فرسان المائدة المستديرة، أكثر من كونه ملكا مدللا. «عندما يزوره ونستون وشوارزينجر، تصطف أمام الشركة ثلاث دراجات نارية من نوع هامر».

وتزين غرفة مكتبه الفسيحة عجلة ضخمة من فيلم تايتانيك، ولوح أردوازي من فيلم «أكاذيب حقيقية»، وجمجمة فضية من فيلم «المدمر» عليها قبعة من الفرو الروسي، تبدو جميعها وكأنها رؤوس أيائل من العصر الإلكتروني. وعلى مكتبه كمبيوتر ماكنتوش، وقاعدة فأرة Mouse pad من فيلم «أيام غريبة»، وسيف مزخرف «هدية من شوارزينجر»، وقاموس American Heritage، وطبق من الخضروات مغطى بورق السلوفان. وعندما جلست إلى هذا العبقري طويل القامة ضعيف البنية وطلبت منه أن يشركنا في رؤاه لمستقبل السينما، كان من الطبيعي تماما أن يشير ليس فقط للمكان الذي يجب أن أجلس فيه، بل وأيضا للموقع المثالي لجهاز التسجيل.

● إلى أي مدى كان فيلم الأيام الغريبة *Strange Days*- الذي كتبته أنت وأخرجته زوجتك السابقة كاترين بيجلو- دقيقا في تنبؤه بالمستقبل؟

- أود أن أصدر هذه المناقشة الشاملة بإنكار مهم، وهو أنك عندما تسألين واحداً من هؤلاء الذين يسمون بالخبراء عما ستكون عليه الأمور في السنتين، أو الثلاث أو الخمس أو العشر سنوات المقبلة، فإنهم جميعا بلا استثناء مخطئون. وسوف أكون، بالتأكيد، مخطئا في معظم- إن لم يكن في كل- الأشياء التي أتنبأ بها هنا. ومن الواضح، أن تنبؤات فيلم الأيام الغريبة لن تتحقق، وأنا أتحدث ليس فقط عن تكنولوجيا الدماغ في ذلك الفيلم «الأسطوانات المدمجة التي تسجل وتسترجع خبرة حسية كاملة للشخص»، لأننا حتى عندما كنا نقوم بإخراجه، علمنا، أنه إذا ما حدث ووجدت، فإن ذلك لن يكون قبل 20، 30، 40سنة. لكن الأمر الذي قد يحدث، والذي يجب علينا أن نتجنبه، هو انهيار نظمنا المدنية. ومنذ شهور عدة مضت، كنت قلقا جدا من حدوث هبوط حقيقي في الاقتصاد أو انهيار للنظم الاجتماعية، نتيجة لمشكلة الألفية Y2K (الأزمة التي ستتسبب في

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



أثناء تصوير الجزء الثاني من «المدمر 2»، روبرت باتريك يراقب كاميرون وهو يتفحص جرح لندا هاملتون

حدوثها أجهزة الكمبيوتر نتيجة لخلطها بين عامي 2000 و 1900 ومن ثم انهيارها). والآن، وربما لأن الناس تتحدث عن هذه الأزمة، فقد كنا أذكياء بما يكفي لتجنب معظم المشكلات في هذه البلاد، على الرغم من أن بعضا من التأثيرات الاقتصادية من بلدان أخرى في أوروبا، قد يسحبنا إلى الأسفل قليلا. ولن يكون هذا الحدث نهاية الحضارة كما عرضناها، إلا أنه سيكون أمراً مخجلا للغاية، أن تنفق الولايات المتحدة ما يقرب من نصف تريليون دولار لحل مثل تلك المشكلة الصغيرة الغبية. إذ يمكننا بنصف تريليون دولار أن نستعمر القمر والمريخ، وأن نعالج مرضى الإيدز، وحوالي عشرين مرضاً آخر. إنه لقدر كبير من المال لكي نبدده على إصلاح غلطة غبية. يجب عليهم أن يفتشوا عن المسؤولين عن ذلك ويعلقوهم من آذانهم، ويفضحوهم ويرفعوا أكبر دعوى تعويض قضائية جماعية في تاريخ الحضارة الغربية.

● هل تعرف أين ستكون عشية العام الجديد؟

– لن أكون على متن طائرة، هذا هو الأمر المؤكد.

● هل تعتقد أن الشعبية الضخمة التي جناها فيلم تايتانيك لها علاقة بالألفية القادمة؟

– بينما يقترب الناس من الألفية الجديدة، هناك أمل، غير أن هناك أيضا إحساساً بدنو يوم القيام يجتاح طوائف واسعة من الناس بدءاً من الطوائف الدينية الحمقاء التي تؤمن بأن العالم سينتهي فعلا، وحتى هؤلاء الذين يقولون: «إنها مفترق طرق، يعكس مرور الزمان، إنها النقطة التي سنلقي منها نظرة على حضارتنا ونرى ما أنجزناه». والأمر المؤكد أن فيلم تايتانيك ركز أكثر على الجانب الكابوسي. وبالنسبة لي فقد كان

الأمر يتعلق بالكيفية التي نحكي بها قصة عن نهاية العالم، لكن من خلال عالم صغير جدا. وكان لابد أن يأخذ كل شيء مكانه على تلك السفينة، لأنها صورة مجازية عن العالم. فنحن نجد بلدان العالم الثالث والأمم المتقدمة، والغنية- الكل على السفينة نفسها. عندما وقف رواد سفينة الفضاء أبوللو على القمر، وتطلعوا نحو الأرض، وجدوها شيئا واحدا. جميعنا على السفينة نفسها. ستغرق الدرجة الثالثة والدرجة الأولى في الوقت نفسه، إذا أسأنا استخدام هذا الشيء. ولن ننجح في إنقاذها خلال مائة عام أخرى بالمعدلات التي تمضي بها بعض النزعات السلبية مثل ارتفاع درجة حرارة الكون، والزيادة السكانية، وتلوث المحيطات، والإفراط في صيد الأسماك. نحن في موقع نسيطر تماما فيه على بيئتنا، غير أننا لا نسيطر على أنفسنا.

يعطي تعليماته لليوناردو دي كابريو أثناء تصوير تايتانيك

● ماذا في اعتقادك كان تأثير فيلم تايتانيك في السينما، سلباً وإيجاباً؟

- قال بيتر تشرنين (رئيس مجموعة فوكس Fox Group)، «إن أسوأ سيناريو أن يعد تايتانيك فشلا، وثاني أسوأ سيناريو هو أن يحقق نجاحا باهراً». ما كان يعنيه أنه سيكون فتحا لباب ثابت يتيح لكل شخص أن يقول: «حسناً، هذا الرجل أنفق ذلك الكم من المال». وعلى الجانب الآخر، فإن ما يجب على الناس، حقيقة، أن يتعلموه من تايتانيك، هو أن القوى الدرامية الأساسية التي تؤثر الآن في عقل الجمهور وقلبه هي تلك القوى نفسها التي كانت فعالة في عام 1965، إبان ظهور فيلم دكتور زيفاجو. لقد أغرم الناس بفيلم يعتمد على شخصياته وعواطفه. لقد أمضينا ساعتين مع الفيلم نحاول أن نعرف من كان هؤلاء الناس- نتخلل عقولهم، وقلوبهم وحيواتهم - وبعد ذلك تحدث الكارثة لهم. وفي المقابل كان من الممكن أن نصفعك بالحقيقة لمدة ثلاثين ثانية من الفيلم، ثم نحاول تخفيف ذلك في بقيته كضرب من التعويض. إن فيلم تايتانيك بالنسبة لي هو تأكيد حقيقي على القيم التقليدية.

● إنه تأكيد أيضاً على الطول الملحمي. فلم يكن كل من فيلمي «جو بلاك» و«المحبوب» يحتاج لأن يكون طوله ثلاث ساعات؟

- لقد اعتادت الاستوديوهات على أن تتعامل مع الفيلم الذي يطول لساعتين وعشرين دقيقة باعتباره عائقا كبيرا: ولا يمكن أن تستغرق وقتا أطول من هذا. حسناً، هذا خارج التصور. وقد أثبتنا خطأ هذا، لكن بالتأكيد بقدر كبير من المخاطرة. فقد كان أداء هذين الفيلمين في شباك التذاكر سيئا.

● لماذا كان تايتانيك بهذا الطول؟

- إذا كان الإيقاع صحيحا فإن الناس لا تشعر بالوقت. غالباً ما تقول شركات الإنتاج إنها تريد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الفيلم أقصر وقتاً، لكنها يجب حقيقة أن تقول: «إننا لا نعبأ بطوله، نريد أن يكون الإيقاع صحيحاً». وهذا ما يجب أن يقوله المخرجون لأنفسهم. لقد حذفنا في بداية الأمر عشرين دقيقة من فيلم تايتانيك، لكن لم يكن الإيقاع جيدا، وكان بطيئاً جداً في البداية، ولم يكن ينقلك دائماً بيسر إلى المجموعة التالية من الأفكار. إنني أشعر دائماً أن كل مشهد يجب أن يجيب عن بعض الأسئلة، ويطرح سؤالاً، وعلى المشهد التالي أن يجيب عن ذلك السؤال، ويطرح آخر، حيث يجاب عنه بتقدم إيقاع الفيلم. وإذا حدث عكس ذلك فسيتولد الإحساس بالطول. سيجلس الناس ويشاهدون مباراة كرة قدم لمدة ثلاث ساعات. ولن يكون هناك فارق كبير.

• إذا كان عليك أن تفعل هذا مجددا، فهل ستوجه «ملك العالم» الخطبة نفسها التي ألقيتها ليلة حفل الأوسكار؟

– أنا لا أشعر بالندم على هذه الخطبة، كل ما آسف له، هو أن كثيراً من الناس في وسائل الإعلام، اختار تفسيراً سلبياً لها. بالتأكيد أدرك الجمهور ما كنت أقوله. لقد كنت أتحدث إلى الناس العاديين في الشارع، لقد فهموها، وكأنك تقول لأحدهم: «هذا يا صديقي ما قاله جاك عندما كان واقفا عند مقدمة السفينة».

لقد كان يشعر أنه بحالة جيدة. عندما يصيب المرء الهدف ألا يرقص في كل الاتجاهات؟. وهذا قريب مما يحدث لي عندما أحقق نجاحا، ولن أسمح لتفسيرات الناس السلبية لتلك اللحظة أن تجعل مشاعري سلبية إزاء واحدة من أعظم لحظات حياتي.

• سمعت أنك تكتب جزءا ثانيا من فيلم أكاذيب حقيقية *True Lies*.

– الجزء الثامن من فيلم أكاذيب حقيقية، يدور هناك في الخارج. أحب الشخصيات التي أبدعها هؤلاء الممثلون الثلاثة: آرنولد (شوارزينجر) وجيمي (لي كورتيس) وتوم (آرنولد). نستطيع أن نتخيل موقفاً آخر لهم. فعلى عكس معظم أفلامي، كان تايتانيك الأكثر وضوحاً.

• ألا تستطيع أن تقوم بصناعة الجزء الثاني منه؟

– لم يتوقف الناس عند التفكير به. على شبكة الإنترنت تصلني باستمرار رسائل وأفكار جديدة: مثل «جاك وروز: السنوات المبكرة».

• إذا أصبحت حقوق مشروعك «الرجل العنكبوت *Spider Man*» متاحة (مازالت تواجه مشاكل قانونية)، هل مازلت ترغب في إخراجه؟

– سألخص لك وضعي من الناحية الفلسفية. أنا أبلغ 44 عاماً، أصنع فيلماً كل سنتين، أو ثلاث سنوات– يجب أن يكون شيئا أبدعه. لقد فعلت هذا دوماً، باستثناء فيلم «الأغراب Aliens». كان فيلم «المدمر Terminator» من إبداعي، كذلك فإن فيلما «تايتانيك» و«الهاوية The Abyss». ومع كل هذا الوقت والجهد اللذين أضعهما في أفلامي، فلا يجب أن يحصل شخص آخر على ثمار هذا الجهد. أنا لا أريد أن أكدح في بيت رجل آخر.

• هل هذا يعني أن الجزء الثالث من فيلم «المدمر» قد يكون اختياراً لك في يوم ما؟

– لقد كان الأمر فوضى عارمة، بسبب إفلاس شركة كارولكو Carolco (الشركة المنتجة لفيلم «المدمر2»). لكن الجزء الثالث من فيلم «المدمر» سيكون مؤهلاً بالتأكيد كفيلم أستطيع أن أكتبه وأنتجه.

• هل مازال عليك أن تحل مشاكلك مع جال آن هور *Gale Anne Hurd* (منتجة فيلم «المدمر» السابقة)؟

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

- لا يجب أن أحل مشاكلي مع جال (رئيسة شركة كاورلكو السابقة). إذ إن آندي فاجنا Andy Vajna يمتلك الحقوق، فقد اشترى حصتها كلها.

● هل ستكون تكاليف إنتاج الجزء الثامن من فيلم «أكاذيب حقيقية» مرتفعة جداً؟

- لا أحب أن أضع بطاقة السعر على الأشياء قبل أن تكون حقيقية. وعندما كتبت سيناريو فيلم «تايتانيك»، أعتقدت أننا نستطيع صنعه بتكاليف أقل من تكاليف فيلم «أكاذيب حقيقية»، لأنني شعرت أن معايير الإنتاج كانت متساوية تقريباً، وأنه لم يكن عندي نجم رئيسي. لهذا تصورت أنه إذا تكلف حتى 10 ملايين دولار أقل (بمعنى أن هذا لا يشمل أجور النجوم) من فيلم أكاذيب حقيقية، فسيظل مع ذلك أرخص. ولم أعتقد أنه سيغدو الضعف، والواقع أنك لا تستطيع أن تعرف أبداً ما ستكلفه الأشياء حتى تبدأ بوضع الميزانية.

● عندما تنظر إلى الأمر الآن بعد أن أخرجت الفيلم بالفعل، هل كان بوسعك أن تصنعه بتكاليف أقل؟

- إذا كنت أمتلك كرة بلورية ورأيت النسخة الأخيرة من الفيلم، لقمت بالتخلص من بعض التركيبات هنا وهناك، وهذا كان قد يوفر لنا نحو 2٪؛ لكن معظم التكلفة كانت في بناء السفينة، وإذا استخدمتها لتصوير مشهد أو عشرين مشهداً، فسيتعين عليك أن تبنيها. لذا إذا كتب عليّ أن أصنعه مرة أخرى، فلن أغير فيه شيئاً جيدا واحدا، وإلا ما كان لنا أن نحقق تلك النتيجة النهائية الرائعة.

● هل يستطيع المرء أن يزعم أن التفصيلة التاريخية الحقيقية التي أدخلتها في فيلم تايتانيك كان ثمنها باهظا؟

- كمانت الموثوقية هدفاً، وذلك الهدف أعطى الحياة لكل قسم فوق الخط وتحته. كان الأمر أقرب إلى طقس ديني. كل شخص وضع المسؤولية على عاتقي بحيث بدا وكأنه يتعين علي أن أذهب وأفتش على عمل كل شخص يخيط فستاناً أو يجهز مشهدا. بوضوح، كان هذا مستحيلاً.

لقد أبدعنا ثقافة داخل ذلك الفيلم، حاولنا من خلالها أن نكون حقيقيين وصادقين بقدر الإمكان. وعلى الرغم من أن الأمر كان يبدو وكأنه خطأ كبير في نهاية اليوم عندما كانت تصل الفواتير، فإنك عندما تشاهد إعجاب الجماهير في سائر أنحاء العالم بالفيلم لن يمكنك أن تزعم أنه كان خطأ.

● هل كان فيلم تايتانيك سباقا في استخدام المؤثرات الفنية المولدة بالكمبيوتر؟

- خلال العام الذي كان يصنع فيه فيلم تايتانيك، وتحت تأثير الأفكار الرائجة في الخارج، كانت هناك نزعة في الاستوديوهات تقول: «نعتقد أننا نستطيع أن نحل المؤثرات البصرية محل النجوم، كما في فيلم تويستر Twister». (صديقي بيل باكستون Bill Paxton، قد يكون نجما شهيرا الآن، لكنه لم يكن هكذا قبل تويستر Twister). يمكن أن تحصل على قصة وبعض المؤثرات البصرية، وهذا يكفي. وقد حاولوا جميعهم أن يفعلوا هكذا؛ ومن ثم، بدأ كل شخص في تلقي هذه الصدمة الطاعنة- من تايتانيك؛ «وقوات مركبة النجوم Starship Troopers»؛ «وجودزيلا». سمي أنت. الأمور الآن غدت بطيئة الإيقاع حقاً في عمل المؤثرات.

● بالنسبة لحروب النجوم: الجزء الأول- تهديد الشبح *Episode1-The Phantom Menace* أيبدع جورج لوكاس شخصيات رقمية *Digital Characters* تتفاعل مع ممثلين فعليين، هل هذه هي الخطوة التالية؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

- أعتقد أنك سترى شخصيات من صنع الكمبيوتر (CG)، تتفاعل مع ممثلين، بالطريقة نفسها التي رأيتها في شخصيات متحركة مسطحة، تتفاعل مع ممثلين فعليين في فيلم «من أوقع الأرنب روجر Who Framed Roger Rabbit». بالنسبة لي إنه تطور، وليس ثورة. يود كثيرون من صناع الأفلام أن يحصلوا على كل الممثلين هناك، بحيث يستطيعون التحدث إليهم. إنهم لا يريدون ذلك القدر الضئيل من الاصطناعية في الإبداع (الذي تحصل عليه مع مولدات الكمبيوتر CG). إنه عالم منتصف الطريق إلى الرسوم المتحركة، حيث لن تتعامل مع ممثلين على الإطلاق- تحصل على خمس أو عشر من صناع الرسوم المتحركة مع بعضهم يمثلون مثل الشخصية التمثيلية الحقيقية. إنه إنطباع مباشر لخيال مجموعة من الناس، بحيث تتجاوز عملية التمثيل كلها، بعيدا عن التصوير الصوتي الذي هو أمر حاسم. الآن هناك هذه المنطقة الوسطى التي تمتلك فيها صناع رسوم متحركة الذين يبدعون بعضا من الشخصيات، وتمتلك ممثلين يجسدون بعضا من الشخصيات الأخرى ليلتقوا في تلك المنطقة. إنه أمر مثير بالفعل.

● ماذا عن صنع الممثل *Synthespians*؟ تبدو فكرة إعادة صنع مارلين مونرو رقميا مستحوذة على انطباعات الجماهير؟

- بادئ ذي بدء، هذا المصطلح ابتكره فعلياً صديق لي، وهو سباز ويليامز Spaz Williams، الذي عمل في «الحديقة الجوراسية» و«المدمر ٢». وينطوي المصطلح على استخدام أجهزة الكمبيوتر في خلق شخصية اصطناعية. إنه أمر عملي بالتأكيد الآن. هناك شخصيات من صنع الكمبيوتر في فيلم جورج الجديد. لكن ما لم يصنع حتى الآن هو شخصية تشبه الإنسان في طبيعته- بعينين وأنف.. إلخ- من شأنها القدرة على إبداع أداء عاطفي مقنع. وبالنسبة لي، فإن إعادة صنع همفري بوجارت Humphrey Bogart أو مارلين مونرو Marilyn Monroe- أستطيع أن أفهم نجوميتهم الساطعة وسبب انجذاب الناس لهم - تبدو بالنسبة لي غريبة ومربكة، لأن هؤلاء الناس ليسوا حقيقيين وسيبقوا دائما أناسا تقريبيين. لا نستطيع أبداً أن نعيد صنع أداء شخص ما.



تحت الماء مع ايدهارس أثناء تصوير «المتاهة»

● إن الأمر أقرب إلى مشاهدة متقمص لشخصية الفيس *Elvis*؟

- نعم، فأنت تعرف أنه ليس الشخص نفسه. تستطيع أن ترتقي بهذا الأمر إلى نسق أعلى مع صنع الشخصيات بالكمبيوتر، لأنه يمكن أن يبدو مثلهم تماماً، لكنه لن يمثل بالطريقة نفسها التي يمثلون بها. تلك الشخصيات المتقمصة، لن تقدر أن تقوم بالاختيارات التي سيقوم بها الممثل، وأنا آمنت دوماً بقدسية اختيار الممثل في لحظة معينة-

لماذا يفعلونها بهذه الطريقة كمقابل لتلك الطريقة، هذا هو السحر المتعذر تحديده الذي يجعل الشخص نجما في المقام الأول. لهذا، ما ستحصل عليه هو محو لسحر النجم، لأنك ستحصل على هذا النوع من تقليد متثاقل. لكن ها هنا تطبيق يمكن أن يكون فعالاً: دعنا نقول إن لديك ميل جيبسون Mel Gibsen في قصة تمتد لأربعين عاماً وتريد أن تراه في عمر الخمسين. تستطيع أن تخلق اصطناعياً ميل جيبسون في عمر الخمسين، وتدعه يمثل بنفسه في سن أصغر، أو يمثل بنفسه في سن أكبر.

• هكذا في (عملية) الوجه- الإلغاء، تستطيع حقاً أن تركب جسم جون ترافولتا على وجه نيكولاس كيدج؟

– من الناحية العملية، لم نصل لهذا بعد. نحن نقف تماماً فوق النتوء، مع ذلك، سأقول خلال السنتين المقبلتين، ستصنع شخصية أقرب إلى الإنسان.

• عرض تايتانيك في دور عرض تعمل بنظام إيماكس *Imax* ذات الشاشة الضخمة، ما الذي تعتقده بالنسبة لمستقبل إيماكس *ImaX*؟

– إيماكس من الوسائط شديدة الجاذبية. وأنا أحب أن أصنع فيلماً بنظام إيماكس. وعلى الرغم من أن تايتانيك عرض في دار عرض إيماكس، فإنه لم يصور بقطع إيماكس. لقد صور بـ 35 مم، الذي هو جزء صغير من حجم إطار إيماكس، وهناك تفاصيل أكثر أربعين مرة في إطار إيماكس (تقول إيماكس إن ضعف هذا عشر مرات، يكون أكثر دقة)، لكنه لا يكلف الضعف أربعين مرة. إنه يضيف الوقت والجهد لتحريك الكاميرا الأثقل في الأنحاء. إذا كنا صورنا فيلم تايتانيك بنظام إيماكس، لكنا مازلنا نصوره حتى الآن. لكن واقعياً، يمكن أن يضيف 10٪ إلى الميزانية على الأرجح، فكلما كبر حجم الإنتاج، صغر التأثير.

• ألم يكن بوسعك أن تسحب كاميرا إيماكس، في أنحاء ممرات سفينة تايتانيك الغارقة؟

– يبدو فيلم الإيماكس مختلفاً في طبيعته الأساسية، في الأسلوب الذي يؤطر به، وفي طريقة حركة الكاميرات. فلابد للفيلم الروائي أن يعرض على شاشة كبيرة، وبعدئذ على الفيديو، حيث يحفظ للأبد. ونادراً ما يعود الناس ليشاهدوه على الشاشة الكبيرة. ونظام إيماكس يوسع الفجوة بين خبرة الفيديو وخبرة العرض الأولى. لابد على شخص ما أن يوفق بين الخبرتين. ربما توجد طريقة للتصوير بفيلم إيماكس، مع فكرة عن الكيفية التي سوف تستخلص تماماً صورة الفيديو منه. لكن، الآن، إذا شاهدت فيلم إيماكس على الفيديو ستجده فظيعاً، إنه بهذا الكبر، أطر واسعة، مع أناس في منتهى الصغر داخلها. تستطيع أن ترى بصعوبة التعبيرات على وجوههم، إنه لا يصلح. أعتقد أنه سيكون تحدياً مثيراً أن تصور رواية مسرحية بممثلين في قطع إيماكس، وتدخل ضمن ذلك الإطار وتستخلص نسخة فيديو منه.

• ما رأيك بشأن إمكانية عرض الأفلام رقمياً في دور العرض الكبيرة؟

– للبدء حقاً بثورة رقمية في دور العرض الكبيرة، عليك أن تتغلب أولا على مشكلة العرض Projection. لا تستطيع أن تعرض صورة رقمية في الحال، بنفس الثبات أو البريق الزمني اللذين للفيلم. وليس لمجرد أننا أدركنا الحل منذ مائة عام، فإنه لم يعد الحل الأفضل، إن التوزيع الإلكتروني سيغدو أيضا حجر الأساس الرئيسي للاستوديوهات: إنهم ينفقون الآن في كل استوديو حوالي بليون دولار إجمالاً سنوياً في النسخ المطبوعة والشحن. وبدلاً من هذا، نستطيع أن نستثمر بليوني دولار في برنامج R&T ونقيم نظاماً يمكن الاعتماد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عليه سنكون أنفقنا بليوني دولار، لكن خلال ثلاث سنوات سنوفر أكثر من بليون دولار. لا تنزع الاستوديوهات إلى التفكير بذلك الأسلوب، فهم لديهم تقاريرهم ربع السنوية، وكل تلك الأمور، لكن التوزيع الرقمي سيمنحهم مزيدا من السيطرة على القرصنة وشباك التذاكر. الأفلام ستنقل إلى دور العرض من خلال موديم، وإذا ما تم تحميل الفيلم على أجهزة العرض عبر حزم الألياف الزجاجية أو عبر الأقمار الصناعية، فستكون آلة العرض تحت سيطرة الموزع. ولن يكون بوسع أحد عرضها بشكل غير قانوني، وسيتعين عليك ضبط ذاكرة آلة العرض مع شباك التذاكر.

● سيكون لديك بالتأكيد سجل لشباك تذاكر أكثر دقة.

- فور انتهاء العرض، ستبيعه للأسواق الخارجية بسعر زهيد، وينتهي الأمر، ولا يشغلك بعد ذلك.. هكذا، لا يجب أن تقلق على أين ستذهب تلك النسخ بعد ذلك. إن المشكلة الكبرى التي يجب الانتباه إليها حقيقة، هي أن نقل المعلومات يكلف أموالاً كثيرة. وسيتعين على الاستوديوهات أن تقرر عند نقطة ما، خلال الخمس أو العشر سنوات المقبلة ما هو الحل المثالي. إذا استطعت أن تفلت بمعلومات أقل فأنت توفر مالاً. وأنا أضمن لك أنهم سيختارون رقماً سيكون أقل مما يجب أن يكون.

● هل ستظل تجربة مشاهدة الفيلم في دور العرض موجودة بعد عشرين سنة من الآن؟

- أعتقد، أن الإجابة المعقولة نعم. فلم يأت أحد حتى الآن ببديل قابل للتطبيق لتجربة الجلوس مع زمرة من الناس، تترقب، تنتظر بإثارة أن يتكشف شيء لك، بحيث تستطيع أن تتفاعل كمجموعة. توجد دينامية جمعية تختلف عن مجرد المشاهدة على الفيديو في البيت. تحب الناس أن تخرج: تتأجج أحاسيسهم، تتعامل عقولهم مع معلومات بسرعة أعلى- إنه أمر شديد الخصوصية. نستطيع استنساخ نسخة طبق الأصل تكنولوجياً في البيت، لكن لا نستطيع استنساخ الخبرة السيكولوجية. إن السينما صحية الآن بقدر ما كانت دوماً، وتم تحديها مراراً، بواسطة التلفزيون في الخمسينيات والستينيات، والآن بواسطة شبكة الإنترنت. إن ما تفعله الإنترنت هو أنها تمنح الناس مكاناً آخر للتحدث فيه عن السينما؛ غير أنها لم تؤثر على صناعة السينما على الإطلاق.

● ماذا عن صنع الأولاد لسينما بكاميرات رقمية، وطرحها على شبكة الإنترنت؟

- حدثت دمقرطة لصناعة الأفلام عندما ظهرت كاميرا الفيديو للوجود. لم تغير الإنترنت من هذا على الإطلاق. مازال يجب عليك أن تذهب إلى الخارج وتصور بالفيديو. ومازلنا نود أن نصنع أفلاماً للشاشة الكبيرة.

● ومازال صنع الأفلام الضخمة يتطلب أموالاً طائلة، وهذه الأموال ستأتي من الاستوديوهات.

- نعم، بالضبط. المشكلة أن صناعة الفيلم للتوزيع على دور العرض لا تزال صناعة ذاتية الحدود، بمعنى ما، لأن الناس يتوقعون أن يحصلوا على تجربة خاصة حقيقية، وهو ما يؤدي إلى وضع الميزانيات عالياً. أما صناع الأفلام الذين يريدون فقط أن يقدموا نوعا من الدعاية السياسية، أو بعض القطع الدرامية، فيستحسن بهم أن يذهبوا إلى التوزيع عبر الكوابل. وسيزداد التحدي لصناعة الفيلم المستغلة، وسيجب عليها أن تتنافس مع الميزانيات المتزايدة. لكن لن يتم تحدي شركات الإنتاج الكبيرة والأفلام ذات الميزانيات الضخمة.

● إذن ما مستقبل الأفلام ذات العرض - الضخم؟

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

- انظر إلى إيماكس، لقد ظلت على الساحة منذ السبعينيات - تقترب من ثلاثة عقود. لقد بنوا ببطء اسم - ماركة ذات قيمة إلى حد أنهم يملكون مسارح عرض في معظم المدن الرئيسية، وللمرة الأولى، تبدو أفلام إيماكس فعلياً على خريطة شباك التذاكر في مواقع معقولة. لا أعتقد أن ثورة ما كبيرة ستحدث. وشخصياً لا أعتقد أن الممثلين سيحبون إيماكس، لأنهم لا يريدون أن يروا كل سم وكل شعيرة أنف ولك جعدة.

● هل ستحتل الأجواء المصنوعة بالكمبيوتر (CG) موقع الصدارة أم ستكون الصدارة أكثر لأفلام مثل تايتانيك، حيث إعادة صنع الواقع؟

- أعتقد أن الاثنين، عندما نصنع فيلماً واقعي التصوير مثل تاينانيك حيث يمتزج الممثلون والواقع مع المؤثرات الرقمية، فهم كلهم ألوان على باليتة الألوان فحسب. في تايتانيك، كانت هناك لخبطة لا تصدق في التقنيات في كل إطار تقريباً. ولهذا سيستمر هذا الفن في تحسين نفسه كعلم. في كل مرة ترفع الحاجز، يقفز الجمهور فوقه، وفي كل مرة يرفع الجمهور الحاجز، يقفز صانع الفيلم فوقه، ويرتفع الحاجز مرة أخرى، لهذا هناك هذا الحلزون التصاعد من توقعات الجمهور وصناع الأفلام الذين يجب عليهم أن يستعدوا لهذا. نعم، إن الأفلام تكلف بفظاعة أكثر مما كانت من قبل، لكن عد إلى الوراءلأفلام الخمسينيات والستينيات المفضلة لديك، التي اعتقدت أنها أفلام رائعة آنذاك. إن لها سحراً خاصاً، لكنها تبقى تحبو.

● هل ستعيد صنع المؤثرات الفنية من فيلم الهاوية *The Abyss* بالطريقة التي صنعها جورج لوكاس مع حرب النجوم؟

- لقد عدت وقمت بعمل نسخة خاصة من فيلم الهاوية، مستخدما كل القوالب البنائية التي لم تستخدم بسبب ضغط الوقت، وقد جعلنا الأمر واضحاً أن هذه كانت نسخة بديلة لأناس لا يمانعوا أن يشاهدوا فيلماً من ثلاث ساعات. لكننا لم نعد نغير الصورة الفعلية، أعدنا صياغته فقط، لهذا فهو أقرب إلى وثيقة تاريخية. إنه أمر غريب قليلاً أن تعود وتفعل كل الأشياء التي أردت أن تفعلها منذ البداية. إنه يشبه إلى حد ما التفكير مجددا أنه تاريخ منقح، ومن ناحية أخرى، فهو يكسبك 150 مليون دولار أخرى...

● كيف ستكون صناعة السينما في العشر أو العشرين سنة المقبلة؟

حسناً، إن تحقيق الربح يزداد صعوبة كل يوم. كانت المائة مليون دولار هي الحد الأقصى لأضخم ميزانية لفيلم، لكنها تتراوح الآن بين 200 مليون دولار و 300مليون دولار كانت موجة مد رفعت كل السفن للأعلى، وحدث أن كان تايتانيك هو صاحب السارية الأطول. لهذا شق طريقه نحو المقدمة.

أعتقد أن نجاح تايتانيك يظهر إمكانات السوق العالمي، لكن التجارة الواقعية هي الآن في وضع فظيع في علاقتها بالربحية. أعتقد بصراحة أنهم يجب أن يتقبلوا الأمر ويضاعفوا ثمن التذكرة.

● ألا يذهب هذا عكس فكرة أن الأفلام - عكس المسرح الحي - تسلية رخيصة؟

- هذه خرافة. إذا ذهبت إلى السينما. يجب أن يكون لديك جليسة أطفال، ويجب أن تقود وأن توقف سيارتك في الساحة المخصصة لذلك، ثم من المحتمل أنك ستتناول وجبة طعام بعد ذلك. فأنت قررت أن تمضي أمسية مع التسلية. وجزء من ذلك المساء، الذي سيكلفك على الأقل مائة دولار، هو ثمن التذكرة التي هي الأدنى من ميزانية مسائك.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

• نعم، لكن حينئذ سترغب أن تقوم بهذا مرة أو مرتين في السنة فقط.

- معظم الناس تشاهد السينما مرة أو مرتين في السنة.

• هناك أيضا مريدو السينما الدائمون الذين يقضون عطلات أسبوعية مفتوحة ويشاهدون أفلاما مرة أو مرتين...

- إذا كانوا يحبونها لهذا الحد، فسينفقون المال، غير مبالين، إنه كثير لهذا الحد. نحن نتحدث عن تجارة ليست مربحة.

• لأن التكاليف عالية.

- إنك لا تستطيع أن تغير التكلفة. لا تستطيع أن تعيد عقارب الساعة إلى الوراء. يتوقع الناس رؤية مستوى معين من المتعة من عرض سينمائي، بحيث يكون نسق من الضخامة أكبر مما كان من عشر سنوات، لكنهم يريدونه بالسعر نفسه. يعجل أصحاب دور العرض على زيادة الربح في ثمن التذكرة. أعتقد أنه يجب عليهم أن يضاعفوا من ثمنها فقط، أو يضيفوا 50 ٪ لتصبح مباشرة 12 دولاراً. ستشكو الناس وتصرخ لستة شهور، وبعدئذ، ستذهب إلى السينما، وستكون التجارة مربحة مرة أخرى. وكنت أود الاحتفاظ بفيلمين حتى تلك اللحظة التي سيفعلوا هذا فيها.

• اقترحت شركة *Universal Pictures*، التي يترأسها إدجار برونفمان *Edgar Bronfman*، عمل تذاكر خاصة للأفلام ذات الميزانيات الضخمة، قيمتها أعلى من تلك المخصصة للأفلام الكوميدية لآدم ساندلر *Adam Sandler* ذات الـ *20* مليون دولار.

- هكذا سننطلق بداية لنظام طبقي. بعد ذلك نتقهقر إلى نموذج الأربعينيات من نظام ب ونظام أ بالاستوديو. ارجع خمس سنوات إلى الوراء، وكل ما ستحصل عليه هو فيلم «هناك شيء ما عن ماري «There's something About Mary»، وفيلم «ولد المياه»، لكنني لم أشاهد «ولد المياه». لكن ليس هذا ما تعنيه السينما بالنسبة لي. ما تعنيه السينما لي هو «حرب النجوم»، و«لقاء قصير»، النوع الثالث Close Encounters of the Third Kind - إنها الأفلام التي تأخذني من زماني ومكاني إلى عالم كامل آخر.

وأنت لن تحصل على هذا النوع من الأفلام مستقبلا، لأن الناس لا تستطيع أن تتحمل تكاليفها.

• لماذا انسحبت أنت وستان وينستون *Stan Winston* من مجلس إدارة دار ديجيتال دومان للمؤثرات - الخاصة *special-effects house Digital Domain*؟

- لدى كل منا أسباب مختلفة قليلا. لكن كل منا شعر أن طاقاته الإبداعية من الأفضل أن تنفق من عملنا الأساسي، فأنا كاتب - مخرج - منتج، وهو عبقري صانع رسوم متحركة، مخرج - منتج.

• لكنك مازلت تمتلك *10* ٪ من أسهمها، صحيح؟

- مازلت أمتلك قطعة منها. كانت هناك قضية، وهي أنه بما أن ديجيتال دومان تتطور. فقد كان من الواضح أننا سندخل على نحو متزايد من مناطق صراع المصالح، سواء كنت زبوناً أو مالكاً، لكنني لست المالك الوحيد، وهو نفس وضع جورج لوفاس بالنسبة لشركة ILM. يجب أن أستجيب لمجلس الإدارة، ولم أشأ أن أسائل مجلس الإدارة لماذا كانت ديجيتال دومان تقوم بأشياء معينة في أفلامي. وقد كانت بالنسبة ليس ضغطا إضافيا على وقتي المضغوط أصلا.

• إذن مازلت تستخدم ديجيتال دومان، إلى جانب شركات أخرى؟ سيعرضون عليك خدماتهم مثل أي شركة أخرى؟ تستطيع أن تذهب إلى شركة *ILM*؟

– سيعرضون وأستطيع الذهاب إلى ILM، وأستطيع العمل مع أي شخص إذا أردت ذلك. ذلك يمنحني نوعا من المرونة التي اعتدت أن أحصل عليها لمنتج. وبينما حصلت على كم هائل من الخبرة من خلال إدارة شركة مؤثرات، أبقتني مطلعا على أحدث ما يجري حولنا، فإنني أعتقد أنني حصلت على كل شيء أحتجته منها.

• هل حقيقي أنك تتوسع باتجاه التلفزيون؟

– نعم، إنها فرصة للعمل مع صديق لي قديم وعزيز، هو شارلز إيجلي Charles Eglee. لقد قرر أن ينفصل عن ستيفن بوشكو Steven Bochco، ويعمل عمله الخاص. وقلت «لماذا لا تشترك معي؟ كن ناصحي الخاص». ونحن نكتب معا مخطط العمل ثم السيناريو. وقد تبين أن قص الحكاية هو ذاته في الحالتين. يجب أن تصقله وتجعله أكثر إحكاما في علاقته ببنية التمثيل. لكن الأفكار الجيدة والشخصيات متشابهة في السينما والتلفزيون على السواء.

• هل ستخرج يوما فيلما ذا ميزانية متخصصة من دون مؤثرات على الإطلاق؟ أي بممثلين فقط؟

– إنه أمر مرغوب فيه من وجهة نظر الكاتب بالتأكيد. وهو ما يشدني إلى التلفزيون – إنه يتوقف فقط على مستوى الكتابة، وعمل الشخصية، وليس على أناس تتملكهم التطلعات إلى عرض سخيّ. هذا جيد لأنه يمرن عضلات الكتابة، لكنه ليس مشبعاً من وجهة نظر الإخراج على الإطلاق. دعني أعمل مع التلفزيون لفترة. من المحتمل أن أصدر الحلقات التجريبية. سيكون لطيفا أن ألتزم بتصوير من خمس إلى سبع صفحات يومياً، قد أستطيع أن أدير تلك المهارات لأصنع فيلماً صغيراً من شأنه أن يكون تمثيلا محضاً.

• والمسلسل الصغير ثلاثية المريخ (*Mars Trilogy*)؟

– لقد فتنت بالسفر الحقيقي للفضاء – الاكتشاف والاستعمار – لمدة طويلة لم تتح لي فرصة للتعامل مع هذا الأمر إلا من خلال «الأغراب Aliens»، الذي يجري في مستقبل بعيد مفترض، والتكنولوجيا مختلفة جداً وليست استقرائية لتكنولوجيا اليوم.

• هل حقيقي أنك ذهبت لمشاهدة إطلاق مكوك الفضاء الذي أقل الرائد جون جلين *John Glenn*؟

– نعم، إلى مركز كيندي الفضائي Kennedy Space Center بسبب حبي للسفر للفضاء – لقد تتبعته بخشوع منذ أيام أبوللو – لكنني لم أشاهد إطلاقا فعليا. فقد شاهدت الاختبار الأساسي لهبوط المكوك، عندما أسقطوه من طائرة بوينج 747. وهكذا، فإنني بمعنى من المعاني قد شاهدت الإطلاق التاريخي الأهم على الإطلاق. فإن هناك جمهوراً ضخماً، نحو 200 ألف شخص، أنا أسميه الفضاء. لقد كان عظيما، لأنه عندما كانوا يعدون تنازلياً ووصلوا إلى العشرة، بدأ الناس في العد مع صوت المتحدث من مركز تحكم الإطلاق.

كان الأمر مثل عشية رأس السنة. عشرة!.. تسعة!... كان كل الجمهور يهدر بهذه الترنيمة.

• هل تحب أن تذهب على متن ذلك المكوك الفضائي بنفسك؟

– نعم، لكنني واقعي. أنا لست مرشحا محتملا. آه لو كنت بدأت قبل عشرين عاماً، وانكببت بجد أكثر على الرياضيات والعلوم.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

السينما وهم

في عام *1977* حوّل هذا المخـرج الملهم مجرى سينما القرن العشرين من خلال سلسلة أفلامه عن حرب النجوم *Star Wars*. وفي هذا المقال يحاول مخرج «حرب النجوم الجزء الأول» (*The Phantom Menace*) إلقاء الضوء على صورة سينما القرن الجديد.

بقلم: جورج لوكاس

ترجمة: غادة شويقة

السينما هي فن الصورة المتحركة، والصورة المتحركة ليست أكثر صدقاً أو واقعية من رسوم الكهوف أو اللغة الهيروغلوفية أو حتى كنيسة «سيستين». وما يبتدعه الفنان إنما هو الحقيقة الكامنة خلف «الحقيقة».

إن من بين أهم الأشياء التي يفعلها البشر أنهم يعبرون عن أنفسهم ويتواصلون بعضهم مع بعض. وقد مثلت الكيفية التي ينجزون بها هذين الفعلين، ومدى مهارتهم في إنجازهما، بعضا من أهم منجزات الإنسانية في كل الأزمان، فالأطفال يتعلمون النقش على الصخور تماماً كما فعل الإنسان الأول. وعلى الرغم من بساطة التكنولوجيا البالغة- فهي هنا ليست أكثر من العصا والصخرة- فإنها توضح أن من عناصر الطبيعة الإنسانية الأساسية الابتكار واكتشاف طرائق أفضل لإنجاز الأشياء.

ورغم أنني لست من المتحمسين كثيرا لاستخدام التكنولوجيا، فأنا راوي قصص، وتعين علي أن أطور التكنولوجيا الملائمة لأتمكن من رواية قصصي.

لقد كان على الإنسان الأول اختراع الطلاء الأحمر اللون حتى يتمكن من إنجاز رسم مثير ومقنع على حائط كهف لثور ميت مثلا.

خلال عملي في فيلم «حرب النجوم»، كانت مساحة الحركة ضيقة أمامي فيما يتعلق بما أستطيع إنجازه من زاوية العالم الذي تدور فيه أحداث الراوية. فلم يكن بإمكاني أن أعرض على الشاشة مشاهد لشوارع ضخمة، ولم يكن بمقدوري أن أوفر شخصيات غريبة وغير مجسدة في شكل بشري في الوقت ذاته، تتجول في الشوارع. لم يكن باستطاعتي توفيرهم كشخصيات. وطوال فترة العمل في سلسلة أفلام «حرب النجوم» كانت تدور بداخلي صراعات كثيرة حول أسئلة مثل «كيف يتسنى لي إبداع شخصية مثل Jabba the Hutt؟ وكيف يمكنني أن أخلق على الشاشة شخصية يودا Yoda الذي لا يتعدى طوله قدماً ونصف القدم فقط؟». لقد كان بإمكاني أن أتخيل هذه الشخصيات ولكني لم أتمكن من تحقيقها كواقع مشهدي. وقد تطلب الأمر كثيراً من

العنوان الأصلي للمقال:

Movies are an illusion ونشر في مجلة Premiere عدد فبراير 1999.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الجهد والموهبة من جانب الكثير من الأشخاص من أجل الدمى و«اللاتكس» ونظم أجهزة التحكم عن بعد التي أتاحت لنا ابتداع هذه المخلوقات. لكن حتى عندئذ لم يكن باستطاعتي تحريكها بسهولة بالدرجة المطلوبة.

وبفضل ما أصبح متاحا اليوم من تقنيات التكنولوجيا الرقمية، توصلت أخيراً إلى مرحلة أصبحت قادرا فيها على تحريك تلك الشخصيات بحرية في الديكور الواحد، والحصول على أداء درامي أفضل من هذه الشخصيات، ولقد كان ذلك هو التحدي بالنسبة لي.

الشيء نفسه بالنسبة لحجم الديكورات، ففي الماضي لم يكن بإمكاني تحمل نفقات الذهاب إلى مكان في الرواية يستلزم تصويره ديكورا بالغ الضخامة. أما الآن فبإمكاني توسيع بيئات العمل بالرواية وهي مسألة بالغة الأهمية بالنسبة للفيلم الفانتازي.

أثناء كتابتي للنسخة الأصلية لرواية حرب النجوم Star Wars كنت أكبح جماح خيالي لأني كنت أريد وقتئذ أن أكتب فقط ما أعرف أن باستطاعتي تحقيقه في الفيلم. ورغم ذلك لم أكن متأكداً تماماً من أن ما أكتبه من أفكار سيكون بإمكاني ترجمته إلى مشاهد على الشاشة، ومن ثم فقد كان في الأمر مخاطرة كبيرة. وقد خضت هذه المخاطرة في كل أفلام «حرب النجوم»، ومازلت أخوضها الآن أيضا في الجزء الأول من «The Phantom Menace»، فهل أنجح في تحقيق ذلك؟ غير أن فكرة اكتشافي لما بداخلي من تخيلات ثم تحويلها إلى شيء واقعي، هي بالنسبة لي فكرة مثيرة، فهي تدفعني لمحاولة تحويل رؤاي إلى مشاهد على الشاشة.

العصر الرقمي

في القرن العشرين قامت صناعة السينما على السيليوليد، أما سينما القرن 21 فستكون رقمية. وتسعى دور العرض إلى تحسين أجهزة العرض، ودور العرض، والخدمات الترفيهية المصاحبة. كذلك ستزداد كفاءة الصوت والصورة على الشاشة، خاصة عندما تتحول كل دور العرض إلى التقنية الرقمية، ومن ثم سوف تحصل على تجربة مشاهدة أفضل وأوضح وأكثر واقعية.

وسيكون استخدام التكنولوجيا الرقمية سبباً في خفض تكلفة صناعة الأفلام. كما سيزداد عدد المقبلين على تقديم الروايات الملحمية والفانتازية. ولقد استقر لفترة طويلة أن الأنواع الأدبية مثل قصص الخيال العلمي والروايات الفانتازية يتعذر ترجمتها إلى مشاهد سينمائية بكفاءة لأنه يتعين أن تعرض في الفيلم بشكل معادل لما توحي به من أفكار وهي لاتزال على شكل كلمات داخل كتاب، على أن الفجوة بين هذين الوسيطين الإعلاميين «السينما والكتاب» تضيق الآن على نحو متزايد.

وفي المستقبل القريب سوف يتم تصوير الفيلم والتخطيط له بنظام التكنولوجيا الرقمية، حيث ستنقل بشكل آلي الصورة المسجلة إلى الكمبيوتر، كما ستتم معظم أعمال ما بعد الإنتاج بوساطة الكمبيوتر وسيتعين على أغلب العاملين في الفيلم تعلم عمليات وتقنيات إبداعية جديدة. ولقد نجحنا في إنجاز ذلك التعلم خلال فترة الانتقال من السينما إلى السينما الناطقة، ومن عصر الأبيض والأسود إلى عصر الألوان الطبيعية، وأنا على يقين من أننا سننجح في إنجاز ذلك أيضا في فترة الانتقال الراهنة إلى عصر السينما الرقمية. سوف يستمر إنتاج أفلام الأبيض والأسود الصامتة حتى في الحقبة الرقمية، لأن هناك مليون طريقة لرواية قصة، ولوحة ألوان المبدع دائماً في توسع وإضافة. وقد حدث الشيء ذاته مع فناني عصر النهضة، الذين كان معظمهم رجال تكنولوجيا بسيطي الإمكانات نتيجة للتأكيد الهائل على ابتكار ألوان جديدة وأساليب مختلفة لمعاملة البلاستر والمعدن. وكان الفنانون مواكبين دائماً للآفاق التي تبلغها التكنولوجيا.

عندما عرض المخرج الفرنسي جورج ميلييه George Melies «في فيلمه (رحلة إلى القمر) عام 1902» مشاهد لـ رجال فوق سطحه، كانت هي المرة الأولى التي حاول فيها أي إنسان أن يجعل غير الواقعي واقعيا عبر واسطة تصويرية متحركة. ولقد كانت هذه الحيلة السحرية بداية تبلور «شكل فني» سينمائي. ثم مثل فيلم «كينج كونج»، الذي تم إنتاجه عام 1933، معلما بارزاً في حقل التصوير السينمائي «صورة بصورة»، ثم اكتملت إمكانات فن

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

تحريك الدمى في الستينيات والسبعينيات مع فيلم راي هاري هوسين وسلسلة أفلام سندباد. كما مثل فيلم ستانلي كوبريك «2001: Aspace odyssey» (أوديسا الفضاء 2001) المنتج عام 1968 درجة التطور التي بلغها فن المؤثرات الخاصة في ذلك التاريخ. وفي عام 1977، حوّل فيلم «حرب النجوم» المؤثرات المرئية إلى واسطة مختلفة بإدخاله استخدام الكمبيوتر في صناعة الفيلم. أما اللحظة الفاصلة في ظهور السينما الرقمية فقد جاءت مع ظهور الديناصورات الواقعية لشركة ILM في فيلم Jurassic Park (حديقة الديناصورات). غير أن ذلك الإنجاز كان مستلهما من كل ما سبقه من أفلام، بدءاً من «كينج كونج» حتى دمى هاري هوسين.

وفي أفلام الرسوم المتحركة قدم فريق عمل فيلم Toy Story لجون لاستر John Lassetter أداء تمثيليا غير عادي في عمل كل مشاهده قائمة على الرسوم المتحركة. وأتصور أن المعلم المهم القادم هو Episocle (الجزء الأول من حرب النجوم) إذ ستتفاعل فيه شخصيات رقمية مع ممثلين حقيقيين.

مسألة حدود

سوف تواجه هذه التكنولوجيا الجديدة قيوداً على ما تستطيع إنجازه. وطالما امتلكت عقولنا القدرة على تخيل إمكانات جديدة، فستظل هناك دائماً صعوبات تواجه تحقيقها. ومن الواضح، فيما يتعلق باللحظة الراهنة، أن الإمكانات المتاحة مع التكنولوجيا الرقمية تبدو بلا حدود تقريباً. غير أننا مازلنا حتى الآن في مرحلة تخيل هذه الإمكانات، إذ إننا لم نستخدم هذه التكنولوجيا فعليا بعد كواسطة تعبيرية. ومع مرور الوقت ستتفتح أذهاننا وسيكون باستطاعتنا تخيل أشياء تتخطى حدود هذه الواسطة التعبيرية. إن أجهزة الكمبيوتر يشغلها ويديرها البشر، وسيكون من قبيل «الخيال العلمي» أن نتصور أن الكمبيوترات يمكنها صنع أفلام بنفسها، أو أن الشخصيات الرقمية ليست من ابتكار الإنسان. ولأن السينما الرقمية هي شكل أكثر تعقيداً وتطوراً من أشكال صناعة الفيلم، فإن السينمائيين يحتاجون في الوقت ذاته إلى كل من الخلفيات المتطورة تقنيا وإلى كم كبير من الإلهام. وسوف تظل عملية صناعة الفيلم دائما في حاجة إلى ممثلين للقيام بالأداء الصوتي والدرامي، وسواء كان هؤلاء الممثلون أشخاصا واقعيين أو مجرد ابتكار لصانع رسوم متحركة- أو مزيجاً من هذا وذاك- فما زال الأمر يتعلق باتصال البشر بالبشر.

إن الفيلم هو واسطة اتصال. والسينما الرقمية في الأساس هي الواسطة الاتصالية ذاتها: فهناك كائن إنساني يوصل أفكاراً لعدد من الكائنات الإنسانية الأخرى، وفي أكثر الحالات يتم ذلك من خلال تصوير ووصف كائنات إنسانية. وسواء فعلت ذلك بالطريقة الرقمية أو الفوتوغرافية، فالمحصلة واحدة. لقد قال العديد من الناس إن «السينما الرقمية ليست كالسينما الحقيقية، إنها زائفة وليست واقعية». لكن علينا أن نتذكر أن الفيلم هو شيء غير حقيقي في واقع الأمر. إن أي شيء تشاهده على شاشة السينما هو شيء غير حقيقي، ولم يكن هناك شيء مثل هذا من قبل ولن يحدث أبدا. فالصور المطروحة على الشاشة ولفها صناع الفيلم لكي تظهر على النحو الذي يريدونها أن تكون عليه. والسينما هي واسطة عالية التقنية. فعن طريق تحريك شريط سينمائي عبر عجلات ثم توجيهه للضوء نحصل على عملية كيميائية للتصوير تتم معالجتها أو تشكيلها بمليون طريقة. والشخصيات في الأعمال السينمائية مجرد ممثلين يقومون بأدوار والديكورات يقوم ببنائها طاقم من العاملين، وهي كلها أشياء غير حقيقية، ولاشيء في العمل السينمائي حقيقياً.

إن القصص (في الأفلام) هي ما تحاول أن توصله للناس، ومن ثم يتعين أن تنطوي على بعض التبصر بالسلوك أي الطريقة التي نمارس بها حياتنا، وأيضا وربما الأكثر أهمية أفكارنا العقلية والعاطفية. وهذه الأشياء- سواء كنت تستخدم خشبة مسرح أم التعبير بالموسيقى أم بالكلمات أم بالرسم على حائط كهف- هي دائما الشيء ذاته.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

انتصار الشخصية الروائية

بقلم: ديدييه سنجال وكريستين فرنيو
ترجمة: حليم طوسون

كانت الرواية الجديدة تخطط نهاية الحبكة ووفاة الشخصيات. ولحسن الحظ تغلبت تلك الشخصيات على التشكك في بقائها على قيد الحياة خلال الستينيات والسبعينيات. ومع أن الأبطال المشهورين في الروايات كانوا شخصيات من نبت الخيال إلا أنهم تحولوا إلى كيانات مجسدة وخالدة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أقرّ بيير دسبروج بحكمته البالغة أنه لا يستطيع أن يرى شاحنة إلا وتطرق فكره إلى مارجريت دوراس. أليس ذلك حالة مرضية حادة يعاني الجميع من أعراضها إلى حد ما؟ ومن منا لم يتطرق إلى ذهنه هوميه (من شخصيات رواية مدام بوفاري للروائي الفرنسي جوستاف فلوبير) أو مدام فردوران (من شخصيات رواية البحث عن الزمن الضائع لمارسيل بروست)، عندما نستمع إلى أحاديث المثقفين المطنبة؟ فالأب جوريو لبلزاك والأم أوبو (للكاتب الفرنسي الساخر ألفرد جاري) والعم فاينا (أهم شخصية في مسرحية لأنطون تشيكوف)، وابنة الخالة بيت (لبلزاك)، جميعهم شخصيات تزين ألبوم عائلاتنا.

وهناك قلة من ذوي الرتب العسكرية مألوفة لنا بالمقارنة مع الكابتن أشاب، والجنرال دوراكين (للكونتس دي سيجور) والكولونيل شابير (لبلزاك أيضا). وقد تعرفنا ونحن في السنوات الأولى بالمدارس على ليبتي شوز (لألفونس دوديه) ومولن الكبير (لألان فورنييه). وعبثا سنعثر على لوحة البحارات لمصورها

العنوان الأصلي للمقال:

Le Triomophe du personnage **ونشر في مجلة** أغسطس **عدد** ETE 1999

إلستير في متحف أورساي بباريس، أو عن سوناتا فانتوي في الفناك (وهي هيئة متخصصة في بيع جميع الأعمال الثقافية من كتب وتسجيلات ولوحات مستنسخة...إلخ).

ويرى مبتكرو تلك الشخصيات أنها تنقسم إلى فئتين متمايزتين. فالفريق الأول يتكون من أحرار لهم القدرة على الاختيار، كما عرّفهم فرانسوا مورياك في دراسته عن: الروائي وشخصياته التي نشأت في مخيلة الكاتب، وسرعان ما تحررت وعرفت كيف تنطلق. وهناك مؤلفون عديدون يعترفون، وعلى وجوههم ابتسامة أبوية ودودة، بأنهم يبدأون الرواية وهم يجهلون أين ستقودهم نزوات من أوجدوهم على صفحات مؤلفاتهم. فأبناء الورق هؤلاء محظوظون لأن هناك نوعاً آخر من الآباء أقل تسامحا إلى حد كبير، يتمثل نموذجهم في نابوكوف (الشاعر والكاتب الروسي الذي حصل على الجنسية الأمريكية في عام 1945). وعندما سأله صحفي عن اضطراره إلى مواجهة مثل ذلك «التمرد» أجاب ذات يوم أن خلايا مخه تطيعه بإشارة من إصبعه ونظرة من عينيه: واستطرد قائلا «شخصياتي محكوم عليها بالأشغال الشاقة». وأوضح جون إيرفنج (الكاتب الأمريكي) بكلمات أقل تحكما أنه يحدد مقدما ويخطط ما ستقدم عليه مخلوقاته على مدى عشرين أو ثلاثين سنة.

وهؤلاء الأفراد غريبو الأطوار - سواء كانوا أحرارا أم صدرت ضدهم أحكام بالأشغال الشاقة، يتميزون بأصولهم المعقدة إلى حد ما. فنابوكوف الفظ على الدوام يحل المشكلة وفقا لنظرية التوالد التلقائي. فهو يقول: «لوليتا لا تتبع أي نموذج. لقد تولدت في ذهني ولم يكن لها وجود أصلا. والواقع أنني لا أعرف جيدا البنات الصغار. وعندما أفكر في الأمر، أعتقد أنني لم أعرف أي بنت صغيرة. لقد صادفت بعضهن هنا وهناك في مختلف أرجاء العالم، ولكن لوليتا ليست سوى ثمرة خيال».

وعلى نقيض ذلك، تصور أغلب أقرانه من الروائيين ما سيسجلون قبل أن يمسكوا القلم بيدهم. وهناك عدد كبير من بينهم اكتفوا بالتمعن في أشخاصهم أمام المرآة. فلم يواجه دانتي (الشاعر الإيطالي صاحب الكوميديا الإلهية) وشاتوبريان (الكاتب الفرنسي) وجاك كيرواك (الكاتب الأمريكي المتمرد والبوهيمي) أي مشقة في العثور على أبطالهم حتى لو كان هناك تفاوت بين الوجه الأصلي وانعكاساته. وقد تقمص كل من ليون بلوا وجول فالس وجول رينار (وكلهم كتاب فرنسيون) على التوالي شخصيات مارشنوار، وجاك فانترا و«الأصهب». واعتمد أساسا هذا الطراز من الكتاب على سيرتهم الذاتية، مع إهداء الأدوار الثانوية بالطبع لمعارفهم. وتحدثنا كوليت (الروائية الفرنسية) عن سيدو(والدتها) في روايتها المعنونة كلودين في البيت. وأبرز هرفيه بازان صورة أمه تحت اسم فولكوتش فظيعة الطبع، أما فردين فقد جر معه في محنته ليلي ولافيج والقط بيبرر.

ويدخل أساتذة آخرون روايات متنوعة على سيرتهم الذاتية. ويرى المفسرون أن ديستويفسكي عكس جزءا من شخصه في الإخوة كارامازوف الأربعة. ورسم ستندال (الروائي الفرنسي) نفسه مرات ثلاثة في الصورة التي كان يحلم بها: فقد محا كل من جوليان (في رواية الأحمر والأسود) ولوسيان (في رواية لوسيان لورين) وفابريس (في رواية دير بارم) وجه هنري (اسم ستندال الأول) الأكول المقفى عليه أن يستهلك النساء على مهله. وهناك بعد ذلك مجال الشخصية المركبة ورموزها العديدة التي يهواها المعلقون. فمن هو الشخص الذي يتخفى وراء قناع البطل أو ذاك؟ وكيف أوجد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

روبير دي مونتسيكو البارون بلاميد دي شارلو والدوق دي إيسانت؟ وإلى أي حد ألهم نيتشه شخصية هاري هللر لهرمان هيس (الكاتب الألماني الذي حصل على الجنسية الأمريكية في روايته المعنونة ذئب الفيافي) وألهم كذلك أدريان لفركوهن لتومس مان في روايته عن الدكتور فاوستوس؟ وعلى عكس ديكنز وإميل زولا واللذين تخصصا في الشخصيات غريبة الأطوار، تناول بعض الكتاب في رواياتهم توائم من جنسين.

ويهيم على وجهه (باتريك) بطل الكاتب موديانو في شوارع باريس، وسط الضباب مجترا ذكرياته ومصادفا في طريقه أطيافا قد تكون شبح زوجة سابقة أو خيال أخت.

وتتمثل الشخصية النمطية عند جول فيرن (الكاتب الفرنسي الذي كان أول من بادر بتأليف الروايات الخاصة بالتخيلات العلمية في فرنسا) في المهندس المقدام الذي لا يكل ولا يمل وظل طوال حياته بكرا. أما الشخصية النمطية عند (الكاتب الأمريكي) لوفكرافت فهي الجنتلمان الذي يتصدى للوحوش البشعة في أصقاع موحشة دون أن تتسخ بذلته المصنوعة من قماش التويد.

وفي الحالات القصوى تستغرق الشخصية من ألفها في نهاية المطاف. فقد تحولت كوليت إلى نموذج أسطوري بالنسبة لرهط من الفتيات كان يتباهى بياقة كلودين بطلة روايات كوليت. وإذا كان لافاريد لايزال محتفظا بشهرته بفضل قروشه الخمسة، فمن ذا الذي يتذكر بول ديفوا (كاتب هذه الرواية الشعبية التي ازداد رواجها عندما تحولت إلى فيلم «قروش لافارين الخمسة»). أما لوفلاس الذي أوقع كلاريس هارلو في شباكه فقد تحول اسمه إلى شخصية شائعة في العالم الأنجلو ساكسوني، ولكنه حجب في الوقت نفسه صامويل ريشردسون (الكاتب البريطاني صاحب تلك الرواية). وكاد المفتش سان - أنطونيو أن يفرض المصير نفسه على فردريك دار (الروائي الفرنسي)، غير أن المؤلف قد يستفيد في المقابل، بشهرة مخلوقاته. كان الكسندر دوما في بيته في كل أرجاء أوروبا حتى أن أي موظف جمركي ما كان يجسر على مطالبة دارتنيان (أحد الفرسان الثلاثة) بإبراز جواز سفره. ومع أن جورج هرجيه (الرسام البلجيكي الذي أبدع شخصية تانتان) لم يكن سلوكه فوق مستوى الشبهات في ظل الاحتلال النازي، فأين هو القاضي الذي يمكنه أن يجازف بمحاسبة تانتان (الذي حقق نجاحا ساحقا في أوروبا وترجمت ألبوماته المصورة إلى أكثر من 30 لغة وتحولت إلى أفلام ورسوم متحركة).

وبدأ بتلك المرحلة تشابك الواقع مع الخيال بشكل وثيق حتى اختلط الأمر على القارئ. فهو يرى شرلوك هولمز يجري تحقيقاته جديدة بعد موت كوناني دويل بخمسين سنة. وهو يتعرف وجه جورج لويس بورجس (الشاعر الأرجنتيني) عندما يقرأ باسم الوردة (للكاتب الإيطالي) لإمبيرتو إيكو، وذلك لظهوره كأمين مكتبة فاقد البصر ومصاب بهوس إشعال الحرائق. وهو يتساءل عما إذا كان أوسكار وايلد يمزح حقا عندما أعلن أن أشد حزن استبد به في حياته كان وفاة لوسيان روبامبريه (أحد شخصيات روايات بلزاك). وهو يرفع عينيه مبتهلا للسماء وعرفانا عندما يرفض سيمونون (صاحب الروايات البوليسية الفرنسية الشهيرة) أن يختصر أيام حياة ميجريه (مفتش البوليس في روايته) إذ قال: «لا أعتقد ذلك. أرجو ألا أتركه يموت، إذ إن ذلك سيحزنني جداً...».

ديدييه سنجال

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الرواية البوليسية.. منجم زاخر بالأبطال

شرلوك هولمز ومجريه ومالوسين، مخلوقات كادت أن تطغى على أسماء مؤلفيها، فيكون رد فعلهم أحيانا تدبير موت جميل لهؤلاء الأبطال.

يعرف بطل الرواية البوليسية كيف يستأثر بموقع الخيال سواء كان شرطيا أم سيء السمعة، أم مدخن غليون أم بطل استخدام المسدس، أم مغرما بالبنات الجميلات أم أبا



وقورا. وقد بدأت المسألة برمتها بشرلوك هولمز في مطلع هذا القرن، ومن الواضح أنها لن تكون على وشك الانتهاء. لقد سيطر شرلوك هولمز دائما على كونان رويل. وعانى جورج سيمنون من انتصار ميجريه. ويجد دانيال بيناك نفسه مضطراً الآن إلى تنشيط مالوسين من جديد وعلى فترات منتظمة وإلا تعرض لضروب عتاب عنيفة من جانب المعجبين به الذين يستبد بهم القلق. ولكن هل يتطلب الأمر القضاء على ذلك البديل المزاحم للمؤلف؟ لقد أقدم بعضهم على تلك الخطوة بينما يفكر بعضهم الآخر في الأمر، بيد أن أغلبية كتاب الروايات البوليسية تتوصل إلى حيل أخرى لكي تواصل الحياة في وفاق مع الأبطال الذين يوفرون لتلك الأغلبية وسائل المعيشة.

وعندما ابتكر كونان دويل البروفسور هولمز، لم يتبادر إلى ذهنه أن ذلك البطل سينغص عليه حياته بسرعة. ولاشك في أن مخاطبته باعتباره «السيد هولمز» كلما خرج من بيته أصبحت مصدر إزعاج بالنسبة لكاتب يحلم بأن يصبح اسمه مشهورا. وعليه فقد أمات مونان دويل مخلوقه هذا في رواية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

القضية النهائية في 1893 بإلقائه في مياه شلالات ريشنباخ بسويسرا مع عدوه اللدود البروفسور موريارتي الفظيع الطبع. وبكت إنجلترا مستنكرة ما حدث، بينما طأطأ المؤلف المسكين رأسه وأدرك بعد فوات الأوان أن شارلوك هولمز حي وأكثر إنسانية من كونان دويل في مخيلة جمهور أثارت حفيظته قسوة تلك الجريمة البشعة. وتوفر له خلال: أن يكتب روايات أخرى سبقت موت البطل (وهذا ما جرى في روايته كلب الباسكرفيل)، وأن يعيد هولمز إلى الحياة من خلال مغامرات جديدة تواصلت على مدى سنوات عديدة.

وواجهت أجاثا كريستي ذلك الهم الكبير نفسه مع هركول بوارو الذي ابتكرته وهي مستبشرة به ولكنه غدا بسرعة مثيرا للإزعاج، فهي تفضل عليه الميس ماربل العزيزة، وقريتها الإنجليزية الصغيرة وأسلوب تفكيرها الاستقرائي. فجين ماريل تحكي بطريقتها الخاصة تطور بلد ومجتمع تلاحظه باهتمام من الثلاثينيات حتى السبعينيات. ولما كانت أجاثا كريستي تتقن عملها ومنظمة فقد احتاطت لكل شيء، بما في ذلك موعد موت أبطالها الذين لا يحق لهم أن يظلوا على قيد الحياة بعد وفاتها. فقد أودعت في خزنة بالبنك روايتين تنتظران اللحظة التي سيحسم فيها قضاؤها. وقد كتبت الروايتين خلال الأربعينيات ووضعت فيهما فجيعة موت الشخصيتين. ولم يكن من الممكن نشر هذين المؤلفين إلا في عام 1976، على إثر وفاة أجاثا كريستي، فلا مجال بالنسبة لتلك المؤلفة الحريصة والمتحكمة أن يتصور أي شخص آخر أن بوسعه مواصلة حكاياتها. وهكذا كتب على بوارو وماربل أن يموتا في السنة نفسها مثل من خلقتهما في روايتي بوارو يترك المسرح واللغز الأخير.

ويفكر حاليا إد ماكبين الذي يستكمل حاليا المجلد الخمسين من مغامرات المنطقة السابعة والثمانين في اللجوء بدوره إلى تلك الوفاة التي تنبأ بها مقدما. وهو يقول بهذا الصدد: «ولكن يبدو لي أن ذلك سيكون نذير شؤم لي وأنني بمجرد أن أودع في الخزنة نهاية حكاية بطلي كارللا، سأسحق أو أصاب بأزمة قلبية، ولذا أنتظر قليلا».

ولم يفكر ديدييه داينينكس في أي لحظة في أن ينهي حياة كادان بطله الذي يتولى التحقيقات حتى جرت محاولة من جانب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

داينينكس مزعوم للاستيلاء على هويته وراح يكتب بدلا منه بل ويوقع على كتبه في كل مدن فرنسا. وتمادى في ذلك حتى راح يلصق صورته على الكتب مع استعارة بعض الفقرات الجميلة بالمرة. وعندما ألقي القبض على ذلك الماكر الخبيث قرر داينينكس الحقيقي أن يقتل بطله ليضع حدا لذلك اللبس... وتلك وسيلة حاسمة لقطع الطريق واستئناف نشاطه بعد ذلك من خلال مغامرات أخرى.

وعندما يتعلق الأمر بالغليون، وبولفار ريشار لونوار، ولاتور بوانتو، وبطء التحقيق ندرك فورا أن المسألة تخص جول ميجريه، مخلوق سيمنون، الذي ينتمي إلى فئة الأبطال الذين لا مفر منهم في تاريخ الرواية البوليسية. وقد كتب جورج سيمنون العديد من الروايات من دون بطله هذا، ولكنه لم يحاول قط أن ينهي حياته أو أن يتجاهله، حتى وإن كانت علاقاتهما صعبة ومؤلمة. وظل ميجريه بالنسبة لهذا الكاتب الغزير الإنتاج، شخصية تتطور باستمرار، ومجالا للآخرين ومتنبها لأحوال مجتمع كان يعرف كيف ينظر إليه بروح إنسانية. وينطبق ذلك على كتاب الروايات البوليسية الذين يبتكرون بطلا ذات يوم ويجعلونه يتطور على مرّ السنين والكتب. ويكون بطل الرواية البوليسية قبل كل شيء شخصا يحكي قصة مدينة ومجتمع وظروف حياة. فسواء كان شرطيا أم مخبرا سريا أم متقاعدا أم مندوب تأمينات، فهو متواجد هنا بصفته المدافع عن مهضومي الحقوق، الذي يميط اللثام عن الجريمة وينجد الضحية، وهو بذلك لسان حال ما يجري في المجتمع وتؤكده الحكايات المعاصرة.

وهناك في المقابل مجموعات مسلسلة مثل «المخبرين السريين الكبار» تصدرها 10×18 وتضم مسلسلات تاريخية تخصصت في المخبرين السريين الذين يعيشون في الأزمنة الغابرة، في القرون الوسطى أو في عهد وصاية دوق أورليان (وكذلك الكتابات الحديثة لدومينيك موللر وطبيب الوصي على العرش سوف دي مال). غير أن الأمر يتعلق هنا بالأحرى بروايات تاريخية تتضمن حبكات بوليسية لا روايات بوليسية.

وتنشئ حاليا دار سوي للنشر مجموعة «نقاط» أبطالا جدداً مع جوزيف بيالو وشرطيه السابق المقنع والمدعو - الذئب، أو مع جان - بول فوزيير ومعه مخبره الخاص سليمان رحالي، وهو من الجيل الثاني من الجزائريين الذين ولدوا في فرنسا، وليس له محل إقامة ثابت مما يعني أن بطل الرواية البوليسية لايزال أمامه مستقبل زاهر. ولكن ألن يقدم كتابنا بدورهم على التخلص من مصاصي الدماء هؤلاء بعد عدة سنوات من الحكايات بصحبتهم؟ فالبطل شخص عنيد وخلاق مثل صورة دوريان جراي الذي لا يشيخ أبدا.

كريستين فرنيو

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أوديب محقق يتحرى

أبطالنا العظام معمرون، تاريخهم يعود إلى أكثر من ألفي سنة، ولكن التعب لم يحل بهم رغم ذلك، وهذا يؤكد مدى حيويتهم، حديث مع بيير برونل المتخصص في دراسة الأساطير.

بيير برونل أستاذ في جامعة السوربون وقد ترأس عملية إصدار عدة دراسات جماعية تجدد معالجتها للأعمال الأدبية، وبالتالي شخصيات الأدب الخيالي اعتمادا على مجموعة قراءات متعلقة بالأساطير. وقد نشر من قبل معجم الأساطير الأدبية (الناشر لي روشيه) الذي يعتبر حجة في هذا المجال، وأصدر خلال هذا العام عند الناشر نفسه معجم الأساطير المعاصرة حيث تلتقي بيتر بان وأستريكس وتارزان وفرنكشتاين، وكذلك معجم دون جوان (الناشر لافون) الذي أحصى أكثر من ثلاثة آلاف مؤلف مكرس لأمير الغواة. وفي رأينا أن مكتباتنا عامرة بعدد محدود من الشخصيات التي تنشأ وتتغير وتتطور عبر القرون.

• في مجال الأساطير، هناك أنتيجون، وهيلين، وأورفيه، وفيدر، وأوليس... لدينا الإحساس بأن الإغريق لا يزالون يحتلون المركز الأول.

– بيير برونل: نعم، اليونان هي المهيمنة وعلى عكس ما قد نتصور، فإن الثقافة التوراتية أقل انتشارا إلى حد كبير بالمقارنة مع الثقافة الإغريقية اللاتينية وذلك لأسباب ترجع جزئيا إلى نظامنا المدرسي. ومن اللافت للنظر أن راسين لم يكتب سوى مسرحيتين موضوعهما توراتي، بينما كل مسرحياته الأخرى مستوحاة من مواضيع قديمة.

• الوضع الخاص بدون جوان لافت للاهتمام خاصة أنه يرجع إلى بداية القرن السابع عشر؟

– يظهر من آن إلى آخر ما يمكن أن نسميه أسطورة حديثة. ودون جوان – ومعه فاوست خير مثال في هذا الصدد. فقد نشأت هذه الأسطورة فعلا في الأدب ، من خلال مسرحية منسوبة إلى تيرسو دي مولينو، نشرت في 1630 ، وأصلها غير معروف جيداً بالطبع. ومما لاشك فيه أنه كانت توجد معطيات فولكلورية ومحلية خاصة بمدينة إشبيلية. وعلى أي حال فقد نجحت تلك الشخصية المركبة إلى حد كبير حتى أنها فرضت نفسها فجأة وترسخت في المخيلة. إنه اللقاء المعجزة بين الغاوي والموت. كانت هذه من قبل شخصيات غاوية مثل تيزيه وزوس وأبطال تصارع الموت. وتكمن أصالة دون جوان في الربط بين الإغواء والموت. فالغاوي يصطدم بحد عندما يراهن مع الموت، فالحب لايعرف اللهو، وكذلك الموت.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

• معجمكم عن دون جوان يتضمن ملاحظات حول لوفلاس لصمويل ريشاردسون (الروائي البريطاني) وفالمون لبيير لاكلو (الكاتب الفرنسي) وسوان لمارسيل بروست، وسولال لألبير كوهين (الكاتب السويسري باللغة الفرنسية)... ومثال كازانوفا أكثر إثارة للدهشة.

– إنهم كواكب تدور حول دون جوان دون أن تمتزج معه. ولنأخذ سولال كمثال: فإذا كان الجزء الأول من جميلة المولى تتضمن سلسلة من المراجع الدونجوانية، فإن الجزء الثاني أقرب إلى (ملحمة تريستان وايزولت (التي ترجع إلى العصور الوسطى). ومع كازانوفا (المغامر والكاتب الإيطالي) نجد أننا بصدد شخصية تاريخية تحولت إلى أسطورة، فقد تم نوع من الخلط بين الشخصية الأسطورية والشخصية الحقيقية. كان كازانوفا يعرف دون جوان واتخذه مثالا له. ويقال إنه تعاون مع لورينزو دابونته في كتابة كلمات موسيقى دون جوافاني لموزار. وعليه يكون قد جرت منافسة إن لم تكن محاكاة.

• كيف تفسرون الظاهرة النادرة التي تتحول فيها شخصية من نبت خيال كاتب إلى أسطورة جماعية؟

– أعتقد أن الإجابة بسيط، فحسب مصطلح ستندال الشهير، نكون بصدد عملية بلورة لبعض المشاغل المنتشرة في حقبة معينة أو حقبة أخرى. ويجب أن نضيف إلى ذلك الثنائي المكون من الإبهار والتقزز.

• سواء كنا بصدد دي لاجو أو مغيستوفلس، يبدو أن الشياطين تحظى بالأولوية عند الجمهور؟

– المخلوقات الشريرة والمؤذية تستلفت الأنظار أكثر من المخلوقات الوردية. ومع ذلك فهناك بعض الوجوه المضيئة المكللة بهالة أسطورية مثل كورنيليا في أسطورة الملك لير. وفي هذه الحالة يتعين على الشخصية الممثلة للخير أن تكون في صراع مع الشر. فالوجه الملائكي ذو المصير الجدير بالملائكة سيثير ملل القارئ وكذلك الكاتب بكل تأكيد.


■ بيير برونل ■

• وبهذا الصدد، هل يسمح لكم مجموع قراءاتكم الأسطورية بمعالجة ظواهر حديثة مثل تحرر المرأة وما يترتب على ذلك في مجال الأدب من تزايد عدد الشرطيات والمغامرات والقاتلات؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

– تتأقلم الأساطير مع الواقع الجديد، ألم تظهر دونجوانات . والمرأة تأخذ ثأرها بصوت عال. ثم إن النساء لم تكن غائبة عن الأساطير الكلاسيكية.

كانت أفروديت، وأرتميس، وأثينا، وهيرا ربات شديدات البأس. وتوجد أمام النساء المعاصرات نماذج رائعة.

• لا يمكن تفسير كل شيء على ضوء الأساطير. مارأيكم في كم أعضاء الشرطة السرية الذي لا يحصى ولا يعد ويهيمن على الأدب الشعبي منذ أكثر من قرن؟

– هذا صحيح. فالمخبر السري ينتمي بقدر أكبر للنموذج الوظيفي وليس النموذج الأسطوري. ومع ذلك فإن أوديب محقق له أهميته الأولى، وهو يجري تحرياته مثل رجل الشرطة الآن... ويجب ألا ننسى أن المخبر السري يواجه الألغاز وهي حسب تعرفيها وضع أسطوري.

• هل توافقون على التمييز بين خالق الشخصيات من الروائيين الآخرين. فلو قارنا بين أعمال كاتبين من حيث حجمها، يكون بلزاك قد أوجد عددا أكبر من النماذج التي أوجدها زولا.

– ستكون إجابتي أن زولا، وفقا لوجهة نظري أكثر ثراء من بلزاك. يخلق بلزاك شخصيات وكأنها تنبض بالحياة. أما زولا فيأتي إلينا من خلال الأسطورة. فأسلوبه في الخلق يرتكز على أساس واع ومنظم يمكن أن يلد نماذج شبه كونية، مثل نانا (الرواية التي تعري بمرارة مواطن ضعف الأوساط «الصائبة الرأي»). وينطبق ذلك على بروست حتى أننا نجد لديه إحالات دائمة إلى الميثولوجيا في البحث عن الزمن المفقود، أو عند سارتر في مسرحية الذباب بالطبع، وأيضا في رواياته. وتتدخل الأبعاد الميثولوجية بشكل شبه دائم عندما يكون للعمل بعد ميتافيزيقي، ويكون هذا البعد غائبا عندما يظل الكاتب عند مستوى الوضع البشري.

• وميشيل تورنييه؟ (كاتب فرنسي من مواليد عام *1924* بدأ التأليف وهو في الثالثة والأربعين من عمره بعد أن خاب أمله في تدريس الفلسفة وأوجد لنفسه مخرجا من الفلسفة إلى الرواية باللجوء إلى الأساطير الكبرى التي لاتزال تنبض بالحياة).

– سأكون قاسيا معه. أنا أحب قراءة أعمال تورنييه، وأعترف ببراعته الشديدة وبعمق كتاباته، ولكن الأمر يقتصر عندي على عمليات ترميم (إعادة صياغة). هناك روبنسون وجمعة، وغول ملك أشجار الأون (أسطورة شعرية ألمانية أصلا) وتوأما برج الجوزاء في النيازك وجيل وجان. إنها شخصيات لا يمكن تصورها من دون نماذجها. وبوسعنا أن نتكلم من عمليات ترميم عند مارجريت يورستار (كاتبة فرنسية تعشق الشعر اليوناني القديم) وعن تنوعات متعمقة ورائعة. وعلى نقيض ذلك يقدم لنا زولا أو سارتر مخلوقات أصيلة ولكنها تعتمد على أسس ميثولوجية. لقد لاحظت عندما قرأت أخيراً ومن جديد الطبعة الأولى من تقاسم الظهيرة (مسرحية لبول كلودل «الشاعر والكاتب المسرحي الفرنسي») أنه بدلا من أن يكتب «شخصيات» المسرحية في بدايتها كتب «أشخاص» المسرحية، وأرى أن ذلك في غاية الجمال. أليست غاية الكاتب هي تقديم أشخاص بأقوى معنى للكلمة، لا شخصيات يمكن أن نصنف هوياتها؟

حديث تولى جمعه ديدييه سنجال

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عالـم بلـزاك

بقلم: فيليسيان مارسو

راستينياك مرّ من هنا، وسيعود نوسنجن من هناك... ويحرص بلزاك على تلاقي شخصياته الروائية ويفيدنا بأخبارهم، ويعطينا الإحساس بتطورات الزمن.

كثيرا ما يسترجع بلزاك، كما هو معروف عنه، من رواية إلى أخرى هذه الشخصية أو تلك التي سبق له أن تعرض لها. وقد خصص فرنان لوت دراسة مسهبة لتلك المسألة في مؤلفه السنة البلزاكية 1961 ، وأوضح لنا أن الكوميديا الإنسانية ضمت حوالي ألفين وخمسمائة شخصية، ظهرت من بينها خمسمائة وثلاث وسبعون شخصية من جديد في العديد من الروايات والقصص. وحققت رقما قياسيا في هذا المجال شخصيات لبلزاك منها نوسنجن وبيانشون، وهنري دي مارساي وراستينياك التي ظهرت من جديد وعلى التوالي في واحد وثلاثين، وتسع وعشرين، وسبع وعشرين وخمس عشرة رواية. ومن المعروف أن تكرار تلك العودة إلى الظهور لا تتفق بالضرورة مع أهمية الشخصية في مجموع مؤلفاته. وهناك شخصيات رئيسية منها جوريو، وفاليري مارنيف، وابن الخال بونز، وبنت الخالة بيت لا تعود للظهور إلا فيما ندر، بل ولا تظهر إلا في رواية واحدة. وعلى النقيض من ذلك يتفق هذا التواتر بصفة عامة مع الأهمية الاجتماعية، أو بالأحرى مع «تواتر» اجتماعي. فنسنجن من الرأسماليين، وبياشون طبيب، وراستينياك ومارساي سيصبحون وزراء. وهم أناس مدفوعون أكثر من الآخرين إلى الاهتمام بشؤون الآخرين.

لماذا لجأ بلزاك إلى ذلك الأسلوب؟. ولي أن أتساءل بالأحرى كيف يكون بوسعه أن يتحاشى ذلك الأمر. فبما أنه كاتب روائي لا يكتفي بمعالجة مصائر فردية ويريد أن يقدم وصفا لعصره ولمجتمع معين، فلابد له أن يواجه تلك الظاهرة الاجتماعية البسيطة التي نكتشفها كل يوم على النحو التالي «كيف كان ذلك، العالم صغير حقا! ولكن باريس قرية» ففي رواية أوهام ضائعة، وبينما يتوجه روبمبري إلى الأوبرا يصادف مارساي وراستينياك اللذين قابلناهما من قبل، نحن القراء، في روايات أخرى، فما الذي يدعو للدهشة إذن؟ إن الثلاثة يعيشون في باريس وفي الزمن نفسه، والتردد على الأوبرا مسألة طبيعية للثلاثة، وعدم التقائهم هو الذي يدعو بالأحرى إلى الاندهاش. وعندئذ تكون الثرثرة أبسط آلية عند تلك الشخصيات: «أترون هذا السيد مع زوجته... الواقع أنه كان في العالم الماضي عشيق... وحماه كان متورطا في قضية...» وهكذا لا نجد أنفسنا من الآن، إننا لسنا بصدد رواية واحدة، بل وبتذكيرنا بروايتين أخريين، وهذه الواقعة البسيطة إلى حد كبير تؤكد أن كل فرد منا له موقع وسط شبكة عنكبوتية مكونة من الأقارب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والمصالح والعلاقات العاطفية. إنه انقطاع لذلك العرف الأدبي الذي يقضي بأن تختتم الرواية عند انتهائها وأن تتوقف في الوقت نفسه الشبكة العنكبوتية.

ومن المحتمل أن يكون بلزاك قد عثر من خلال تلك الاستعارة للشخصيات على وسيلة لإيجاد وحدة في مجموع روايات الكوميديا الإنسانية أو للتوصل إلى قدر من الاقتصاد في عدد شخصيات رواياته. وهل كان يريد أن يصل إلى أبعد من ذلك ويحول كل أعماله إلى رواية واحدة طويلة تصبح مختلف حكاياتها فصولا. من الواضح تماما أن الأمر ليس كذلك. ولدينا أمثلة لغيرها من الروايات الطويلة: آل تيبو (للكاتب الفرنسي روجيه مارتان دي جار)، والبحث عن الزمن المفقود (لمارسيل بروست) والناس ذوو النوايا الطيبة (لجول رمانس). وبوسعنا أن نقرأ جزءا منها بالمصادفة، وحتى لو أننا نقرأ الأجزاء السابقة عليه، فسنشعر بقدر من الرضا، ولن يكون ذلك الرضا مكتملا بالطبع وستظل أمور كثيرة غامضة أو غير مفهومة بالنسبة لنا. وعلى النقيض من ذلك إذا طالعنا رواية عقد الزواج، حيث نجد هنري دي مارساي بالأخص فسيكون رضانا كاملا حتى ولو لم نقرأ الروايات الأخرى التي كان له وضع فيها من قبل. ولن نشعر بأي نقص في رواية الأب جوريو حتى لو كنا لم نقرأ رواية جوبسك التي تتضح فيها في تلك الفترة نفسها العذابات التي عانتها ابنة المدعو جوريو، رغم أنه تمت الإشارة إلى تلك العذابات في رواية الأب جوريو.

وفي تلك الرواية نفسها تتجاذب مدام دي لانجليه الحديث مع مدام بوسيان وتسألها عما إذا كانت لديها أخبار عن مونتريفو. ولا تكتسب تلك الجملة كامل معناها وما تتضمنه من تلميحات إذا لم نكن على علم بالعلاقات بين مدام لانجليه والسيد مونتريفو، وهي علاقات وردت حكايتها في رواية أخرى عنوانها: الدوقة لانجليه. بيد أن بلزاك لا يسألنا عما إذا كنا قد قرأنا تلك الرواية الأخيرة من قبل، لأنه يحرص فورا على أن يوضح لنا أن «الدوقة عرف عنها أن السيد موتريفو هجرها، وهي التي كانت مولعة بعشقها له» (الأب جوريو). وتلك جملة لن نجد مثيلاتها في روايتي آل تيبو والبحث عن الزمن المفقود. فلا محل لها هنا لأن من حق المؤلف أن يفترض أننا قرأنا كل ما أورده من قبل. ولكن بلزاك يشير بوضوح، إلى أن فهم ذلك المشهد لا يستدعي إلا أن نعلم أن مونتريفو هجر مدام لانجليه. أما متى حدث ذلك وكيف، فتلك مسألة أخرى ورواية أخرى ومصير آخر اكتفى هنا بلمسه. وفي رواية بياتريكس نجد أنه تم تدبير مؤامرة لإلقاء بياتريكس دي روشفيد في أحضان لا بالفرين. وكتب بلزاك يقول إن ناتان «أسرف في مدحه لذلك الشاب الجذاب والوقح... حتى أن بياتريكس التي أثارت فضولها حكايات الشاعر... أعربت عن رغبتها ...» إلخ. ومضت الرواية على هذا الأساس غير أن المديح الخاص ببلفرين موجود. وقد نشره بلزاك ولكن في رواية أخرى عنوانها أمير من بوهيميا جاء فيها: «وكان أحد أشهر مؤلفي ذلك الزمن جالسا... على مقربة من ماركيزة ذائعة الصيت...» وتلك هي الواقعة نفسها. فالمؤلفان مترابطان ومع ذلك فقد فصل بلزاك بينهما. وبوسعنا أن نفترض أنه ما كان سيقدم على ذلك لو أنه رأى أن تفاصيل إحدى الروايتين كان لا غنى عنها لفهم ما ورد في الرواية الأخرى، خاصة وأن الحكايتين كتبتا في الوقت نفسه تقريبا. ولكن بلزاك شعر على الأرجح بالخطر المتمثل في التضحية بوحدة الكوميديا الإنسانية، وهي الوحدة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الداخلية لكل رواية من رواياته. فلو أنه عمد إلى إدراج مقطع طويل من أمير من بوهيميا لحطم بذلك تلك الوحدة في رواية بياتريكس.

كما أن تلك الوحدة كانت معرضة للكسر لو أقحم مقطعا طويلا من جوبسك في رواية الأب جوريو. وبوسع المرء أن يقرأ جوبسك قبل جوريو أو بعده، وكذلك أمير من بوهيميا سواء قبل أو بعد بياتريكس. ومن الممكن بصعوبة تحديد استثناء في هذا الصدد بالنسبة لرواية نائب أرسيس التي تتحكم في حبكتها، حبكة رواية قضية شيطانية، وكذلك بالنسبة لملحمة فوتران الطويلة التي تشمل كلا من الأب جوريو، وأوهام ضائعة وتألق العاهرات وشقائهن.

وعلى أي حال فبإمكاننا الآن أن نقرأ الكوميديا الإنسانية بالترتيب الذي يحلو لنا. وقد نتخيل أن بلزاك كان يفكر في قراء زمنه الذين يطالعون كتاباته فورا.

فهو يقدم لنا في المرأة المهجورة مدام بوسيان التي وقعت في غرام جديد لتتعزى من تخلي أجوادا عنها. والواقع أن المنطق السليم كان يقضي بأن نعرف أولا تفاصيل تلك الهجرة التي وردت في الأب جوريو. ومن المؤسف أن الرواية الأخيرة صدرت بعد عامين من نشر المرأة المهجورة. وبالطبع لم يكن بلزاك يتصور أن قراءه سينتظرون روايته الثانية لكي يقرأوا الرواية الأولى.

وسيقال لي إن بلزاك لم يمكن قد رسم في مخيلته من قبل خطة عامة لمؤلفه. غير أن تلك الخطة توافرت له بكل تأكيد في عام 1845، إذ إنه وضع ترتيبا لرواياته من أجل إصدار طبعة كاملة لها. ونجد في الترتيب السابع عشر رواية ابنة لحواء حيث كان فيلكس فانديس قد تزوج من قبل، بينما طفولته وغرامياته الأولى (في زنبقة في الوادي) جاءت في الترتيب الثالث والثلاثين. كما أن زواج إرنست دي لابيير في روايته مينيون المتواضعة جاء في الترتيب الثامن مع أن الأحداث السابقة على ذلك الزواج وردت بعد ذلك بمسافة طويلة في الترتيب الثالث والخمسين. ومن الواضح أن بلزاك كان لا يضع في اعتباره أبدا الترتيب الزمني.

والواقع أن مراعاة ذلك التسلسل الزمني مستحيلة. ففي رواية «الصيادة في الماء العكر» نجد أن جوزيف بريدو مضطر للسفر: وحكاية هذا السفر موجودة، ولكنها جاءت مرة أخرى في رواية أخرى (بداية حياة)، وهذه الحكاية لا تتم قبل الرواية الأولى ولا بعدها ، بل تجري في الوقت نفسه. ولنفترض أننا تركنا الصيادة في الماء العكر لقراءة بداية حياة، بيد أننا نجد كاناليس في تلك البداية، فهل يتعين علينا أن نترك البداية بدورها للعثور على مغامرات كاناليس قبل ذلك في مينيون المتواضعة وتركها هي أيضا لأننا نلتقي مع لابيير الذي يجب أن نبحث في «المستخدمون» عن بدايات وسوابق تلك الشخصية الجديدة؟ وهل لن نتمكن من الرجوع إلى الصيادة في الماء العكر إلا بعد تلك الرحلة؟ ولو كان الحال على هذا النحو لبدت لنا الكوميديا الإنسانية كالرواية المشوشة إلى أقصى حد، هذا فضلا عن الانزعاج الناجم عن اضطرارنا إلى قراءتها بالكامل لكي نتوصل إلى فهم مغزاها وتطوراتها، فقط بعد إعادة قراءتها. ولكن من الواضح تماماً أن كل رواية من تلك الروايات لها مغزاها ووحدتها بالنسبة لبلزاك، فكل ما لا غنى عنه قد توفر لنا. فرواية بنت الخالة بيت ليست جزءا من رواية مثل البرتين المختفية وهي جزء من البحث عن الزمن المفقود لمارسيل بروست وموت الأب (وهي جزء من رواية آل تيبو لروجيه مارتان دي جار) وبورج وكانكات (وهي جزء من ذوي النوايا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الطيبة لجول رومانس)، ولكنها رواية متكاملة.

غير أنها رواية ذات منافذ تنفتح إلى طرق عريضة واحتمالات ومسالك، وقد تمتعنا بسياحة جميلة. ويظهر أمامنا الآن كل ما لم يتح لنا الوقت أن نلاحظه، إذ يتعجلنا الزمن والدليل وتزاحم الحبكات. لقد تعرفنا على راستينياك في رواية الأب جوريو، وقابلناه مرة أخرى في أوهام ضائعة، ولكن كمجرد كومبارس، ولكنه كومبارس سبق لنا أن عرفناه ومن ورائه تتفتح عدة آفاق. وقد سبق أن قلت إن عودة الشخصيات فرصة لخوض مجال الثرثرة في الرواية، غير أن هذه الثرثرة ليست سوى نافذة أو آفاق رحبة، ووسيلة لإقحام مغامرة أخرى ووسط آخر، وماض خسيس أو صاخب في قاعة مغلقة. ولا يعني ذلك أن تلك المغامرات السابقة ضرورية ولا غنى عنها، ولكن بفضلها ينصب الضوء على الشخصية ويحيطها بهالة، ويرسم ظلال ويكسبها بروزا وثقلا.

وهكذا يظهر لنا أحد آثار ذلك الأسلوب وتتوافر بذلك لبلزاك جمهوره من الكومبارس. ولكنهم كومبارس بلغوا مستوى الشخصيات التي لا تصل إلينا بشكل فج، ولكن مثقلة بذكريات، فكأننا بصدد حفلات وداع تؤدي فيها الأدوار المتواضعة شخصيات شهيرة أو تلك الشخوص الاستعراضية التي صورها بيكاسو بملابس تمثل المدن التي جاؤوا منها. وقد أتاح ذلك بالأخص لبلزاك إمكانية تنظيم ما أسماه عن حق إثيل برستون «استعراضات». فهي جمع من الشخصيات والجماهير تكون مجردة من الحياة عند روائي آخر أو تحتاج منه إلى مائة سطر للشرح على عكس استعراض عشاق الأميرة دي كاديجان (في رواية أسرار الأميرة دي كاديجان)، واستعراضات المومسات في بداية حياة وفي أوهام ضائعة، وممثلين هزليين دون أن يعلموا، واستعراض المدعوين عند نوسينجن (في تألق العاهرات وشقائهن)، وعند جراندليو (في الرواية نفسها). فبالنسبة للقراء الذين لم يقرؤوا سوى تألق... تكفي جملة جاء فيها «كثيرا ما التقت معا البارونة دي ماكومر، والدوقة دي مونفرنيوز، ومدام دسبار، ومدام دي كامب، ومدموازيل دي توش خلال زيارات، أو عند حضورهن حفلاً راقصاً أو عند عودتهن من الأوبرا، والفيكونت جراندليو، ودوق دي ريتويه، الماركيز دي شوليو... وزوجته، ومدلين دي مورسوف.. الماركيز أجوادا بينتو، والأميرة دي بلامون - شوفري ، والماركيز دي بوسيان، ودي بالمييه، وكيل المطران، وآل فاندنيس...» لوصف ذلك الجمع اللامع، بالنسبة لمن قرؤوا هذه الرواية فقط، وهو وصف مبهر للآخرين. وهكذا وفي خلال بضعة سطور لا نجد خمسة وعشرين شخصا فقط نعرفهم، وينبضون بالحياة، بل وأيضا خمسة عشر مصيراً واحتمالات ونوافذ. ويحصد بلزاك بذلك البذور التي نثرها ويقدم لنا حزمة من الذكريات: فها هي غراميات لويز دي شولييه، وعلاقات الحب العابرة. عند مدام دي موفرينيور، ومؤامرات مدام ديسبار، وزواج مدام فيرمياني الجميل، ونذالة أجوادا الذي هجر مدام بوسيان، ومأساة زنبقة في الوادي ومهارة فليستيه دي توشز.

وفي الوقت نفسه، وبفضل ذلك السرد، ظهرت شخصية رئيسية في الكوميديا الإنسانية ألا وهي ذلك العصر والمجتمع. ونجد هنا ضاحية سان - جرمان التي وصل وله روبمبري بها حد الانتحار.. وكذلك استعراض الدوقات في قاعة الشخصيات البالية، عندما وصل فيكتورنيان دسترينيون إلى باريس: «وعندئذ عبر دوقات فرنوي وهيروفيل. ولينانكور، وشوليو، ونفارينس وجراندليو، وموفرينيوز، والأمير دي كادينيان والأمير بلامون،

عن سعادتهم بأن يقدموا للملك ذلك الحطام الجذاب لأسرة عريقة». ولنلاحظ بهذه المناسبة أن دوقا واحدا كان يكفي تماما لذلك التقديم البسيط، بل إن الأمر لا يحتاج إلى تسع شخصيات لهذه المناسبة. ولكننا نجد أمامنا من خلال بضع كلمات الجانب المهم في الرواية: ألا وهو الكثرة التي تبرز المجتمع وتؤكد وجوده. وفكتورنيان ليس وحيدا فهو ينتمي إلى وسط يربطه به ألف علاقة وتسع دوقات، مما يضيف إلى شخصه جانبا من المجتمع. بل إن بلزاك يبلغ به الأمر حد إلقاء الضوء ساطعا على شخوص من أجل ذلك الهدف وحده.

وعلى سبيل المثال لا يؤدي الماركيز ديرانكنون سوى دور ضئيل، ولا نعرف عنه إلا تفاصيل قليلة ولكنه يكتسب وزنا ويبرز وجوده من خلال كثرة ظهوره (فقد ورد ذكره واحدا وعشرين مرة).

وهذا الجانب الآخر لا يقتصر دوره على تواجد الأشخاص بل يدفعنا إلى المزيد من التصديق، وتؤكد ذلك عودة الشخصيات فالشخص الذي نعرفه أصلا من خلال رواية أولى يعود إلينا في رواية جديدة وبجوار شخص جديد، فيصبح إلى حد ما الدليل على وجود ذلك الشخص الجديد، أو ييسر على الأقل تلك المصداقية الأساسية بالنسبة للرواية فلماذا نمتنع عن تصديق فيكتورنيان بينما وصوله إلينا كان عن طريق جراندليو، الذي سبق أن عرفناه بفصل رواية سابقة؟ فجراندليو ليس سوى كومبارس في رواية قاعة الشخصيات البالية. ولكن بينما يتعين على الروائي العادي أن يكرس عشرة سطور ليقدمه لنا، يعرض بلزاك علينا شخصية عرفناها من قبل، ولها وجود من خلال اسمها وحده، ويحول تلك الشخصية المعروفة لنا إلى ضامن لفيكتورنيان الذي لم نعرفه من قبل.

ومن اللافت للنظر أن استخدام الاستدعاء كدليل يظهر في فقرة من رواية العانس. ويحتاج بلزاك إلى إقناعنا بأن البواعث البسيطة كثيرا ما تترتب عليها تأثيرات ضخمة لكن نتقبل واقعة معينة في تلك الرواية. فهو يدعم الفكرة التي ساقها بالاستناد إلى بعض الأدلة: «ولذا انظروا ماذا يحدث؟ لقد ترهبنت الدوقة دي لانجليه لأنها لم تتذرع بالصبر لمدة عشر دقائق، ويؤجل القاضي بوبينو للغد البت في الأمر لكي يستجوب الماركيز ديسبار، ويحضر شارل جرانديه من مدينة بوردو بدلا من أن يعود عن طريق نانت». وفي رواية الكولونيل شابير أيضا، يستند دلفيل إلى ما جرى لجوريو ليؤكد على مدى ضراوة الناس: «رأيت أبا يموت في شونة، وهو معدم بعد أن تخلت عنه ابنتاه اللتان وفر لهما ريعا مقداره أربعون ألف فرنك». وتتضح لنا هنا الآلية فحيثما نقول إن نفاد الصبر يعاقب دائما، كما حدث لنابليون، يقول بلزاك انظروا إلى ما آل إليه حال الدوقة دي لانجليه ونحن هنا بصدد مراوغة. ففي

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

نهاية المطاف، يوجد لدينا ضمان آخر بخصوص الدوق دي جراندليو، وبقضية لانجليه وقضية جرانديه وقضية جوريو سوى بلزاك نفسه، علما أنه تجاسر وقدمها لنا باعتبارها أدلة إثبات. ولنتصور مثلا متهما يقول: ولكن يا سيادة الرئيس الدليل على أني كنت في بيتي يوم وقوع الجريمة هو أنني قلت لك ذلك بالأمس». فهل هذا دليل يساق؟ بالطبع لا. ولكن هناك فارق إلى حد ما، وهو أن بلزاك لم يكتف بأن يروي لنا قضيتين لانجليه وجوريو، بل وجعلنا نصدق ما جاء فيهما. وكنا شهداء على ذلك. ولم تعد القضيتان مراجع أدبية، وانضمتا إلى تجربتنا الشخصية وذاكرتنا. لقد أصبح كل من الدوقة دي لانجليه والأب جوريو شخصين حقيقيين بالقدر نفسه مثل نابليون وجديرين بأن يذكرا كمثالين.

وعند هذا الحد يبدأ استدعاء الشخصيات في التجلي بكامل أهميته، ونحن نشهد هنا أعجب المحاولات، وانقلابا تاما، وإحلالا للعالم المبتكر محل العالم الواقعي. وقد تمثل ذلك الانقلاب والإحلال في تعبيرهما الموغل في اليأس والصفاء عندما نجد أن بلزاك لم يطلب طبيبه الحقيقي وهو طريح الفراش ويكاد يحتضر، بل استنجد بهوراس بيانشون الطبيب الذي اختلقه. وكان ذلك موقفه، ولكن بشكل لا يثير العواطف بمثل هذا القدر. فعندما أعاد طباعة رواياته أحل شخصيات حقيقية محل تلك التي ابتكرها من قبل، وهكذا حل لامارتين (الشاعر الفرنسي) محل كاناليس المارشال أوديو محل نوسنجن. وكان قد أعلن لنا أنه سينافس سجلات القيد المدني. والواقع أنه ذهب إلى مدى أبعد. فالسجل المدني يسجل ولا ينجب. وقد أقدم بلزاك على كلا التصرفين. فقد ابتكر شخصياته وأطلق حريتها ومنحها الاستقلال الذاتي، ووفر لها وجودا أصبح مستقلا عن وجوده. المسألة واضحة في آخر المطاف: فإذا قابلنا شخصية ما في رواية تجري أحداثها في عام 1820، ووجدناها بعد ذلك في رواية أخرى تدور وقائعها في عام 1824، فلا محالة من أن نتصور أن هذه الشخصية كانت حية بين التاريخين، وماذا فعلت تلك الشخصية؟ لا يهم، لقد عاشت، عاشت من دون بلزاك. فالشخصية الحية دون أن يرد ذكرها في كتاب تكون شخصية حقيقية. لقد تغيرت طبيعة راستينياك من رواية إلى أخرى وبلغ مرحلة الواقعية. وهنا تختلط العلة مع رد فعلها. ولما كانت لنا معرفة سابقة به، فهو يبدو لنا شخصية واقعية وتلك الحقيقة تجعل عودته طبيعة. ألسنا بصدد سراب؟ بالطبع ولكنه سراب فعال، ويظل كذلك بقدر ما يؤمن بلزاك قبل الجميع. فقد ابتكر بيانشون ويريد أن يكون الآن طبيبه المعالج. وبعد أن ابتكر راستينياك، أصبح شاهدا له، وكاتبه ومؤرخه وكأنه عثر عليه بالمصادفة تقريبا. على أن استدعاء الشخصيات ليس خطة مدبرة ولا اكتشافاً بل تصرف تلقائي. فقراءة مؤلفين على التوالي، أحدهما عن عهد القناصلة والآخر حول الإمبراطورية لا يمكن أن يثير الدهشة إذا وجد المرء فيهما نابليون ذاته وفوشيه ذاته وبولين بورجيزه نفسه. فلابد أن يتواجدوا هنا لسبب قاطع، إذ كانوا هناك فعلا.

ومن هنا تنبع حرية بلزاك المدهشة في القدرة على التحرك. والأحداث السابقة هي التي يمكن أن تلزمه، والحقائق تسبق الرواية، وتصورات الإخراج تأتي قبل المسرحية. وعندما تكون العملية نابعة من المؤلف ومطلوبة منه، فإنها تصبح شكل حريته نفسها، وعندما يحرر بلزاك شخصياته فإنه يحرر ذاته في الوقت نفسه. وهو حر الآن في الإمساك بها أو تركها أو استعادتها حسب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مدى أهميتها في الرواية، وفي فترة ما من حياتها. لقد جاء كل ما هو أساسي بالنسبة لراستينياك في الأب جوريو. ففي هذه الرواية تتحدد شخصيته ويخوض معركته الرئيسية ويجتاز العتبة الغامضة التي نصبح بعدها ما سنكون. غير أن الأهمية التي يمثلها لم تستنفد بعد. ونود أن نعرف كيف أصبح وما إذا كان قد أثرى وكيف، وما إذا لم يكن قد ملّ دلفين. ولكن كل ذلك قد لا يكون سوى نوادر لا تستحق كتابة رواية أخرى. وقد تخلص بلزاك من ذلك عن طريق وقائع قصيرة موزعة على نطاق روايات متتالية. ونحاط علما بنشاط راستينياك المهني ومصدر ثروته ونزعاته ومغامراته وزواجه في نهاية المطاف، من خلال نبأ وجيز في (دراسة امرأة) أحيانا وعن طريق إقحامات سريعة أحيانا أخرى في الحظر وفي أسرار الأميرة دي كادينيان، وفي نائب دارسيس. وتتكامل سيرة حياته ولكن رويدا رويدا، فالزمن يجري ونرى تأثيره ولكن بدلا من أن يترجم بلزاك ذلك إلى فصول، فإنه يقدم ذلك الزمن في «مساحات بيضاء» تفصل بين حالات ظهور الشخصية. فعندما يقول بلزاك لنا في ابنة الخالة بيت إن مدام هولو منشغلة بعمل خيري ترأسه مدام يوبينو، ومدام راستينياك، ومدام ديسبار فإن الأمر يبدو وكأنه جملة غير مهمة. ولكن إذا كنا قد قرأنا الروايات التي تتعرض لتلك النسوة الثلاثة لوجدنا أمامنا ثلاث سير تتكامل بواسطة بضع كلمات (...) فالزمن ماثل هنا، وهذا ما يحققه. وهكذا، لدينا من خلال سطر واحد التجسيد المسبق لذلك الفصل الذي قدم لنا فيه بروست كل شخصياته وقد طعنت في السن.

تتعدى أبعاد الكوميديا الإنسانية حدود التصور. إنها خمسة وثمانون مؤلفا أنجزت وحوالي خمسين رواية تم التخطيط لها أو لم تتعد مرحلة المشروع. ومع ذلك فهي ما كانت ستشكل عالما متكاملا لولا الأسلوب الذي ابتكره بلزاك. وقد حدث التحول أثناء كتابته الأب جوريو. فقد روت أخته لور إنه هبط عليها فجأة ذات يوم في ضاحية بواسونيير، وقال لنا وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة فرحة: «ابشروا، لأني سأصبح بكل بساطة عبقريا» كانت فكرته الخارقة للمألوف تعتمد على التعامل في رواياته مع مئات الشخصيات (573 شخصية بالضبط) بإشراكها في أكثر من مؤلف، كما يحدث ذلك فعلا في الحياة. وكان ذلك نقطة انطلاق الدراسة التي حققها فيليسيان مارسو. وهو يستكشف بعد ذلك قارة روائية ويبحر في كل من نهر السين واللوار والشير، ويدرس عادات الأهالي ويرسم اخريطة لطموحاتهم ونقائصهم، وقد خصص لكل طراز مهم من البشر، وكل موضوع شائع فصلا رائعا. ومن بين الأمثلة العديدة في هذا الصدد، قناعات أونوريه السياسية الموجزة في قوله «الجنس البشري لا يقع اجتماعيا بين الخير والشر،و لكن بين الشر وأسوأ الشرور». وقد أضاف علاوة على ذلك قائمة مفهرسة تضم جميع شخصيات روايات بلزاك. وتثير تلك الدراسة المتقنة، والتي لا مثيل لها منذ 1970، تثير لدى المرء الرغبة العارمة في الالتقاء من جديد مع أوجيني جرانديه، وأنطوانيت دي لانجليه وكورالي الجميلة...

FÉLICIEN MARCEAU
balzac et son monde
TEL gallimard

ديديه سنجال

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مدرسة الروبنسونات

(أو كيف تحصل على جزيرة لك وحدك؟)

يرتبط اسم روبنسون كروزو فور ذكره باسم مؤلف الرواية دانيال ديفو. ولكن روبنسون مضى مع ذلك أبعد من رواية مؤسسة، وكان أحد أكثر النماذج خصوبة في تاريخ الأدب. فجول فيرن، وميشيل دي ريو، وتورنيه، وبينتشون، والأحدث منهم جميعاً أمبيرتو إيكو، هم بعض مبدعيه الكثيرين.

بقلم: باكو مارين

ترجمة: صالح علماني

يقول سيوران: «كينونة المرء هي في كونه محاصراً» ولكنه محاصر ممن؟ أمن المجتمع؟ أم من الأسرة؟ أم أنه محاصر من نفسه؟ وإذا كان محاصراً، فإلى أي مدى هو محاصر؟ وكم من الأشخاص، والواجبات، والقصور يلزم لكي يتوصل المرء إلى الإحساس باللهفة إلى نوع من الروبنسونية - ولا مفر من بروز هذه الكلمة منذ البداية - لكي يقطع علاقته بكل شيء ويعلن مثلما أعلن رامون غوميث دي لا سيرنا في صرخة ضجر عذبة عن «حلمه الفاتن بأن يكون روبنسون»؟

«فاتن هو الحلم بأن يكون المرء روبنسون كروزو!»، وهذا الحلم، مثلما التقطه رامون في كتابه الرعوي الشاعري «كلماتي السبع»، هو أحد الرغبات الأكثر حميمية التي تظهر بين حين وآخر في المخيلة المعاصرة. إنها الرغبة في التخلص من كل ما يحيط بنا وفرض سلطتنا على عالم نشيده بأنفسنا من أجلنا، في جزيرة مصنوعة على قياسنا. إنه حلم مغر يحول الفردية الذاتية إلى قيمة عليا تسمو فوق أي قيمة أخرى، ويجسد بأكثر الطرق الممكنة جذرية الرغبة القديمة في أن يكون الفرد أخيراً هو من يفرض نفسه على المجتمع وليس العكس. وهو بطريقة ما تحايل برجوازي على زمن الأساطير الطوباوية القائلة إنه يمكن لرجل مزود ببعض الأدوات المناسبة، وبالاستخدام الصائب للعقل قبل كل شيء، أن يعود للبدء من البداية.

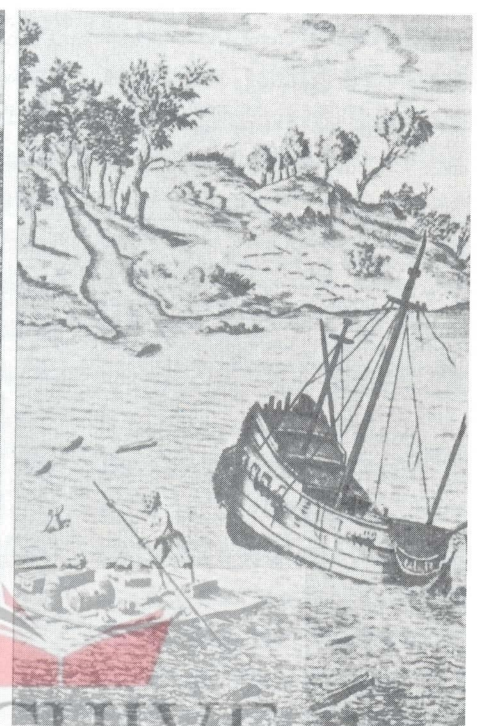
وهذا الذي نقوله عن البداية ليس مزاحاً بأي حال، فلو أخذنا فكرة الانعزال، فكرة الجزيرة

العنوان الأصلي للمقال:

Escuela de robinsones (O como conseguir una isla para UD.Sols) ونشر في مجلة Quimera الأسبانية عدد أكتوبر 1999

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com





إلى اليمين، رسم من طبيعة لروبنسون كروزو مطبوعة في لندن عام 1761م، وإلى اليسار رسم من الطبعة الأولى التي ظهرت عام 1917م.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المعزولة، بمعنى متساهل من التفهم، فلن نجد أقدم من جنة عدن الواقعة ما بين دجلة والفرات والتي ظهر فيها إلى الحياة آدم وحواء التوراتيان، وقد وضعا هناك - هو أولا، ثم هي بعد ذلك كما يقال - ليعيشا نعيم الاكتفاء الذاتي الكامل. وهو وضع، مع أنه ممتع ومريح، رأى كلاهما أنه لا يطاق وقاما بمبادرتهما ضده. وبهذا المعنى، فإن تدخل إرادتهما للسيطرة على ما يحيط بهما، تجعل من أبوي البشرية تجسيدا لنوع خاص من الروبنسونية. وبالفعل، فالروبنسونية هي مرادف للمجتمع، ولكنها مرادف للسيطرة كذلك، وهناك حيث يوجد ناج وحيد من الغرق فقط، لن يوجد بالضرورة روبنسون. ولكي يتمكن ذلك المتوحد من أن يكون روبنسون فإنه بحاجة إلى عنصر جوهري، ألا وهو امتلاك طبع جسور ومبادر وسلوك منظم.

ليس هناك في الدنيا في نظر روبنسون ما هو مثير للحفيظة ولا ما هو مناقض للنظام الحميد للأشياء من قوة تناسق الطبيعة وأسطورة المتوحش الطيب التي استعادها روسو (وقد نصح مع ذلك شخصيته إميليو بقراءة كتاب ديفو). فالطبيعة في نظر روبنسون، باعتباره رجلا حديثا ومتحضرا، هي خصبة وغنية ولكنها غير واعية، والمتوحش هو بدائي بائس لابد من معاملته كطفل قاصر، ولهذا السبب فإن أسطورة روبنسون هي أسطورة غربية في جوهرها، ومن هنا جاء انتشارها بنجاح كبير ابتداء من اللحظة التي كانت فيها أوروبا، وإنجلترا على وجه الخصوص، بفضل هيمنتها البحرية طوال قرنين، تفرض سيطرتها على الكوكب الأرضي وتحمل معها مسعاها التعليمي والتحويلي.

لقد كان آدم وحواء روبنسونيي ما قبل الأدب، ولكنهما لم يكونا كذلك عندما خلقا، وإنما عندما

حققا نفسيهما، أي عندما طردا من الفردوس وبدآ حياتهما الجديدة في جزيرة التاريخ الجديد. فإذا كان الزمن بالنسبة إليهما غير موجود من قبل، فإن الاستخدام المهووس فيما بعد للتسلسل التاريخي، والقياس، وتوزيع الزمن - المواسم الزراعية، فترات تكاثر الماشية، وأوقات الراحة - سيتحول إلى ملمح جوهري آخر للمعزولين الجدد. ومن الطبيعي أن يكون الحكم التوراتي القائل «وستكسب خبزك بعرق جبينك» هو الهدف المركزي الأقصى الذي يحكم حياة كروزو.

إذا نظرنا من خلال هذا الضوء إلى تلك الصرخة الشاعرية الرعوية الرومنطيقية وإلى اعتراض سيوران المستنفد على السواء، فإنهما لن يتفقا جيدا مع ما يبدو أنه صورة مجازية لمصير اتفاقي مع هامش ضئيل من المغامرة. ولحسن الحظ، ومثلما يحدث في لقى التخيل الكبرى، فإن روبنسون هو علبة مفاجآت يتسع المجال فيها لأنماط معايشة كثيرة تكون في الغالب متعارضة فيما بينها. ومع أن الكتاب البذرة الذي ألفه ديفو يمتلك كل المواصفات التي ذكرناها، إلا أنه يتضمن كذلك مواصفات أخرى كثيرة تعتبر مفاتيح تتيح لنا قراءته كواحد من أعظم كتب المغامرات التي كتبت على الإطلاق. لقد كان ديفو هو أول من جسد شيئا كان ينبض في الجو كحاجة ملحة يجب التعرف الحسي عليها، فارتفع كتابه «حياة روبنسون كروزو ومغامراته الغريبة مثلما كتبها بنفسه» بحلم الرحلات والعزلة إلى مرتبة النموذج الكوني.

يمكن لنا أن نجد، قبل كتاب ديفو، آثاراً لروبنسون في جميع الأعمال الأدبية الكبرى تقريباً. صحيح أن روبنسون ليس شيئاً يذكر دون جزيرته، ولكن الجزر متوافرة بكثرة في المثولوجيا الإغريقية وفيها تعيش كائنات معزولة ولدت هناك أو أنها، مثل آريان في ناكسوس *، تركت مهجورة لمصيرها على شاطئ ناء. والشيء نفسه يحدث في أوليسيس «الأوديسة»: وإذا كان كل تاريخ الأدب، كما يرى بورخيس، هو شرح وتعليق شديد التدقيق لعمل هوميروس هذا، فإنه سيتسع، خصوصاً في بعض اكتشافاته البحرية، لتلك الاكتشافات الآتية من أراضي منطقة الكاريبي التي غرق قبالتها روبنسون. ويمكن قول الشيء نفسه عن بعض المغامرات التي تضمها «ألف ليلة وليلة»، وخصوصا الحوادث المتعددة التي تدور حول مغامرات السندباد البحري.



روبنسون في رسم لباسيت، اواخر القرن الثامن عشر

ولكن ظهور أحد أجمل النماذج الروبنسونية جاء بعد وقت متأخر بعض الشيء. والإشارة هنا إلى «العاصفة»، العمل الدرامي الذي يجعل فيه شكسبير سفينة ملك نابولي تجنح في جزيرة

* آريان في الأسطورة الإغريقية هي ابنة مينوس ملك جزيرة كريت، ساعدت ثيسيوس على قتل المينوتو، وهربت معه، ولكنه هجرها وحيدة في جزيرة ناكوس.

يقطنها بروسبير، دوق ميلانو المنفي. الزمن الحقيقي الذي تدور فيه الأحداث الرائعة التي يرويها شكسبير لا تكاد تدور أكثر من ثلاث ساعات، ولكن المقدمة - والمدة الزمنية هي تفصيل جوهري آخر في شخصية روبنسون - تنطلق مما قبل ثلاث عشرة سنة إلى الوراء، عندما يهجر دوق ميلانو لموت محتم في سفينة خربة، ولا ينقذ ذلك السيد النبيل من نهم المياه القاتلة سوى حسن طالعه ومساعدة غونزالو الطيب.

السنوات الثلاث عشرة التي يعيشها بروسبير في الجزيرة بمرافقة ابنته (وهي الآن آنسة شابة) وابن الساحرة الفظ والعبقري آرييل، تكفي وتزيد من أجل أن يقيم السيد النبيل مملكة ثانية لا يميزها عن حياة روبنسون المنظمة سوى تفصيل واحد: فحيث يستخدم روبنسون البرجوازي العمل، يلجأ الدوق إلى استخدام السحر. إنهما يتفقان في نواح كثيرة، ولكنهما يختلفان في هذه النقطة: فشخصية شكسبير تعيش خارج التاريخ، بينما تعيش شخصية ديفو في خضم التاريخ. الأول يقيس الزمن في الجزيرة على أنه الهدنة التي تفصله عن الأخذ بالثأر والانتقام، أما الثاني فيحسب كيف سيتيح له الزمن أن يكون مالكا يدير ممتلكاته بحكمة، ومع ذلك فإن «العاصفة» هي السابقة الأكثر تركيبية وجمالا لموضوع كان ينتظر مجرد دفعة من الحياة الواقعية ليكتسب قوته وتتحدد صياغته. وجاءت تلك الدفعة الواقعية بصورة غير إرادية على يد ألكسندر سيلكيرك البحار الاسكتلندي الذي نجا من الغرق في عام 1705 في المحيط الهادي قبالة سواحل تشيلي، وعاش في عزلة كاملة طوال أربع سنوات وأربعة شهور، كسيد مطلق على أرخبيل خوان فيرنانديث. وقد أثار إنقاذه موجة حقيقية من التأثر والحماس في إنجلترا ذلك العصر، ذلك العالم الذي يتتبع بلهفة كل ما يأتيه من البحر - والبحر هو المرآة التي يحب سكان الجزيرة البريطانية رؤية أنفسهم من خلالها: فأخبار البحارة تطغى على أية أخبار أخرى، والقراصنة هم مصدر آلاف الخرافات البطولية -. وكان قبطان سفينة يدعى وودز روجرز هو من أنقذ سيلكيرك، وقد وجد ذلك الناجي من الغرق حسبما أشار في يوميات رحلته، في حالة مؤثرة ومحزنة يرثى لها: إذ كان البحار منهوكاً إلى أقصى حدود الإنهاك، وغير قادر على المحاكمة العقلية بصورة لائقة، وبدا من الصعب معرفة كيف تمكن من العيش طوال كل ذلك الوقت دون مساعدة. ولكن هذا التفصيل غير اللطيف لم يقلل من الحماس الذي أثاره العثور عليه وإنقاذه. وقد تحول سيلكيرك إلى بطل على الفور لمجرد أنه بقي على قيد الحياة، وبقي اسمه لشهور على الشفاه ينتقل من فم إلى فم في أرجاء إنجلترا، وبدا كما لو أن صعوده ذلك يحتاج سريعاً إلى شيء يتوج مأثرته بصورة نهائية وحاسمة. ولكن ما يمكن لذلك الشيء أن يكون؟ لا أحد يعرف، أو بعبارة أدق، هناك رجل واحد يعرف ما هو ذلك الشيء المطلوب: اسم الرجل دانيال ديفو، وحاسة شمه قالت له إن ما يحتاجه سيلكيرك بأقصى سرعة هو قصاص يروي قصته.

عندما أنهى في عام 1719 كتابة قصة «حياة روبنسون كروزو ومغامراته الغريبة مثلما كتبها بنفسه»، كان ديفو رجلاً يدنو من الستين من عمره، وكان جسده معتلاً من السياسة ومن الإخفاقات التي لقيها. فقبل أن يتم الكاتب الثلاثين من عمره كان قد أخفق ثلاث عشرة مرة في صفقات تجارية واعدة أخرى، فقد حاول المتاجرة بالبصل، والأقمشة، والآجر، والنقد الاجتماعي، ولكنه كان

يخفق دوماً. وعندما تعرض لعار التعذيب على المشهّرة (آلة خشبية للتعذيب تدخل فيها يدا المجرم ورأسه ابتغاء التشهير به) بسبب هجائية اجتماعية بعنوان «الإنجليزي الحقيقي» قرر أن الحل المناسب لحياته يمر من خلال عزلة الأدب، تلك الجزيرة التي تتسع لكل الناجين من الغرق، وقد خلف وراءه حوالي أربعمائة مؤلف تتناول موضوعات متنوعة، بدءاً من الباطنية وحتى الجغرافية والتاريخ، ومن الهجاء الاجتماعي حتى المناظرة الدينية. قائمة طويلة جداً ومتكاملة من الهواجس التي ضاعت في لجة النسيان مع انتصار روايته روبنسون.



لقد قاده ذلك الكدر التأملي والمثير للجدل إلى العمل كعميل سري للوزير «التوري»* روبيرت هارلي - فدافع عنه في صحيفته «ذي ريفيو» التي كان هو نفسه ناشرها ومحررها الوحيد، ومن أجل خدمته تخلى عن عضويته في «الهويغ»** ... قبل أن يقفز مرة أخرى إلى حزب هويغ لمجرد أن يعود ثانية إلى حزب توري -، ولم يغادر عمله لدى الوزير أبداً. ومثلما أشار إيتالو كالفينو في مقالة «روبنسون كروزو، يوميات الفضائل المركينتيلية»: «لا يمكن القول إن المنشأ شديد العملية لكتاب طرح كصفقة تجارية سيكون مشيناً لهذا الكتاب الذي اعتبر الكتاب المقدس الحقيقي للفضائل المركينتيلية والصناعية، وملحمة المبادرة الفردية».

كالفينو على حق، فديفو في نهاية المطاف، كان ممثلاً لذلك المزيج البرجوازي الخاص من القلق المتهور، والمثابرة العملية، إضافة إلى مسحة من الورنيش الروحي الذي يزين برجوازيي الرأسمالية الأولى.

كان لابد لروبنسون كروزو بالتالي من أن يمتلك عناصر منحدرة من هذه الدعائم الثلاث. وقد كان كذلك بالفعل: فقلقه المتهور هو الذي حمله على مغادرة البيت الأبوي، ويجعله يصم أذنيه عن كل النصائح، ليوغل في المغامرات البحرية التي تقوده أولا إلى الوقوع أسيراً في أفريقيا، وليصبح فيما بعد فلاحاً في البرازيل، ثم ليتحول أخيراً إلى ناج من الغرق بالقرب من مصب نهر أورينوكو. ولكنه الرجل العملي أيضاً، بطل البناء الذي يعرف كيف يبني ببعض الأدوات القليلة فردوساً صغيراً وخصباً يعيش فيه على أحسن حال طوال ثمانية عشر عاماً، وهو أخيراً الرجل المؤمن الذي ما إن تطأ قدماه أرض منفاه حتى يتطلع بعينيه إلى السماء ليقول: «هو، من أنقذني من الموت بأعجوبة، يمكنه أن ينقذني كذلك من الوضع الذي أنا فيه». ثم يبدأ فور ذلك العمل، بحيث إن العوامل الثلاثة التي تبدو شديدة الاختلاف في الظاهر تبدأ العمل معاً.

نجاح هذا المزيج كان فورياً، وتحول الكتاب إلى صفقة تجارية مضمونة أكثر من كل التجارات

* التوري Tory: عضو في حزب سياسي بريطاني معاد للإصلاح ومؤيد للملكية وهو الحزب الذي تحول فيما بعد إلى «حزب المحافظين»
** هويغ Whig: حزب سياسي يدعو إلى الإصلاح، صار يعرف فيما بعد باسم «حزب الأحرار»

التي اقترفها ديفو من قبل. فبالاستناد إلى تلك الأسطورة، عرض الكاتب رؤيته الجريئة للأعمال التجارية الآخذة بالازدهار، ولم يكن بإمكان النتائج أن تكون أكثر أبهة ودوياً. لقد كان اسم كروزو الذي اختاره تبسيطاً لاسم كروتزنير الذي هو في الواقع اسم زميل للكاتب في أيام دراسته، وقد منح ديفو بطله أصلاً ألمانياً، مثلما كان زميله ذاك. أما استبداله المحيط الهادي (حيث ضاع سيلكيرك) بالمحيط الأطلسي فلا يستجيب كما يبدو لأي خيار آخر سوى الرؤية العملية: فثقافة الهنود الكاريبيين الذين يسكنون شواطىء الأطلسي معروفة لدى ديفو، و «جمعة» هو واحد منهم.

ذلك الفتى المدعو «جمعة» هو البطل الثاني للقصة وأحد أكبر الإصابات الموفقة التي حققها ديفو. إذ لا يمكن وجود روبنسون دون «جمعة» مثلما لا يمكن وجود حضارة دون همجية، ولا وجود نظام متزمت دون فوضى، ولا ملابس دون عري، ولا قداس دون موسيقى. لقد حدد ديفو المتناقضات، فالتهمه الإنجليز بنهم، ومازال هناك مواطنون ضجرون حتى اليوم يحلمون بشخص صارم ومنهجي وإمبريالي، يرافقه على الدوام خادم زنجي وببغاء: فيلمحون من خلاله حرية آفاق طبيعية لم يستمتع هو نفسه بها مطلقاً، فقد كان روبنسون شخصاً شديد الجدية، ولكن أحداً لا يتذكر ذلك.

الصورة السائدة والمهيمنة لروبنسون والروبنسونية هي تلك التي تتبدى انطلاقاً من نجاحه الأول، والذي كان سهلاً بصورة هائلة. وقلة هم الذين يعرفون أن المجلد الأول وحده من المجلدين اللذين كرسهما له ديفو، هو المخصص لحياته كناج من الغرق، بينما تواصل قصته بعد ذلك رواية مغامراته التعيسة في أماكن شديدة التنوع، مثل مدغشقر أو سيبيريا، بما في ذلك بالطبع، إقامة ثانية في جزيرته، حيث يرجع إليها بعد أن يكون قد تمتع بحياة طبيعية، صحيح أنها حياة مريحة، ولكنها مملة، في إنجلترا. والحقيقة أنه لا أهمية كبيرة للنسيان والتجاهل، فالنموذج الذي صنعه ديفو لا يمكن عدم التعرف عليه، وهو ينفع كوعاء تسكب فيه أشد المضامين تنوعاً. فمع الحفاظ على أفكار العزلة والمفاهيم الغريبة والمغامرة، راحت الشوائب المركنتيلية والمتزمنة كما يبدو تتهاوى وتضيع في الطريق.

لقد برز في القرن التاسع عشر عدة روبنسونات يمثلون طفولة واضحة للموضوع، وليكن معلوما أن التعبير لا يتضمن طبيعة احتقارية. وإذا كان أولهم «أسرة روبنسون السويسرية»، العمل الوحيد للكاهن جوهان د. فيس يتنفس هواء أسرياً مملاً وبليداً، فإن الأمر يختلف مع تلك النماذج التي خرجت من ريشة جولن فيرن، أو في الغمزات الخفية التي يوجهها إدغار ألن بو إلى الموضوع في كتابه القاتم وذي الأجواء القبورية أحيانا «مغامرات آرثر غوردن بيم».

كثيرة هي أعمال جول فيرن المكرسة للروبنسونية، ولكن أكثرها وضوحاً في هذا المجال هو دون شك كتابه الممتع «مدرسة الروبنسونات»، ولكنه يبلغ في مغامراته إحدى أعلى قممه في رواية «الجزيرة الغامضة». ففي هذه الرواية تشكل مأثرة جماعة الهاربين من معسكر اعتقال جنوبي خلال الحرب الأهلية الأمريكية، ومنطادهم (وسيلة نقل تتفق تماماً مع روح العصر، وتتفوق بالسرعة والخفة على سفينة روبنسون كروزو الثقيلة التي تزن مائة وعشرين طنا) الذي تدفعه الرياح إلى جزيرة تمنح الرواية اسمها، يشكلان حبكة حيوية وإيجابية تكتسب إيقاعا بارعاً. ويضع

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com

الناجون من الغرق أنفسهم تحت وصاية شخصية عبقرية خفية (القبطان نيمو) هي من أعظم أبطال فيرن، وبقيادة بروفسور من أولئك الذين يستهوون كاتب نانت، يشيدون فردوساً مستوحى من التقدم العلمي.

تمثل «الجزيرة الغامضة» تحولا في معالجة الروبنسونية التي ترسخت بقوة في المخيلة الشعبية، فهي ليست نصاً منهجياً، مثلما هو نص ديفو في مواقع كثيرة، بل نص فعل وحركة. وهو يتغذى على رشاقة نثر سلس وتلهف جمهور يلتهم أعمال الكاتب. وهنا، مثلما يحدث لدى فيس، يختفي «جمعة»: إذ لا حاجة إلى أي وطني في عمل تخيلي يبدو في الظاهر وكأنه ينظر إلى الخارج، بينما لا ينظر في العمق إلا إلى نفسه. فموضوع فيرن هو المغامرة مطروحة كحبكة وكسر غامض، وأسلحته هي أسلحة عالم يصاب بالدهشة حيال العلم باعتباره أكثر الألعاب سحرية. وتوصيفات فيرن الجغرافية والحيوانية والنباتية تتمم إلى حد الكمال عبقريته التقنية المركبة لتستحوذ على روح القارىء.

أهي سطحية؟ قد تكون كذلك، ولكنها سطحية تحترم على الدوام الجوهر الخصب لروبنسون الأول وتعزز سحره دون أن تخرق الحلم بالعزلة الكاملة لما يكاد يكون ملاذاً تمثالياً لا تنقصه سوى النساء.

لابد من الوصول إلى مرحلة متقدمة من القرن العشرين لكي نجد روبنسونات مختلفين، وأكثر إشكالية باطراد، مع أن هذا الذي قلناه عن الإشكالية يمكن له أن يقرأ قراءات متعددة. فهناك على سبيل المثال كتاب الصحفي الفرنسي ميشيل غال الذي يحمل عنوانا يوحي بمضمونه تماماً «الحياة الجنسية لروبنسون كروزو». ومثلما هو الحال لدى ديفو، فقد كان همّ غال من فكرة كتابه هو كسب المال وحسب، وأن يحقق ذلك بأسرع وقت ممكن: فالمؤلف لم يستطع أن يدفع مقدماً سوى أجر ثلاثة أسابيع لوكالة تؤجر آلات كاتبة، وخلال ذلك الوقت أنهى كتابة الرواية. والمؤسف أن الرقابة قوضت آماله، ورأى كيف أن حكومة ديغول المحافظة عارضت نشر كتابه ثلاث مرات. وأخيرا ظهر العمل في الولايات المتحدة باسم مستعار، وبعد ثلاثين سنة من ذلك فقط، أي في عام 1985، تمكن من طباعة الكتاب في فرنسا. هذه الصيغة الفاحشة لروبنسون التي كتبت بخفة ظل كبيرة إنما دون براعة حرفية، تطلق شحنة متدفقة من الممارسات الشهوانية التي لم يعرفها أبطال عصر ديفو المتزمت، ولا يفلت من نهمها حتى الببغاء نفسه.

وقد جاءت أكثر منها دسما، وإن لم تكن أكثر ظرفا وسخرية، رواية وليم غولدنغ «سيد الذباب» فهي لفة أخرى في صامولة الروبنسونية وفي رواية المغامرات بصورة عامة. وعلى الرغم من أنه ليس لها كل ذلك الثقل الذي ينسب إليها عادة، إلا أن قصة حامل جائزة نوبل الإنجليزي في عرضها للتحولات التي تطرأ على جماعة فتيان هجروا في جزيرة، تقدم تنويعات جوهرية بالنسبة لما سبقها. فكي يثبت أنه يمكن للعزلة أن تولد المغامرة، ولكنها لا تولد الفضيلة بالضرورة، يقلب غولدنغ علاقة السلطة التي هي مركزية في الروبنسونية رأسا على عقب. فالثنائية القديمة التي تضع الجزيرة في مواجهة الفرد تتحول الآن إلى صراع بين الفتيان المهجورين أنفهسم، وتفرض قوانين الطبيعة نفسها على البشر بدل أن يفرضوا إرادتهم عليها. فليس هناك تعاون ولا عبقرية ولا علم، وإنما يتحول كل شيء إلى تحامل عدائي ومراتبية فظة. جزيرة غولدنغ ليست وليدة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



عانى ديفوسن محن قاسية، مثل تقيده إلى المشهرة رسم ساخر ظهر في «الهويغ ميدلي» سنة 1711

العقل،وإنما هي تنبجس من كوابيس كاتب لا ثقة لديه بالمواقف القصوى.

كما أن غولدنغ يعفي روبنسون من شرط التقدم في السن وينتزع من الموضوع كل بريق براءته. فالعزلة بعد غولدنغ لم تعد مشكلة تقنية، بل تحولت إلى سؤال عن الهوية نفسها وعن الأساس المزعزع الذي تستند إليه تلك الهوية. وبغياب تلك الضمانة الغربية التي تغذي روح الإمبريالي الطيب، يختفي كذلك الهم الواقعي. فمعظم روبنسونات هذا الشطر الأخير من القرن هم أبطال ارتيابيون يتقبلون شرعة ديفو لكي يتجاوزوه ويعيدوا تفسيره وفق رؤيتهم.

وبفضل هذه الرؤية النقدية الجديدة يعود إلى الظهور على الحلبة، مع كل التشريفات، الوطني الهمجي «جمعة» كرمز لرؤية تعترف بها المركزية الأوروبية بعيوبها وتسوط أفكارها بندم حقيقي. هؤلاء هم الآن روبنسونات التعددية الثقافية.

وأكثر هذه الكتب تمثيلا للتيار المشار إليه هو «جمعة، أو أطراف الباسفيكي» للفرنسي ميشيل تورنيه. فالمؤلف يتوغل في أعماق بطل ديفو لكي يصلحه ويزوده بجرعة خيال قديمة ومفاجئة.

فهو يستعيد جغرافية وعصر الغريق الأصلي، ذلك المدعو سيلكيرك المنسي والمسحوق تحت وطأة ممارسات بديله المتخيل المهووسة، ويجعل تورنيه روبنسون يغرق في المحيط الهادي، على بعد 160ميلا عن شواطىء تشيلي، ويجبره على أن يعيش ارتقاء يتمثل في مناظرة فكرية لا تكاد تكون مخفية.

وحضور «جمعة» في كتاب تورنيه هو حضور محرر، يحول ما هو أرضي إلى واقع ملموس، ويسهل على سيده التوغل في الانسجام مع مكان بعيد جدا عن طباع الإنجليزي البارد. فالحياة بالنسبة إلى «جمعة» هي اندفاع جنسي وسحر بأكثر معاني السحر بدائية، وبعد تبدل متتال لدوري السيد والتابع، يكون الهمجي هو الذي يبحر إلى إنجلترا في السفينة وايتبيرد، بينما يبقى روبنسون في الجزيرة مع رفيق جديد هو صبي نوتي من السفينة، يطلق عليه بكل بساطة وبمدلول استرجاعي طيب اسم «خميس».

وأحدث من النماذج السابقة كلها هناك الشخصية التي خرج بها ميشيل ريو في روايته «أليسيوس»، حيث البطل هو بائع موسوعات ثنائية اللغة غريب الأطوار، وبعيد جدا عن أبي هذه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

السلالة كبعد اليخت الذي يقوده عن السفينة فيرجينيا الثقيلة. وريو الذي كان قد استعاد بقوة في روايته «ميرلين» تناول شخصية أخرى من شخصيات الأدب الأسطورية الكبرى، يدخل إلى موضوع الروبنسونية بطريقة مواربة ولكنها موحية، مقدما ناجياً من الغرق في عقد السبعينيات يتحرك في مجال الأحلام والمستحيل، جغرافيته هي المحيط الهندي، أما تابعه «جمعة» فيتحول إلى فتاة وطنية لها عينان زرقاوان، ويتجاهل نزوة التقويم اليومي في اختيار الاسم ليعمدها باسم «سوزانا». وعندما يغادر البطل الجزيرة، تكون تركته التي يخلفها هناك هي نسخة من الموسوعة يتركها لفضول الضحايا التاليين الذين سيقودهم مصيرهم إلى ذلك الشاطئ الصخري. ولكن ريو يخطىء مع ذلك حيث أصاب تورنيه: فحين يحول روبنسون إلى فكرة نظرية وليس شخصية حقيقية، تبقى المغامرة مستبعدة في أرض لن يصل إليها مطلقا، وهو ما يحدث بصورة أشد حزنا لبطل رواية أمبيرتو إيكو «جزيرة اليوم السابق».

ولكن العمل الأكثر مجازفة وثراء هو رواية «فو» للجنوب أفريقي ج.م. كويتسي، الذي يقدم تنويعا جديدا للشخصية. فكويتسي ينتزع البطولة من روبنسون لمصلحة المدعوة سوزانا بارتون، وهي ناجية من الغرق مثله، ترى طوال سنة بعد التقاطها عن الشاطئ، كيف أن ذلك المتزمت وخادمه «جمعة» يكرسان كل جهودهما في عملية بناء غير مجدية. ثم ترى سوزانا بعد ذلك روبنسون وهو يموت في رحلة العودة إلى وطنه، بل إنها تشفق عليه وتقدم له لحظات من الحب وهو يحتضر. ولكن المغامرة الحقيقية تبدأ منذ تلك اللحظة، فما أن تصل الفتاة إلى إنجلترا حتى تكرس كل جهدها للبحث عن الكاتب فو (أوديفو) على أمل أن ترى قصتها مكتوبة... قصتها الحقيقية. وعند هذه النقطة تصبح رواية كويتسي موحية وإشكالية. فما هو الأكثر واقعية؟ هل هو ما تقول سوزانا إنه جرى لها أم ما يقرر فو كتابته؟ وبعبارة أخرى: هل سيلكيرك أكثر واقعية من روبنسون؟ ويشهد «جمعة» صامتا تلك المناظرة حيث تسعى المجازات الأدبية إلى تقبل رؤية أنثوية لشخصية بقيت حكرا على الذكور.

بالنسبة لمؤلفي كل هذه الأعمال - أي روايات تورنيه، وريو، وكويتسي - لم تعد براءة روبنسون القرن الثامن عشر البناءة ممكنة، وأقل منها الشغف بالمغامرة لدى روبنسون القرن التاسع عشر، فقد انتهى المطاف بالشخصية لتجد نفسها في مواجهة مع ذاتها ولم يبق لها سوى إمكانية المداراة أو الهرب من مصيرها. فهل هناك مجال للمضي إلى ما هو أبعد من ذلك؟ ونقول بكل تصميم: «أجل»، فالإنسان المحكوم بالعزلة تحول، مع مرور الزمن، إلى إنسان يتلهف إلى العزلة، وترتبط كل واحدة من الرؤيتين بالأخرى مثل ارتباط وجهي قطعة العملة: ويواجه سيوران ورامون الواقع باعتباره مبادرة ثقافية فكرية وحلما مغريا يمكن له أن يولد كل الاحتمالات، بما في ذلك أكثرها غرابة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد تكون الغرابة شديدة جدا، مثلما هي على سبيل المثال في صفحات توماس بينتشون القاسية في كتابه ما بد الحداثي المعنون (V)، حيث الشخصية العابرة (الأب فايرنغ)، هو ناج من الغرق في المدينة، ولعدم وجود بحار يمكنه الإبحار فيها، فقد وجد أرخبيله في مجاري مدينة نيويورك. أما تابعه «جمعة» فهو فأرة تدعى فيرونيكا، وفي مواجهته الخاصة ما بين الحضارة والبربرية، لا يبدو واضحاً أي شياطين هي التي تلتهم الأخرى. إلى جانب هذا الوصول إلى الحدود القصوى للنوع الخيالي، نجد الواقعية المشوهة في رواية ج. جي بالارد الرائعة «جزيرة الإسمنت»، حيث يتوجب على رجل من ضحايا حوادث المرور - وهو أحد الموضوعات الأثيرة لدى الكاتب البريطاني - أن يعيد بناء حياته في حيز مغلق ترسم حدوده عقدة طرق تعج بحركة مرور كثيفة. وتتلخص سخرية

بالارد القاسية في تناوله إداريا تنفيذيا متأنقا عائدا إلى بيته بعد أن أمضى بعض الوقت مع عشيقته، وإجباره على اللجوء إلى أسلحة روبنسون بينما هو مشلول حيال دوار حركة المرور المحيطة به، والتي لم يعد يشكل جزءا منها بصورة مفاجئة. بل إنه يجد كذلك «جمعة» خاصا به ليرافقه! ولحسن الحظ أن تلاميذ مدرسة الروبنسونات المكتظة ليسوا جميعهم من المتهكمين أو الجافين أو القساة، إذ تظهر بين حين وآخر نصوص تحاول العودة إلى الفكرة الأصلية للناجي من الغرق كمأساة، وتروي قصة الدافع الحيوي للبقاء على قيد الحياة الذي نجده في حالات مشابهة لحالة ذلك البحار الاسكتلندي سيلكيرك. والمثال الجيد على ذلك هو كتاب غوستاف راث «غريق ستيفانو» وفيه يروي مغامرات جماعة من البحارة الكرواتيين الذين تاهوا في الساحل الغربي لأستراليا. ويعمد راث باعتباره حفيد أحد الناجين من المأساة، إلى استذكار تفصيلي لروح باحث ومغامر من القرن التاسع عشر، ليشيد مغامرة لطيفة ومطابقة للواقع.

أضف إلى ذلك أن راث يمتاز بمعرفة المزاوجة ما بين النظرة الناضجة للموضوع وإرادة قصصية خالية من الشحنة الإشكالية أو الإغوائية، مما يجعل عمله للمرة الأولى منذ زمن بعيد في متناول أي نوع من الجمهور. وهذا غير قليل. وأحد النماذج الروبنسونية القليلة في الأدب الأسباني نجده في «سنة النعمة» للبرشلونية كريسينا فيرنانديث كوباس، وكان يمكن للعمل أن يبدو أفضل بكثير لو لم يكن بطلها مقيدا إلى الحداثة. على الرغم من تميز عملها بالتلميح إلى رؤية بيئية لا بد أن المستقبل سيأتينا بنماذج أخرى منها. وهناك في الخط التشاؤمي على سبيل المثال، رواية «الجدار» للاسترالية مارلين هاشوفير، حيث تبقى امرأة معزولة في واد بين الجبال بعد انفجار ذري مزعوم: أم أنه لا يمكن لروبنسون أن يكون من ساكني الجبال كذلك؟

ومثلما يبدو بوضوح، فإن الدعائم الأساسية التي استندت إليها الروبنسونية الأدبية منذ مائة وثمانين سنة تعرضت لكل أشكال التحوير عى امتداد هذا التاريخ، وإن بقي مجمل تلك الأعمال يدور حول تفسيرات تقترب إلى هذا الحد أو ذاك من النموذج الذي صاغه ديفو. ووسط كل هذه الأعمال، حطت رواية أمبيرتو إيكو المطولة «جزيرة اليوم السابق» بشيء من اليأس والخمود على ضفاف الأسطورة، واحتلت على الفور ركنا ضئيلا جدا في الرواق البديع المخصص للمعزولين الذين أرادت مزاحمتهم. وللمرة الثالثة على التوالي (البعض يرون أنها المرة الثانية فقط) أثبت الباحث وكاتب الدراسات اللامع أنه ليس روائيا، وبطله روبيرتو دي لاغريف، «الكائن الوحيد من جنسنا الذي غرق في سفينة مقفرة»، يتحرك مترددا ما بين الخيارات المتتالية التي يقترحها عليه مبدعه، وفي مواجهته تنتصب الجزيرة كصيغة لمغامرة لن يشعر بأنه مهيأ لخوضها مطلقا.

وعلى الرغم من ذلك، ومن بين حواشيها الكثيرة، توحي رواية إيكو بفكرة تمثل في الحقيقة تقدما على مختلف الأشكال الروبنسونية السابقة. وتتركز هذه اللقية في التلميح إلى أن الأدب بحد ذاته هو شكل من النجاة من الغرق غير الظاهري، وإنما الواقعي؛ فهو أسلوب في الحياة يشيد عوالم بالإصرار نفسه الذي يبديه روبنسون ديفو في تنظيم المحاصيل وتجريب زراعات جديدة. وبهذا المعنى يمكن القول إن «جزيرة اليوم السابق» ترتقي درجة إضافية على طريق التحرر النهائي للشخصية: فللمرة الأولى يكون روبنسون مبدع قصص... كاتبا! وربما كان الأجدى له أن ينزل من سفينته على أرض قارية، وبما أن الأمر لم يكن كذلك، فلا بد لنا من أن نعترف له بأصالة جهده. ففي هذه القائمة الطويلة من الناجين من الغرق المتحولين إلى هاربين، كان هو من وجد جزيرة لك وحدك.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فيما وراء الأزرق

فن ماكسفيلد باريش

بقلم: بروس واطسن

ترجمة: راوية صادق

أستاذ الخيالات الذي سحر الملايين برؤيته الخاصة عن الفردوس

في وقت متأخر من بعد ظهيرة يوم شتوي يكسوه الجليد، يظهر أزرق غامض فوق جبل أسكوتني، ليسحر وادي نهر «كونكتيت» في فيرمونت. أزرق أعمق من أي محيط، وأكثر أثيرية من أية سحابة، موحيا بفجر كاذب لا ينتهي، كأنه نافذة تفضي إلى أركاديا* منعزلة في ما وراء الأفق. هذا اللون الكوبالتي، الذي كثيرا ما جذب الانتباه رغم هذا إلى لوحات الفنان، نادرا ما نراه في المتاحف. فقد ظلت هذه المستنسخات - بدلا من ذلك ولأكثر من ثمانين عاما - تزين المطبوعات والتقاويم السنوية، وتوضع - على نحو خاص - في حجرات المعيشة، وحجرات وعنابر نوم المدارس الثانوية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

«آه، إنهم يعلقون ماكسفيلد باريش في القرية»، مثلما تقول أنشودة غنائية شاعت في الحرم الجامعي خلال العشرينيات. ففي المستنسخات المعلقة على حوائط عنابر النوم في أمريكا، نجد هذا «الأزرق الخاص» يصنع إطارا لنساء وحيدات جالسات على الصخر، ويرتدين ثيابا شفافة ذات ثنيات. كان ماكسفيلد باريش، خلال الحربين العالميتين، رمبرانت رجل الشارع العادي، فوجود مستنسخ لأحد أعماله في واجهة السوبر ماركت، كفيل بجذب إعجاب العامة. كانت الفنادق، تعلق مستنسخات مشاهده الحالمة في ردهاتها، وربات البيوت يشاهدن تقاويمه السنوية طوال العام، ثم يقطعن التواريخ ويضعن الصورة في إطار. ففي عالم السرعة، حيث السماوات رمادية للغاية في

العنوان الأصلي للمقال:

Beyond The Blue ونشر في مجلة Smithsonian عدد يوليو 1999.

* منطقة جبلية في بلاد اليونان، اشتهرت بالرعاة البسطاء القانعين بما قسم لهم.

أغلب الأحيان، والحدائق ليست أكبر من ساحة خلفية في بروكلين، تمتلئ لوحات باريش بالأحلام التي صنعها من عالم السرعة هذا. كانت علاماته التجارية الحدائق الفخمة، والنساء المنتشيات و«أزرق باريش» الشهير. ففي أي فردوس، ينبغي للون السماوات - بالتأكيد - أن يكون جديرا بالاسم. وقد أدان النقاد، وهو في قمة حياته العملية، «اندفاعاته العاطفية»، لكن مستنسخات باريش موجودة في منزل من كل أربعة منازل أمريكية.

وبعد وفاته بجيل، ظل ماكسفيلد باريش واحدا من أشهر الفنانين المعروفين. ورغم أن مدينته الفاضة لا تزال تزين التقاويم السنوية والملصقات، فإن عددا قليلا من الناس رأى لوحاته بشكل مباشر. والآن تقدم أكاديمية بنسلفانيا للفنون الجميلة - أخيرا - معرضا استعاديا مهما لباريش: «تجاوز الأزرق»، الذي يستعرض مائة وسبعين عملا لباريش أنجزها خلال حياة عملية استمرت ثمانية وستين عاما. والمشاهدون الذين يعرفونه فقط من خلال لوحته «فتيات على الصخر»، سيذهلهم الخيال والمهارة الفائقة، وستبهجهم تصميماته. ويتضمن المعرض صوره التوضيحية الساحرة للأطفال وأغلفة المجلات، وجدارياته الطموحة، ونماذج آلات قطع وتشكيل المعادن، ولوحاته الوحيدة عن المناظر الطبيعية، التي رسمها خلال التسعينيات من عمره. وبعد معرض فيلادلفيا في 25 سبتمبر «سينتقل» ماكسفيلد باريش: 1870- 1966» إلى جاليري «كوريير» في مانشيستير، ومتحف بروكلين للفن في نيويورك.

وعندما توفي عام 1966في سن الخامسة والتسعين، كان باريش «في الداخل» مرة أخرى. واعتبره النقاد رائدا لفن البوب. وكان آندي وارهول، نبي فن البوب، يجمع أعماله. ومثلما يتذكر أي شخص ذهب إلى المدرسة الثانوية، كانوا يعيدون وضع لوحات ماكسفيلد باريش في عنابر النوم. إن لوحاته الأصلية تباع اليوم بمبلغ يتكون من ستة أرقام، وقد أصبح «أزرق باريش» أكلاشيها ثقافيا. ومع ذلك، ظل باريش - مثل لوحاته الراقدة الورنيش، وطبقة رقيقة زجاجية (جليز) - مختبئا تحت قشرة من الخشب الثمين. فقط بنزع لحاء شجرة إحساسه الحاد بالعزلة، سنجد الفنان الذي تدعونا أعماله إلى جنته الشخصية.

إنك لا تنظر إلى عمل لماكسفيلد باريش، إنما تتفحصه، وتشعر به يومي إليك بالدخول لكن، بينما تقول لك لوحاته: «ادخل»، تعلن حياته: «ممنوع الدخول». «لا توجد أية حكاية هنا، مثلما قال لبعض الناشرين الذين طلبوا الحديث معه، فكثيرون تعجلوا الوصول إلى النتائج. فهل لأنني رسمت لوحات من نوع معين ينبغي أن يكون هناك - حتما - شيء مثير للاهتمام عن الفنان: لابد أنه يعيش فوق شجرة ويأكل البندق والتوت، أو أي شيء...». وقد يوصف باريش نفسه بـ «علامة شائعة ميؤوس منها»، وحياته العملية تكذب كل الأساطير الخاصة عن الفنانين. ولا تتضمن حكايته أي مساع مؤلمة، ولا كفاحات لقبوله. لقد جعل كل شيء يبدو سهلا. وهو موهوب منذ طفولته، كلف باريش تنفيذ بعض الأعمال حتى قبل أن ينهي دراسته في معهد الفنون الجميلة. وبين عامي 1895و 1961، وعندما أجبرته يداه المرتعدتان على التوقف عن التصوير، لم يكن في حاجة إلى السوق. ورغم هذا، فإن النجاح الذي جعله مشغولا دائما، أوقع أيضا موهبته في الفخ واستنزف حماسه الصبياني.

والسحر جزء من النسب بين أفراد عائلة باريش، التي تنتمي إلى طائفة «كويكر» المسيحية القديمة (الأصدقاء) في فيلادلفيا. ففي عام 1870، شكا والدا باريش إلى أصدقائهما ابنهما البالغ من العمر ثلاثة أيام. فالمشكلة الرئيسية الآن - بالضبط - هي أنه «لن يعمل ليكسب قوته». فستيفان باريش، الذي نشأ على تحريم الـ «كويكر» للتماثيل، أخفى موهبته بممارسة الرسم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التخطيطي في غرفة تحت السطح. ولأنه عزم على ألا يعاني ابنه مثله، منحه كراسة للرسوم التخطيطية، ملصق عليها عبارة «فريد باريش - عيد الميلاد عام 1873». وملأ الأب خمسين صفحة برسومات لمخلوقات قزمية أبهجت الابن، الذي سرعان ما أخذ يصنع خيالاته. لكن الرسومات البسيطة لم تعد تكفي فريد، الذي سيأخذ فيما بعد اسم عائلة جدة زوجته، باعتباره اسمه الأوسط، ثم الأول فيما بعد. وقد انتمت والدته، إليزابيث، إلى عائلة من عمال الورش، فأثرت في ابنها وحولته إلى مزيج من الفنان والحرفي. كان باريش في طفولته يرسم بكثرة صوراً للتنين، ثم يقصها ويلصقها كأنها صورة. ثم أخذ يمضي - وهو مراهق - أكبر قدر ممكن من الوقت في ورشته للإنشاءات الميكانيكية، يبني نماذج معقدة التركيب للمنازل، مخازن الغلال والقلاع، والأعمدة، ثم يستولي عليها في لوحاته. وكثيرا ما استخف باريش بنفسه باعتباره «رجل أعمال بفرشاة». لكن أدق وصف له عن وظيفته أنه كان «عاملا ميكانيكيا يرسم لوحات».

وعندما كان باريش في السابعة، لعب والده دور الموديل النموذجي للفنان. إن باريش الشيخ، الذي عاش في محله لبيع الأدوات المكتبية، كرس كل وقته للفن. وسرعان ما عرضت لوحاته وأعماله في الحفر في الخارج. وانطلق الأب وابنه يلعبان في ميادين الفن، فأمضيا عامين في أوروبا، يزوران العديد من متاحفها، وجاب الأب والابن شاطئ «نيو إنجلند»، يرسمان اللوحات معا. وفي عام 1888، التحق ماكسفيلد باريش هافير فورد في بنسلفانيا، قاصدا دراسة العمارة. ورغم هذا، كشف عن حقيقته دفتر ملاحظاته في الكيمياء، فقد امتلأ بنماذج لمهرجين رسموا بلا هدف بجوار المعادلات. إن كيمياء باريش الفنية - جزء خيال، وجزء مقدرة عقلية - قادته إلى أكاديمية بنسلفانيا للفنون الجميلة. هناك رحبوا به باعتباره «واحدا من أكثر المصورين الزخرفيين تألقا وإيحاء في البلاد». كان - فجأة - في الخامسة والعشرين.

وأضاف باريش إلى إحساسه الناضج بالتصميم إحساسا طفوليا باللعب. وخلال تنفيذه للوحة نادي جامعة بنسلفانيا، وهي أول مهمة كلف بها، كتب إلى والده قائلا: «ثمة - في بعض الفترات - بهجة وحشية برية تتبع من كل أنواع الأحاسيس، من كل ما هو ممكن في الفن، وبداخلي وفي كل شيء». «وسرعان ما عرضت تصميمات باريش للموضوع في نيويورك، حيث طلب محرر «هاربرز» منه أن يصمم غلافا له». وفي عام 1895، ظهر عدد من مجلة «إيستير» - «هاربرز بازار» - وقد زينته امرأتان مصممتان بأناقة، تحملان زهور الزنبق، ليقدم إلى الأمة الرجل الذي سيسود عالم فن الرسومات التوضيحية في عصره الذهبي. واليوم يتحفز النقاد إلى تمييز نمطين من الموهبة الفنية. هناك «الفنانون»، الذين يتبعون إلهامهم الخاص، وهناك «رسامو الصور التوضيحية»، الذين يزودون الصور والمجلات بالصور. لكن بين سبعينيات القرن الماضي، والعقد الأول من هذا القرن، ولأن المجلات كانت تزدهر بالأخبار، بدأ كثير ممن ستوضع لوحاتهم في المتاحف، كرسامين للصور التوضيحية. فقد رسم وينسلو هومير لـ «هاربيرز ويكلي». واستخدمت الصحف ويليام جليكينز وجون سلو وان، اللذين أسسا - فيما بعد - مدرسة «أشكان» والقلة المختارة كانت ترسم كتب الأطفال، ومن بينها هوارد بيل، إن. سي. ويت وباريش.

وإذا كان الرسم التوضيحي هو مهنة باريش، فإن عمله الثانوي كان إبقاء العالم بعيدا عنه. وحتى عندما تزوج ليديا أوستين عام 1895- وهي فنانة وزميلة له - غادر البلاد وحده إلى أوروبا. وفي شهر العسل المنفرد، كتب إلى من تزوجها حديثا خطابات مطولة عن لوحات تيتيان وبوتيتشيللي العظيمة. وبعد شهرين في الخارج، عاد إلى فيلادلفيا وبدأ يقبل أي عمل يستطيع الحصول عليه. فأخرج أغلفة قائمة الطعام للمطاعم، ومزيدا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من الأغلفة لـ «هاربيرز» وإعلانات لمنتجات مثل بودرة الخميرة والعجل، ولمحلات «وانا ميكيرز» الكبرى. وسواء رسم إعلانا عن صابون «كاشمير بوكيه» أو فارسا «عدم تراجعه» يقتل الاعتياد على الدخان»، كان مرحه يظهر على السطح. رجل قصير القامة، غريب الأطوار، عيناه زرقاوان طبعا وحادتان، مع كومة من الشعر الهائج، كان باريش ساحرا على نحو شخصي، مثلما في مستنسخاته ومبعث غبطة للجيران والأطفال بتعليقاته الساخرة وسرعة خاطره. وقد ظل في صحة جيدة خلال الثمانينيات من عمره، وحافظ على تألق روحه. وعندما علم أن خطاباته القديمة تم بيعها، كتب قائلا: «أجرؤ على القول إنهم اعتقدوا أنني توفيت، ربما هم على حق، وعلي أن أدرس الأمر». وتحفل رسومه التوضيحية لكتب الأطفال بنفس مزاجه الشقي.

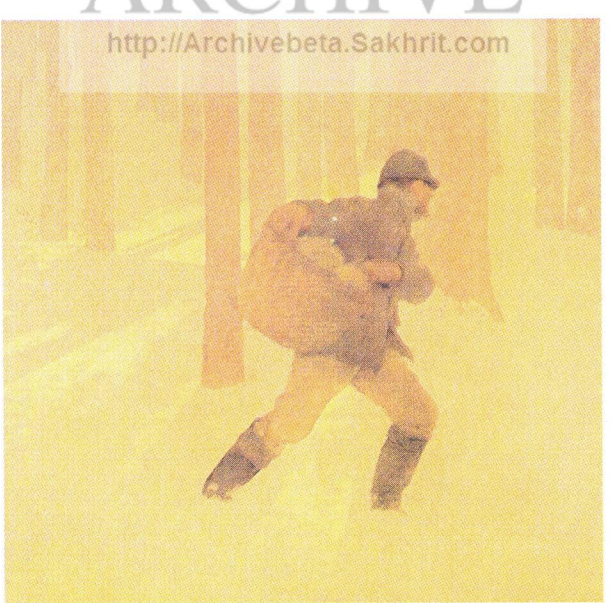
إن عنصر باريش الرئيسي - الذي ينتمي للقرون الوسطى - والذي قص من معطف سحري لطفل - أتى بـ «أيام الحلم» لكينيث جراهام إلى الحياة. و«هامبتي دامتي» الخيالي بعث الروح في «الأم الإوزة المضجرة». و«الطائر النشوان» من قصيدة لأوجين فيلد، بعث شاباً ليحلق عاليا على أرجوحة نحو قلعة في السحب. كان الجمهور مسحورا، ورغم تدفق الطلبات، كان الناسك قد أخفى الطفل باريش. ففي عام 1898، انسحب إلى جنته الزرقاء. إن ستيفان باريش، الذي انتقل إلى «كورنيش» في نيو هامبسفاير، قد أقرض ابنه تسعمائة وخمسين دولارا لشراء عشرين أكرا في المنطقة. وشيد باريش - فوق تل في المنطقة. وشيد باريش - فوق تل، عبر الوادي الذي يقع فيه منزل والده - «ذي أواكس»، المطل على جبل «أكسوتني» في فيرمونت. ومع مرور الوقت، أنهى باريش المنزل عام 1906، وافتخرت الضيعة بعشرين حجرة رئيسية للمنزل وخمس عشرة حجرة مرسم، اكتملت بغرفة مظلمة وورشة إنشاءات ميكانيكية. صمم باريش وشيد الحدائق الأمامية للمنزل، التي تفتح بواباتها في الصيف لتكشف نباتات الإسبيريا المزدهرة، والترمس، والليلك. وقد رفض التدريس في «بافا» (PAFA) و«يال» كارها المساعدة على الحياة في منزله القائم على قمة التل. ومن الأعالي، بعث أعماله السماوية إلى العالم الأرضي.

وخلال العقد الأول في «ذي أواكس»، تعددت مواهب باريش على نحو مذهل، ونال مديحا عاصفا. فقد أنجز لوحات جدارية، وتعاقد على لوحات لفنادق في نيويورك، شيكاغو وسان فرانسيسكو. ورسم الصور المصاحبة لـ «الليالي العربية»، و«حكايات الأجمة المتشابكة» لنتانيل هاوشورن. وصاحبت مناظره الطبيعية المذهلة كتاب إديث وارتورن «الفيلات وحدائقها»، بل وجد الوقت ليرسم المناظر الخلفية لمسرحية شكسبير «العاصفة» التي أخرجت في «برودواي». وفي «ذي أواكس»، استمتع ماكسفيلد وليديا باريش بحالة الفنون في مستعمرة «كورنيش» المزدهرة بالفنانين. وكان من ضيوف الغداء النحات أوجستوس سان - جودينز، إيثيل باريمور، وفيما، وودرو ويلسون. وطورت الجماعة موهبتها المنزلية المتنامية بإخراج مسرحيات سنوية، صنع ماكسفيلد معدات مناظرها وأقنعتها، وسرعان ما أتى الأطفال الذين ولدوا في المنزل، ثلاثة أولاد وفتاة - بخيالهم الخاص إلى «ذي أواكس». وفي الوقت المناسب، بدأ باريش في تكملة أعماله الخاصة برؤاه الداخلية في لوحات بانورامية لمناظر خارجية فانتازية تزينها المرأة التي كانت ملهمته.

وامرأة ماكسفيلد باريش ظلت تقريبا المرأة نفسها. كان اسمها سوزان لوين، وعندما جاءت إلى «ذي أواكس» لمساعدة ليديا في العناية بالأطفال، كانت في السادسة عشرة، ممشوقة القوام وطويلة الأطراف، ووجهها - من الجانب - يذكرنا بفترة ما قبل روفائيل، وسرعان ما لفتت انتباه الفنان. وطلب باريش من سوزان أن يرسمها، ونادرا ما كان باريش يرسم الأشخاص مباشرة. وبدلا من ذلك، كان يلتقط صورا فوتوغرافية لهم، ويعمل من صوره المطبوعة.

ومع ليديا، التي أخذت تقضي فصل الشتاء في جورجيا، بدأ باريش وموديله علاقة حذرة صمدت خمسة وخمسين عاما. كان باريش يسمي لوين «سوزان المخلصة»، ونفى كلاهما انعدام الاحتشام في علاقتهما. «عليك أن تعلم أن السيد باريش لم ير أبدا ركبتي عاريتين»، مثلما قالت لوين محتجة. ولاشك أنه لم يكن يدقق جيدا، لأنه عثر على صورة عارية لها في ذلك الحين. كانت غرفة لوين في «ذي أواكس» متصلة بغرفة باريش بممر سري، وفي عام 1911، انتقلت مع باريش إلى مرسمه، وظلت ليديا المخلصة في المنزل الرئيسي. ومع سوزان التي رسمت مرارا وتكرارا، نضجت لوحات المناظر الطبيعية الحالمة لباريش. وقريبا، سيرى الملايين أعماله، رغم أن عددا محدودا واتته فرصة تقدير تألق لوحة أصيلة له بشكل مباشر.

فعندما أقبلت على تنظيم معرض لباريش، كانت سيلفيا يونت مترددة بعض الشيء. ولأنها أمينة متحف مجموعات الـ «بافا»، كانت ملمة بموضوع أعمال باريش في متحفها، لكنها لم تعرف أعماله الأخرى إلا من خلال المطبوعات. «لم أكن من كبار المعجبين بعمله الأخير، لكن ثمة شيئا ذا شأن عند رؤية عمل أصيل لباريش»، حسبما قالت لي، وكي تثبت لي وجهة نظرها، قادتني يونت نحو لوحة يتم تحضيرها للمعرض، «ضوء القمر، ليلا: شتاء» (1942)، التي لم تكن مثل أية لوحة رأيتها لباريش. كان الجليد فيها يومض على قماش الكنفاس، وسماؤها الليلية بلون باريش الأزرق الحار، أزرق نيلي فوق طبيعي.. صاحب صنعة لا يألو جهدا في إتقان عمله، أنتج تدرجا كهذا في الألوان، مثلما شرحت لي يرونت. ومثل الليتوجرافي الذي يصنع صوره المطبوعة، كان باريش يضع طبقة اللون - في لوحاته - الواحدة بعد الأخرى. وبعد استخدام الأزرق من الأنبوبة مباشرة، يضع الورنيش على اللوحة كلها، وعندما يجف، يضيف لونا ثانيا، ثم طبقة أخرى من الورنيش. وغالبا ما كان يعمل في عدة لوحات في وقت واحد، فيضيف مزيدا من الألوان ومزيدا من الورنيش، إلى أن يبدو العمل مضيئا. وخلال حياته، أقام باريش عددا قليلا من المعارض في قاعات العرض. وهو معروف بمستنسخاته، ومن خيب أمله دائما الإنتاج الضخم للألوان. ولهذا، سيقدم معرض «بافا» نظرة مفاجئة لبعض من يعتقد أنه يعرفه جيدا. «لايزال عدد من أمناء المتاحف لا يعتقدون أن ماكسفيلد باريش كان فنانا. وأنا آمل مكافحة هذا الموقف»، مثلما تقول يونت.



إن البساطة الريفية في لوحة «شتاء» المرسومة عام 1906 لغلاف «لولييرز»، تذكرنا بأعمال فنانين من قبيل وينسلو هومير.

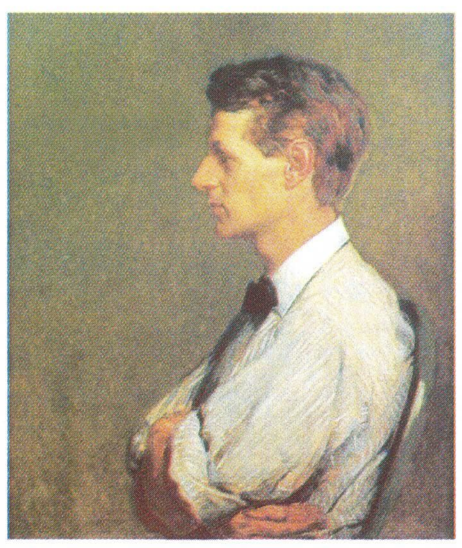
لكن ذلك سيكون كفاحا مريرا، ولأن باريش تام النضج، نضجت أفكار ثقافية رفيعة حول ما ينبغي أن يكون عليه الفن. ففي بداية عام 1913، قدم «معرض آموري» لوحات لأمريكيين، لبيكاسو وفنانين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

■ تنقل اللوحة المضيئة ضوء القمر في ليلة شتوية (1942)، إحساسا بالسكينة المحلية.■

آخرين حديثين، بالإضافة إلى نقاد أعلنوا أن على اللوحة - من الآن فصاعدا - ألا تكون جميلة، وإنما شخصية فحسب. ولأنه عارض صدمة الفن الحديث، أصبح باريش معاديا لماتيس، رسام اللوحات الباعثة على السرور من أجل العامة. كان لبيكاسو مرحلته الزرقاء، ولباريش أزرقه الذي لا يحيد عنه مطلقا. وبدأ يحفر في المنجم عام 1915، عندما عكست «شيكولاتة كارين» أحلام يقظته الرومانتيكية عن علب هدايا أجازته. وأدت المستنسخات التي بيعت بمئات الآلاف، إلى اتفاق باريش مع «جنرال إلكتريك» على التقاويم السنوية، وعندما أصابه الإرهاق من «اللعبة التجارية»، اختار باريش سوقا مختلفا، فصنع لوحات معدة بمواصفات خاصة للمستنسخات، وظل الجمهور يطلب المزيد من الشيء نفسه. وبدلا من التخلي عن الدخل الذي يمده بوسائل العيش فوق قمة التل، صور الفردوس بشكل مفرط إلى درجة مملة. وفي العشرينيات، جعلته مطبوعاته أعلى الفنانين - أو الرسامين التوضيحيين - سعرا في أمريكا. فأكثر من سبعة عشر مليون تقويم سنوياً لماكسفيلد باريش جعل الجمهور جائعا لخليطه الذي يمتزج فيه الغرائبي بالشهواني.



■ صديقه وجاره الفنان كنيون كوتس رسم هذا البورتريه لباريش عام 1905

على خيال الجمهور على نحو خاص.

ورغم تسارع الأمة نحو العشرينيات، ارتبط باريش بثقافة المنظر الطبيعي. وفي قصته «أول مايو»، وصف ف. سكوت فيتز جرالد انعكاس زجاج النافذة بـ «أزرق لبني عميق، لون ضوء قمر ماكسفيلد باريش». ولأنه كان يأمل في أن يصبح أكثر من أكلاشيه، بدأ باريش يحلم بـ «فن التصوير العظيم»، فأعد لوحات كانفاس صغيرة، وبدأ «يفكر في أشياء عظيمة تتضمنها»، ثم جعل جارة شابة من «كورنيش» وابنته الكبرى البالغة أحد عشر عاما - واحدة مضجعة والأخرى تميل عليها - وجعل الأعمدة إطارا لهما حسب مبادئ «التماثل الحيوي»، وهي نظرية معاصرة تدافع عن النماذج المتناغمة للأشكال المتشابكة. وفي الخلف، رسم حديقة تكسوها الأزهار وتتصدر قمم الجبال المتقنة المألوفة. وكانت النتيجة: «تفجر»، التي أصبحت - حسب تعبير أحد كتاب سيرة باريش - «الإحساس الزخرفي للعقد». كانت تمنح كهدية زفاف، وتعلق في المنازل، وفي عنابر نوم المدارس الثانوية بالطبع، وقد تجاوز عدد نسخها المباعة مائتي ألف مستنسخ. وفي عام 1925، عندما عرضت جاليري في نيويورك خمسين عملا لباريش، باع عملا أصليا وعملين آخرين، كل واحد منها بعشر آلاف دولار، وهو رقم قياسي وقتئذ لفنان أمريكي على قيد الحياة. وقد ألزم مشتري لوحة «فجر» المسؤول عن الجاليري ألا يبوح بالسر، ولأنها أصبحت واحدة من أهم الأعمال الفنية المستنسخة في التاريخ، لم يعرف أي شخص أين تعلق اللوحة الأصلية، وظل السر بلا حل حوالي نصف قرن، ثم ظهرت اللوحة في قاعة إحدى قاعات

لقد شق الفن الحديث طريقه مع التعقيد، لكن باريش رأى عمله تعبيرا عن البساطة في ذاتها. وعندما سألوه عن عمل له: «ما معنى كل هذا؟»، أجاب: «إنه لا يعني شيئا دنيويا... فهو شيء جميل ننظر إليه: مكان جيد نكون فيه. لا شيء أكثر من ذلك». ويقول بعض النقاد إنه إذا رأيت لوحة لباريش فقد رأيت كل اللوحات، لكن لوحة واحدة استولت

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

■ جدارية «الزمار الأرقط»، التي طلبها فندق «بالاس هوتيل»

العرض في بوسطن عام 1974. كان مشتري لوحة «فجر» هو السياسي ويليام جنينجز بريان، جد الموديل المضجعة كيتي أوين. كان بريان قد وضع اللوحة في حجرة فخمة محكمة التكييف في يخت يملكه، ويسمح لبعض الأصدقاء فقط برؤيتها.

والمعجبون بباريش أكثر تعددا من أعماله. ومن بين جامعي أعماله النجمان السينمائيان جاك نيكلسون ووبي جولدبيرج، وصاحب خيالاته الخاصة، مبدع «حرب النجوم»، جورج لوكا. وحتى المعجبون المجهولون بذلوا أقصى ما في وسعهم للحصول على لوحة أصلية. وفي عام 1935، بيعت غسق بثلاثة آلاف دولار، وهي ثروة في فترة الكساد. كان الشاري مدرسة شابة. اعتقد الجميع أنني فقدت رشدي بإنفاق كل مرتبي من التدريس على لوحة، لكنني رغبت فيها أكثر من أي شيء اشتريته من قبل، مثلما قالت المرأة لجامعة أعمال باريش، إلما جيلبرت، وجيلبرت تتفهم ذلك تماما.

فخلال السبعينيات، أدارت جيلبرت قاعة عرض صغيرة في «سان ماتيو» في كاليفورنيا. وقد تخصصت في «استثمار الفن»، فتعاملت مع أندرو ويث، والصور المطبوعة بالحفر لرمبرانت، وأعمال فنانين محليين متعددين. وعندما طلب أحد الزبائن من جيلبرت أن تأتي له بعمل لماكسفيلد باريش، لم تعرف أنها ستقع في غرامه. وخلال توقفنا أمام توهج الفنان في «أرض الخيالات» في جاليري ومتحف «كورنيش كولوني»، أخذت جيلبرت تشرح لنا الموضوع. فخلال بحثها عن باريش، عثرت على أعماله في قاعات عرض «فوس» في بوسطن،



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في سان فرانسيسكو، ويظهر باريش هنا بنفسه في صورة الزمار.■

وأخذت تعاني - وحدها مع عشرات من أعماله - لوعة الغرام. «إحساس بالضوء رائع ومجيد على نحو مطلق. كنت قد انتقلت داخلها». ومنذ ذلك اليوم، لم تشتر جيلبرت لوحة واحدة فقط، وإنما سبع عشرة لوحة. ومنذ ذلك الحين، امتلكت حوالي ثلاثمائة عمل لباريش، وكتبت عدة كتب عن الفنان، وعاشت في جنته.

وفي عام 1978، اشترت جيلبرت «ذي أواكس»، حيث فتحت متحف باريش، وفيما بعد بحوالي عام، احترق المنزل الرائع كله تماما، وبعد أكثر من عشرين عاما، أعدت أول أعمال باريش. لقد مرت بتجربة طلاق، وأوشكت على الإفلاس، وكسبت قضية حقوق نشر أعمال باريش المرفوعة ضدها. وفي هذا الصيف، ستقدم جاليري «كورنيش» أول معرض عام للجداريات التي رسمها باريش لـ. جير ترود فاندر بيلت ويتني بين عامي 1914و 1916. وفي الصيف المقبل، حسبما تقول، سيقام معرض آخر لباريش، وآخر، وآخر. «سيكون باريش دائما هنا، إلى أن يطرحوني أرضا»، مثلما قالت لي جيلبرت.

إن إخلاص جيلبرت ليس إخلاصها وحده. فخلال فترة الكساد، كانت أكثر المستنسخات الملونة انتشارا - التي يشتريها الأمريكيون لتعليقها على الحائط - هي الخاصة بالفنانين فان جوخ، سيزان وباريش. لكن الفنان الذي ملأه أول تكليف له بـ «بهجة برية متوحشة» كان متعبا، متعبا من الفن، ومن الفردوس، بل «ضجرا من أزرق م، ب». «لقد خدعتني (لوحة) الفتيات على الصخر»، مثلما صرح عام 1932في حوار غير مألوف، « لقد رسمتها



لوحة «الأبله» - التي رسمت لعدد من مجلة «كولييه» لعام 1990 وسمح إطارها الواسع لباريش أن يستكشف مزيدا من التصميمات المعقدة - تكشف عن موهبة الفنان في إنجاز مؤثرات بصرية خصبة.

طوال ثلاثة عشر عاما، ويمكنني تصويرها وبيعها لمدة ثلاثة عشر عاما أخرى... إنه شيء مرعب أن تكون ختما من المطاط». وبعد ذلك بأربعة أعوام، رسم آخر أشكاله الإنسانية، وفي السادسة والستين من عمره، كان في كامل قوته ويستيقظ في الخامسة والنصف، فحول طاقته إلى المنظر الطبيعي «الله وحده يمكنه خلق شجرة، هذا حقيقي تماما، لكنني أود أن أراه يرسم واحدة»، مثلما ذكر كثيرا. وخلال الخمسة والعشرين عاما التالية، صنع باريش أكثر من مائة منظر طبيعي، نصفها للتقاويم السنوية، والباقي لتسليته الخاصة. لقد نال أخيرا استقلاله، وعندما اقترح عليه أحد الناشرين إضافة عنصر الإثارة إلى مشهد بالمزرعة، رفض. فالطريقة الوحيدة لجعل اللوحة أكثر إثارة، حسبما أجاب، هي إشعال النار في المخازن، لكن الإهمال صاحب الاستقلال. فطوال السبعينيات والثمانينيات من عمره، تحول الفن إلى التجريد، وأصبح باريش هو الماضي، ثم تأرجح بندول الفن مرة أخرى في الستينيات.

وعندما أقامت جاليري نيويورك للفن الحديث معرضا لباريش عام 1964، اندهش كثيرون عندما علموا أن الفنان لا يزال على قيد الحياة، فسافر المراسلون الصحفيون إلى «ذي أواكس» حيث وجدوه يعيش وحيدا، معتل المزاج (توفيت ليديا عام 1953، وسوزان، التي كرست حياتها لباريش، تركت «ذي أواكس» وهي في الواحدة والسبعين لتتزوج من حبيب الطفولة). كان يلعب الجولف حول المنزل وهو يدمدم كثيرا، وارتبك باريش من هذا الاهتمام المفاجىء، وأخذ يتساءل: «كيف يمكن لعملي أن يبعث السرور في هؤلاء الطليعيين؟»، لكن باريش أصبح أحدث صيحة. ففي السنوات القليلة التالية، عرض سبعة عشر متحفا أعماله وعلقت أعداد لا تحصى من المدارس الثانوية أعماله مرة أخرى.

وتوفي باريش في هدوء مثلما ينبغي لحالم أن يموت، فقبل أربعة أشهر من عامه السادس والتسعين، وافته المنية في سريره في «ذي أواكس»، وخلال بضع سنوات، انتقل للأبد إلى الثقافة الشعبية. فالمشهد الطبيعي - المأخوذ من لوحة «فجر» - يميز أحد الشيكات البنكية، وتباع صور باريش كشاشة وقاية للكمبيوتر ووسادة الفأرة، ولمغناطيس الثلاجات وعربات نقل الحقائب والبطاقات التجارية. وأصبح باريش - كفنان شعبي - شعبيا كما كان دائما. وحتى في مسقط رأسه، قلة كانت مهيأة لعاصفة الاحتجاج التي صاحبت فكرة نقل إحدى جدارياته من المدينة.

ففي قلب ميدان الاستقلال في فيلادلفيا،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



«سوزان (لوين) المخلصة»، ملهمة باريش وموديله، كثيرا ما أبدعت ملابسها الخاصة

تعرض أحد أعمال ماكسفيلد باريش خلف لوح زجاجي. ولوحة «حديقة الأحلام» المعروضة في ردهة مركز «كورتيز»، هي عمل مشترك، فقد رسم باريش الحديقة عام 1914، واستغرق استوديو «تيفاني» أكثر من عام ليحولها إلى موزاييك. وقد لاقت صيحات الإعجاب عندما رفع عنها الستار باعتبارها «عملا حقيقيا رائعا»، ويصل ارتفاع «حديقة الأحلام» إلى خمسة عشر قدما، ويبلغ طولها حوالي خمسين قدما، وتضم أكثر من مائة ألف قطعة زجاجية، من مائة وستين لونا. وتزن الجدارية أربعة أطنان، لكن ذلك لم يمنع بيعها، وكادت تنقل في الصيف الماضي. فعندما أعلنت جريدة «فيلادلفيا إنكوايرير» أن الرائعة الفنية خصصت لملهى ليلي في لاس فيجاس، انطلقت الالتماسات والخطابات لمدير التحرير، وقامت مظاهرات جماهيرية لإنقاذ العمل الذي تملكه فيلادلفيا لباريش، وفي استجابة للاحتجاج العنيف، سحب المالك الجديد- الشخصية البارزة صاحبة الملهى الليلي، ستيف وين - عرضه بشراء «حديقة الأحلام». بعدئذ، تحركت المدينة لحماية الجدارية من السوق، فسمتها أول «موضوع تاريخي» تملكه فيلادلفيا، وستتطلب أية محاولات أخرى لشحنها موافقة «اللجنة التاريخية» للمدينة، والقرار حاليا قيد الاستئناف، ولا يزال النزاع مستمرا.

وفي الفجر، لا تزال السماء فوق جبل أسكوتني لازوردية مثلما هي أبدا. وفي فبراير الماضي، أخذتني ألما جيلبرت إلى قمة التل في «ذي أواكس»، هناك أدركت كيف أصبح باريش على علاقة حميمة- إلى هذا الحد - بالفردوس، ومن «ذي أواكس»، التي أعادت جيلبرت بناءها بعد الحريق، يطل المرء على مشهد جديد بصور باريش في التقويم السنوي، فالجبل المنحدر بنعومة يرتفع بنبل فوق خطوط ممتدة، وتبدو القول والمراعي الكثيفة وكأنها تنبسط إلى ما لا نهاية، وأشجار البلوط الشاهقة تجعل المنزل يبدو قزما وتصنع إطارا للمشهد. لم يتخيل باريش الجنة، لقد عاش فيها مثل المعجبين به الذين يشعرون أنهم مدعوون للدخول في مستنسخاته. «يحرك باريش شيئا عميقا في الناس»، مثلما قالت لي جيلبرت وهي تقف أعلى تلها المفضل، تنظر للأزرق بالخارج . ترى ضوءه وتدرك أشياء عن نفسك وعن العالم، وتقول: «آه، لقد رأى هذه الأشياء، أيضا».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جين ابنة باريش، جلست من أجل أغنية الأطفال هذه للإعلان عن «البذور السحرية»



تاريخ اليوتوبيا العالمية من المدينة الفاضلة إلى المجتمع الكوني

تأليف : أرمان ماتلار

عرض : جون كلود ريانو بوريالان

ترجمة : محمد العربي لهبوب

لقد كانت فكرة أن العالم أضحى مجتمعا واحدا شديدة الحضور منذ أواخر الثمانينيات، ومن ثم فهي ليست بفكرة جديدة. وعند أرمان ماتلار، توجد صلة يمكن ملاحظتها كليا بين التصورات ذات الطابع الكوني التي تتابعت منذ خمسة قرون. ويؤكد أن «فكرة «الأسرة البشرية الكبرى» انبعثت من صميم القرون المسيحية». ويعتبر أن الانبعاث الراهن يوافق مذهبا تدبيريا ولا سيما تخيلا إعلانيا نظمهما «قساوسة العبادة التقنية الكونية» لهذا الظرف «مع وعدهم بقيادة رعية الأتباع نحو الإلدورادو الرقمي لديمقراطية أثينية جديدة». ويسعى المؤلف إلى إعادة إقحام خطاب الإعلاناتيين والشيوخ الروحيين الحاليين ضمن صنف اليوتوبيات ذات النزعة العالمية «تراث قديم لمتخيل طائفة/ جماعة سكان الأرض الذي واكب توسع الرأسمالية الغربية منذ القرن السادس عشر».

والجولة في تاريخ اليوتوبيات والمشاريع السياسية ليست موجهة فقط لتوضيح الأطر البلاغية والرمزية التي انبثقت من جديد في الوقت الحاضر. فاستنادا إلى منظور تاريخي، يؤسس الكاتب رفضه لمفهوم «طبعنة» قوى السوق، وهي إيديولوجيا مصاحبة لتطور الرأسمالية العالمية. إن مرتكز الكتاب هو مشروع مزدوج ذو بعد علمي وكشف سياسي.

إن ابتكار أمريكا من طرف البحارة والمثقفين في مطلع القرن السادس عشر، علاوة على اكتشافها من طرف كريستوف كولومبس، هو ما يشكل القطيعة الكبرى. فتاريخ اليوتوبيا العالمية يبتدىء حقا مع

العنوان الأصلي للمقال:
Histoire De L'Utopie Planétaire ونشر في مجلة Sciences Humaines عدد 95 يونيو 1999.

الرحلات الكبرى لعصر النهضة. لقد غدا العالم الجديد في المتخيل الأوروبي اعتباراً من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر، مكان اليوتوابيات الجماعية. وانطلاقاً من محكيات أمريكو فيسبوشي* التي صاغت «بين الحلم والحقيقة أول حدث كوني للتاريخ» ستنتشر أدبيات نعرف منها بعض النصوص المهمة. فكتاب اليوتوبيا l'Utopia الذي صدر سنة 1516 لتوماس مور، هو بمثابة «مصفوفة لكل أصناف المحكيات الشهيرة المتناولة لإصلاح المجتمعات البشرية التي تواجه اللامساواة والظلم الاجتماعي...». وتطور النوع ذو النزعة اليوتوبية في علاقة بتقدم الاكتشاف الأوروبي للعالم وكذلك أيضا في إحالة إلى تصور لاهوتي - فلسفي منحدر من العمق الأغريقي المسيحي. ويستعمل مونتين على سبيل المثال في مؤلفه محاولات Essais الذي يعود إلى سنة 1580 إحالات قديمة بقدر ما يستعمل إحالات معاصرة للدعوة إلى ما نسميه اليوم بنسبية الثقافات. إن هدف المشاريع أو التأملات الأنسية لذلك العصر هو بعث المثل الأعلى للجماعة المسيحية في الوقت الذي كنا نشهد فيه انبثاق الدول.

ومنذ القرن التاسع عشر ظهر القانون، كتيار فكري كبير وجديد حول الجماعة البشرية: «تدريجيا وبطرائق مشوشة في الغالب، تخلص القانون الدولي العام من غلافه اللاهوتي واعتمد تصور مجتمع شامل، غير مسيحي، ولكن بشري بكل بساطة». لقد انبثقت هذه السيرورة من خلال ضبط الملاحة وإقامة حريات التبادل التجارية وبالقدر ذاته من خلال قانون للدول ذات السيادة. وخلافا للتيار اليوتوبي، اعتبارا من توماس مور إلى القرن العشرين، الذي سعى إلى تصور المجتمع المثالي، وطدت عملية الضبط الدولي واقع التوسع الأوروبي: «أعطى رهان استغلال موارد المستعمرات لمسألة استقلال البحار بعدها العالمي». إن إرساء القانون الدولي، الذي مهد له كروسيس والذي رسخته معاهدات ويستفاليا** في مطلع القرن الثامن عشر، اعتمد على تأكيد القواعد المشتركة الملزمة للجميع في الحرب. ويستنتج من الأمثلة المتعددة المقدمة في المؤلف أن الفكر الأوروبي بخصوص العالم توزع على ثلاثة أقطاب: اليوتوبيا بتحولاتها التقنية أو الاشتراكية، التفكير بالحرية الاقتصادية ثم مفهوم القانون الدولي للدول القومية. وإذا كان القطبان الأول والثاني قد تم تناولهما بالتفصيل على امتداد الكتاب، فإنه قلما تبرز مسألة القانون الدولي. وعند أ. ماتلار، فإن تاريخ الفكر الغربي بخصوص الكونية نتج قبل كل شيء عن مواجهة إيديولوجية بين تبريرات الرأسمالية والأشكال المتعددة لليوتوبيا الجماعية. ومع ذلك فقد تناول مسألة الحرب بين الدول مفصلا الأفكار المتعلقة بإمكانية إقامة سلام شامل، وهي

* أمريكو فيسبوشي: ملاح إيطالي (1454-1512) مكتشف ساحل البرازيل. أقام بإشبيلية وساهم في تنظيم الرحلات الثانية والثالثة التي قام بها كريستوف كولومبس.

** معاهدات ويستفاليا: معاهدات صلح وقعتها بوستفاليا (إحدى مقاطعات بروسيا) سنة 1648 واضعة حدا لحرب الثلاثين سنة.

الأفكار التي انتشرت خلال القرن الثامن عشر وخصوصا في عهد الثورة الفرنسية. وفي نهاية القرن الثامن عشر، انبثقت صيغتان من المتخيل الكوسموبوليتي. «إحداهما، مؤسسة على اللاإقليمية التجارية، تجسدت في «الجمهورية المركنتيلية الشاملة» التي نادى بها أنصار الاقتصاد الكلاسيكي». ضمن هذا التصور، «ينبغي للسوق، نظراً لقدرته على اختراق الحدود القومية، التغلب على عهود سحيقة من المجتمعات العسكرية. فآلية الضبط الذاتي التجاري بإمكانها تأمين الوئام بين المواطنين الذين ترقوا إلى مستهلكين أسياد». وبنبرة مختلفة ولكن مكملة في الغالب، «فكر أنصار ثورة 1789 في توحيد العالم عن طريق إشاعة قيم كونية انطلاقا من الأمة المؤهلة لإخراج الإنسانية جمعاء من مرحلة ما قبل التاريخ». هما تلك المصفوفتان المثاليتان الكبيرتان لفضاء بلا حدود واللتان لم تكفا منذ أواخر القرن الثامن عشر إلى اليوم عن التقارب أو التباعد. ويتفحص أ. ماتلار الرؤية الليبرالية الاقتصادية عبر أعمال آدام سميث وأتباعه اللاحقين، وركز طويلا على التفكير ذي الطابع الكوني عند الثوريين، من مثل كوندورسي، الذين يعتبرون أنه من الضروري تحرير مجموع الجنس البشري وإقامة تعليم رسمي كفيل وحده بتكوين مواطنين راشدين. ويعرض المؤلف بدقة، عن طريق صورة أخاذة للثوري الشمولي أناكارسيس كلوتس، الوجود المقترن، داخل الثورة الفرنسية، لطموح أممي أنسي ونقيضه المتجلي في النهج القومي الصارم ممثلا في روبسبيير الذي سرعان ما رأى في الثوريين الأجانب خصوما ينبغي التغلب عليهم. وبعد مرور قرن من ذلك، سيعمل تعارض مماثل على تقسيم أحزاب الديمقراطية الاشتراكية وأحزاب الشيوعية، المدافعين عن أممية قوية والمدافعين عن تجسيد قومي للاشتراكية. ويقدم أ. ماتلار بإسهاب السجالات التي دارت بين البلاشفة والاشتراكيين الألمان، ثم بين الستالينيين والتروتسكيين* خلال العشرينيات والثلاثينيات من هذا القرن.

ويتوقف الكتاب مليا عند القرن التاسع عشر. فخلال الفترة الممتدة من اختراع السكة الحديد إلى الحرب العالمية الأولى ذهبت المتخيلات الاجتماعية والسياسية للكونية إلى أبعد حد. لقد بلغ النوع اليوتوبي، الذي آل إلى أدب استباق (جيل فيرن، ألدو هوكسلي، إلخ...) شهرة مجهولة آنذاك بفضل الصحافة واسعة الانتشار. لقد انتصرت الليبرالية السياسية والتجارية في علاقتها بالهيمنة الأنكلوسكسونية. وعمل التيار الاشتراكي والشيوعي على نشر رؤية أممية مقابل صراعات داخلية بين الفوضويين** والماركسيين. إن نهاية القرن التاسع عشر هي

* تروتسكيون: نسبة إلى ليون تروتسكي (1877-1940) القائل بـ«الثورة الدائمة» التي ترى أن الاشتراكية لا ينبغي إلا أن تكون أممية وأن الثورة يستلزم تصديرها إلى جميع الدول، بخلاف الأطروحة الستالينية القائلة بإنشاء الاشتراكية في دولة واحدة.

** الفوضويون: أنصار الفوضوية، وهي مذهب سياسي رافض لكل نظام دولة يفرض نفسه على الفرد من فوق. ارتبط بأسماء برودون (صاحب فلسفة البؤس 1846) وباكونين وشتبرنر الذين هاجمهم ماركس وإنجلز في كتاباتهما خصوصاً في الإيديولوجيا الألمانية 1845-1846 وبؤس الفلسفة 1847.

أيضا حقبة انبثاق عصب من أجل السلام وجمعيات إنسانوية. وأعلنت الحرب العالمية الأولى انهيار الأممية البروليتارية في حين ظهر مثل أعلى جديد لعصبة الأمم بفضل الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون.

تميز القرن العشرون بسمة النزعة المثالية التي اشتهر بها ويلسون والتي سعت إلى تشجيع التعاون الدولي عن طريق نشر الديمقراطية ورفض الإمبريالية.

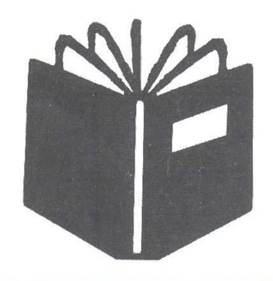
وتشهد عصبة الأمم في بداية الأمر ثم نظام المؤسسات لهيئة الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية بقوة أفكار التعاون الدولي. ومع ذلك، ليس هذا الجانب، الأساسي جدا، المتعلق بتمثلات المجتمع الكوني ومقاومة الحرب، هو ما يفضل أ. ماتلار. ويقدم المؤلف بشكل موجز، ولكن دقيق، التصادم الإيديولوجي للحرب الباردة باعتباره تعارض تصورين للمجتمع الكوني، ولكنه يتوقف مليا عند تطور ما بعد الحداثة لعقدي الستينيات والسبعينيات. فمباشرة بعد الحرب، راهن جيمس بيرنهام على انبثاق فئات اجتماعية جديدة. بعد ذلك بقليل، أعلن علماء اجتماع، من مثل دانييل بيل أو ريمون آرون، نهاية الإيديولوجيات. ويحدد المؤلف في هذه الحقبة نهاية اليوتوبيات الاشتراكية وبداية هيمنة اليوتوبيات المقاولاتية. وشهد عقدا السبعينيات والثمانينيات تفجر التساؤل حول المجتمع الكوني وعبر القومية من خلال قضايا بيئوية وتعميم الاتصالات أو العولمة المالية.

ويصف المؤلف التطورات الجارية ويذكر أن خلف إيديولوجيا الشفافية والمساواة التي يروجها دعاة العولمة مازالت التفاوتات قائمة. ويندرج هذا الاستدلال ضمن تراث تحليلي منحدر من الماركسية والذي يرى في الإيديولوجيات تمثلات زائفة معدة لحجب واقع التفاوتات الاجتماعية.

وتؤكد الخاتمة النقدية للكتاب، ضدا على الفرضية الإعلانية والإيديولوجية لانصهار اتصالي وثقافي عالمي، على فكرة «الممازجة»* créolisation الثقافية المعرفة من قبل الكاتب الكاريبي إدوارد كليسان. وفعلا سيكون من باب الوجاهة التخلص من رؤية «عولمية» لتأويل ظواهر الانصهار والتقسيم التي تجري سواء على المستوى الثقافي أو على المستويين الاقتصادي والسياسي. ويعيد المؤلف إقحام اللحظة الراهنة في عمقها التاريخي، وهو ما يتيح رؤية انبثاقات أو امتدادات شبكات ومجموعات عابرة للقوميات وكذلك عمليات لإعادة إقحام الهويات المحلية، الممازجات المتعددة في قلب المجتمعات المعاصرة. فالمدن العملاقة من وجهة النظر هذه تنطوي على رمزية، ما دامت توحد في الوقت ذاته شبكات اقتصادية أو أخرى للاتصالات الكونية، تتأسس على ثقافة التدبير والتي ترمز إليها العمارات الزجاجية الكبرى لمراكز الأعمال، بممازجات من شتى الألوان في قلب المدن downtowns الأمريكية أو في ضواحي المدن الأوروبية على سبيل المثال. هناك تولد اليوم بالتحديد لغات وثقافات جديدة.

* ممازجة: مصطلح نقترحه مقابلا لمصطلح crédisation المشتق من créole الذي يشير من جهة إلى لغة مزيج من الفرنسية والأسبانية والبرتغالية بلغات المستعمرات الأوروبية القديمة (جزر الأنتيل، لويزيانا..) ومن جهة أخرى إلى رجل أبيض مولود في هذه المستعمرات.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com



مستقبل الإنجليزية كلغة عالمية

بقلم: ألان مالي

ترجمة: د. شعبان عبدالعزيز عفيفي

لاتزال حمى الألفية (الثالثة) تعمل على تسخين الدم الذي يسري في عروقنا المهنية، وهذان الكتابان اللذان ظهرا حديثاً يسهمان بصورة خاصة في رفع درجة الحرارة.

يتناول هذان الكتابان دور اللغة الإنجليزية ووضعها في العالم، إلا أن النقطة التي ينطلق منها كل منهما مختلفة إلى حد ما، الأمر الذي يؤدي إلى وجود اختلافات جوهرية في طريقة معالجتهما لهذا الموضوع متعدد الجوانب.

الكتاب الأول: الإنجليزية كلغة عالمية (English as a Global Language)

يوضح دافيد كريستال في المقدمة الهدف من هذا الكتاب، وهو الإجابة عن الأسئلة الثلاثة التالية: «ما الذي يجعل لغة ما لغة عالمية؟» و «لماذا تعتبر اللغة الإنجليزية المرشح الأول لذلك؟» و «هل ستستمر في احتلال هذا المركز؟».

هذان الكتابان

1- Engish as a Global Language
David Crystal
Cambridge University Press
(1997)

2- The Future of English
David Graddol
The British Council, London(1997)

يضم الكتاب خمسة فصول. يبحث الفصل الأول في الأسباب والعوامل التي تجعل لغة ما عالمية من حيث الانتشار، ويتوصل إلى نتائج لا تدعو إلى الدهشة: «تصبح لغة ما لغة عالمية لسبب رئيسي واحد، وهو قوة أبنائها-وخاصة قوتهم السياسية» (ص7). إلا أنه «إذا كانت الأمة القوية عسكريا هي التي تؤسس لغة ما... فإن الأمة القوية اقتصاديا هي التي تحافظ عليها وتعمل على نشرها» (ص 7-8). ثم ينتقل

العنوان الأصلي للمقال:

The fature of English as a Global Ianguage ونشر في مجلة. .Elt Jounal, vol. 53/2

* أستاذ بريطاني متخصص في تعليم الإنجليزية كلغة أجنبية أو ثانية وله أكثر من ثلاثين كتابا والعديد من المقالات في هذا المجال

كريستال إلى التساؤل عن السبب في الحاجة إلى لغة عالمية، ويخلص إلى نتيجة مؤداها أن الحاجة الشديدة والملحة تنشأ عن النمو السريع للاتصالات الدولية في شتى مجالات الحياة. ثم يبحث بعض الأخطار المحتملة التي تنجم عن وجود لغة عالمية، وهي: القوة الزائدة على الحد التي يتمتع بها الناطقون بهذه اللغة، والقناعة بلغتهم وعدم الاهتمام باللغات الأخرى، واندثار وموت لغات أصغر وأقل قوة. وعلى عكس التعليقات الأخرى التي نشرت أخيراً (1992 Pennycook 1994, Phililipson) فإن كريستال لا يعزو آخر اثنين من الأخطار المذكورة إلى الدور المهيمن للغة الإنجليزية. وفي الجزء الأخير من هذا الفصل ينظر فيما إذا كان من الممكن أن يوقف شيء ما أية لغة عالمية. وما لم يحدث أي تحول كبير في القوة السياسية، فإن التهديد الوحيد في نظره قد يأتي من شكل آخر من أشكال الاتصال، كالترجمة الآلية مثلاً.

وفي الفصل الثاني يتتبع كريستال بتفصيل شديد انتشار اللغة الإنجليزية منذ عهد الملكة إليزابيث الأولى (i) وحتى الوقت الحاضر، ويختتم هذا الفصل باستعراض لوضع اللغة الإنجليزية في العالم على أساس دوائر كاتشرو Kachru الثلاث. ويتوصل كريستال إلى نتيجة مؤداها أن 670 مليون شخص يتقنون الإنجليزية لأنها لغتهم الأم، ومن هذا العدد أجانب تقل درجة إتقانهم لها دون ذلك قليلاً (ص61). ويرتفع هذا العدد ليصل إلى قرابة 1200 مليون إلى 1500 مليون إذا ما اتبعنا معيار «الكفاءة المعقولة أو المناسبة»، ويلفت الانتباه ليس فقط إلى الأعداد بل أيضاً إلى «السرعة التي حدث بها هذا التوسع والانتشار منذ الخمسينيات. ففي 1950 لم تكن هناك سوى بعض الحجج والأسانيد المقنعة التي تدافع عن الإنجليزية كلغة عالمية، وأما الآن، وبعد مرور خمسين عاماً، فقد حسمت هذه القضية بالفعل لصالح الإنجليزية» (ص63).

وفي الفصل الثالث يواصل المؤلف البحث عن تفسير لهيمنة اللغة الإنجليزية وذلك من خلال استكشاف بعض العوامل التي وضعت أساساً لهذه الهيمنة في القرن التاسع عشر. فالنمو السريع للإمبراطورية البريطانية تزامن مع قيام الثورة الصناعية في بريطانيا وظهور الولايات المتحدة كقوة صناعية ومالية كبرى. وقد ضمن ذلك أن يكون انفجار المعرفة التكنولوجية، وكذلك انتشارها السريع، بالإنجليزية. كما يتحدث كريستال عن وضع اللغة الإنجليزية «كقضية مسلم بها» وظهور مناخ في نهاية القرن التاسع عشر انتشر فيه رأي ضمني على نطاق واسع أدى إلى جعل الإنجليزية الاختيار الطبيعي للتقدم (ص75).

ويصف الفصل الرابع كيف أن مركز اللغة الإنجليزية قد ازداد دعما وتوسعاً في القرن العشرين، ويبدي المؤلف اهتماماً خاصاً بدور اللغة الإنجليزية في بعض المجالات كالعلاقات الدولية، ووسائل الإعلام، والسياحة الدولية، والسلامة الدولية (وخاصة مراقبة حركة الطيران والملاحة البحرية)، والتربية والتعليم، والاتصالات بما في ذلك الإنترنت، ويرجع أسباب معظم نجاح الإنجليزية إلى كونها «وجدت نفسها مراراً وتكراراً في المكان المناسب وفي الوقت المناسب» (ص110).

وفي الفصل الخامس والأخير يضع المؤلف تنبؤاته عن مستقبل اللغة الإنجليزية في العالم، ويرسم كرة تدور في داخلها عدة عناصر، ويمعن النظر في مدى إمكانية حدوث رفض شامل للغة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الإنجليزية كجزء من رد فعل مضاد في فترة ما بعد الاستعمار.وقد لاحظ بحق (ص١١٦) أن «الحاجة إلى سهولة التفاهم والحاجة إلى هوية كثيرا ما تدفعان الشعوب- والدول- في اتجاهات معاكسة». إلا أنه يرى عموما أنه «لم تحدث حتى الآن إلا حالات قليلة جداً لرفض اللغة الانجليزية». ثم يناقش المؤلف بشيء من الاستفاضة الوضع في الولايات المتحدة حيث تقوم «منظمة اللغة الإنجليزية» USEnglish منذ مدة بحملة لمنح الإنجليزية وضعاً خاصا كلغة رسمية للبلاد. (ستتضح أسباب هذه الاستفاضة فيما بعد).ويتناول المؤلف بالتفصيل الشديد الآراء السياسية والاقتصادية- الاجتماعية والتربوية المؤيدة والمعارضة لسن قانون في هذا الشأن، ويتوصل إلى نتائج لاتدعو إلى الارتياح: «يبدو أن شيئا ما موجوداً في العلاقات الوثيقة بين اللغة والفكر والفردية والهوية الاجتماعية هو الذي يحدث مشاعر فياضة وعواطف جياشة. وفي ظل مناخ عادة مايطلق فيه على مؤيدي وضع الإنجليزية كلغة رسمية (أيا كان مدى اعتدالهم) صفة «عنصريين» ويهاجم فيه اللاجئون الذي يرغبون في استخدام لغتهم (أيا كانت درجة تحضرهم) على أنهم «طامعون في المزيد من الرعاية والرفاهية» فإنه من الصعب أن نجد أساساً للتوصل إلى حل وسط (ص 130-129) .

ويتناول كريستال النمو السريع للأشكال الجديدة للغة الإنجليزية (New Englishes) ويخشى من تفتت الإنجليزية إلى أشكال مختلفة ومتباينة لا يوجد تفاهم مشترك فيما بينها، إلا أنه يتوصل إلى نتيجة-ربما تكون صحيحة-مفادها أن معظم الذين يستخدمون اللغة الإنجليزية في مختلف أنحاء العالم سيتحدثونها بلهجتين مختلفتين. والنتيجة العامة التي يخلص إليها المؤلف عن سيطرة اللغة الإنجليزية هي «إذا كان ذلك جزءاً من خبرة ثرية في تعدد اللغات بالنسبة للأجيال القادمة فإن ذلك لايمكن إلا أن يكون أمراً طيباً، وأما إذا كانت هي اللغة الوحيدة التي ليس أمام الناس سواها لكي يتعلموها فإن ذلك سيكون أكبر كارثة فكرية شهدها كوكب الأرض». (ص 139-140).

الكتاب الثاني: مستقبل اللغة الإنجليزية (The Future of English)

يقول دافيد جرادول في التمهيد للكتاب إنه عبارة عن «وثيقة توفر معلومات عملية... الهدف منها تنشيط الحوار بشأن وضع اللغة الإنجليزية في المستقبل وذلك للاسترشاد بها في التطورات والمستجدات السياسية...».وتحت عنوان «لمحة موجزة» يبرز المؤلف القضايا التي سيناقشها والتساؤلات التي سيطرحها:

كم سيبلغ عدد المتحدثين باللغة الإنجليزية عام 2050؟

ما الدور التي ستلعبه اللغة الإنجليزية في حياتهم؟ هل سينعمون بالموارد الثقافية الغنية التي ستوفرها اللغة الإنجليزية لهم أم سيستخدمونها كمجرد وسيلة-أي كأداة من أدوات العمل أو المهنة؟

ما الآثار التي ستجلبها العولمة الاقتصادية على الطلب على اللغة الإنجليزية؟

هل سيشجع ظهور «مناطق عالمية» قيام لغات مشتركة (Lingua francas) للتفاهم بين شعوب مختلفة اللغات بحيث تهدد مركز اللغة الإنجليزية؟

كيف ستساعد اللغة الإنجليزية على تحديد اقتصادات الدول الصناعية الجديدة؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هل الإنترنت أهم المنتجات الإلكترونية للغة الإنجليزية العالمية؟

هل ستعلم القنوات الفضائية العالمية مثل CNN و MTV شباب العالم اللغة الإنجليزية الأمريكية؟

هل سيؤدي انتشار اللغة الإنجليزية إلى انقراض أكثر من نصف لغات العالم؟

هل صحيح أن اللغة الإنجليزية ستثبت أنها من الموارد والمنافع الحيوية لبريطانيا في القرن المقبل وتوفر لها تميزاً اقتصادياً بارزاً على الدول الأوروبية المنافسة؟

ويبرز المؤلف مستقبل اللغة الإنجليزية-الذي هو موضع جدال-في جزء من الكتاب يحمل عنوان (أهم القضايا والموضوعات) (ص٤) ويقول فيه: «من المتوقع أن تتقوض هيمنة اللغة الإنجليزية الحالية لصالح خليط أكبر من اللغات في أربعة قطاعات رئيسية: الأول هو السوق العالمي للوسائل السمعية-البصرية، وخاصة القنوات الفضائية، والثاني هو الإنترنت والاتصالات بوساطة الكمبيوتر (عموماً) بما في ذلك البرامج الخاصة بتعلم اللغات وتداول المستندات، والثالث هو نقل التكنولوجيا والعمليات المتصلة بها في مجال العولمة الاقتصادية، والرابع هو تعلم اللغات الأجنبية، وخاصة الدول النامية، حيث إن تنامي حجم التجارة الإقليمية قد يؤدي إلى تزايد أهمية بعض اللغات الأخرى».

ومثل كريستال، قسم جرادول كتابه إلى خمسة فصول .ويتناول الفصل الأول تاريخ اللغة الإنجليزية والدور الذي تلعبه في القرن العشرين، ويهتم بإيضاح «أننا نمر بمنعطف مهم... فالعلاقة الوثيقة التي كانت قائمة في الماضي بين اللغة والأرض والهوية الثقافية هي الآن موضع تحد من جانب قوى العولمة... التي ستشكل الأطر والمواقف التي سيتم فيها تعلم اللغة الإنجليزية واستخدامها في القرن الحادي والعشرين (ص٦). ويعارض جرادول، في تحليله لأنماط المتحدثين بالإنجليزية،الدوائر متحدة المركز التي وضعها كاتشرو، ويفضل بدلا من ذلك نموذجا تتشابك فيه الدوائر، ويشير بذلك إلى الطريقة التي سيحدث بها تحرك من إحدى الدوائر إلى الدائرة التالية، الأمر الذي سينتج عنه ظهور أغلبية من المتحدثين بلغة ثانية/ أجنبية بحلول القرن المقبل. ثم ينتقل المؤلف إلى بحث التسلسل الهرمي (Hierarchies) للغات على مستوى العالم وفي مناطق معينة حيث ستشارك اللغة الإنجليزية في الهيمنة مع بعض اللغات الرئيسية الأخرى، وحيث سيختفي حتماً العديد من اللغات الأقل أهمية.

ويعالج الفصل الثاني - الذي يحمل عنوان «التنبؤات»-بشيء من التفصيل مسألة التنبؤ وما تنطوي عليه من التعقيد وعدم اليقين، ويعرض بإيجاز النموذجين الإحصائيين اللذين سيعتمد عليهما، وهما: «نموذج Hooke » و «نموذج engco»، وكلاهما يستقي بياناته من التنبؤات السكانية والاقتصادية. ويشبه المؤلف وضع اللغات في العالم بـ «الأنظمة المعقدة أو المتشابكة» التي تعتبر «نظرية الفوضى» (choas theory) أفضل وسيلة لتناولها، وهذه النظرية تساعد في تفسير الطريقة التي يمكن بها«أن تصبح الدول أو الاتجاهات المستقرة- دون سابق إنذار كبير- غير مستقرة. وعلى ما يبدو هناك نزعة لا يمكن مقاومتها نحو استخدام الإنجليزية كلغة عالمية، وهذه النزعة قد تغير الاتجاه في المستقبل كنتيجة لبعض الأحداث الثانوية التي تدعو إلى الدهشة» (ص21) ويقترح في الجزء

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأخير من هذا الفصل وضع سيناريو بدلا من المفهوم الضيق للتنبؤ، فالسيناريوهات ليست تنبؤات، بل هي استكشاف لعدد من الأوضاع المستقبلية المحتملة رداً على تساؤل: «ماذا لو؟» وتؤدي إلى فهم أفضل لعوامل التغيير المحتملة.

ويتناول الفصل الثالث عدداً من الاتجاهات العالمية الرئيسية، وأولها الإحصائيات السكانية: كم سيبلغ عدد الناطقين باللغات الرئيسية كلغة أم؟ إلى أي مدى ستؤثر الهجرة في انتشار اللغة؟ كيف سيؤثر تغير الهيكل الطبقي في اللغة الإنجليزية (أي نمو الطبقات المتوسطة الناطقة بالإنجليزية)؟ ما الأثر الذي سيحدثه التحول إلى المدن- الذي يسير دون توقف- في لغات العالم؟ وفي جزء خاص عن الاقتصاد العالمي يقيم المؤلف الأثر المحتمل للاتجاهات الاقتصادية في اللغة ويقدم حسابات لإجمالي الناتج اللغوي Gross (GLP) Language Product بالنسبة للغات الرئيسية ولنمو الإنجليزية بصفتها اللغة الرئيسية المستخدمة في التجارة، ويلفت الانتباه في الجزء الخاص عن التكنولوجيا إلى صعوبة التنبؤ بدقة بما ستفضي إليه ثورة المعلومات. ويقول (ص30) إن «الصلة الوثيقة التي كانت قائمة ذات يوم بين الكمبيوتر واللغة الإنجليزية المحدودة المتولدة عن الكمبيوتر، ويناقش في الجزء التالي احتمال تعقد استخدام اللغة من خلال الأساليب والممارسات الجديدة في مجال العمل الناتجة عن العولمة. ويخلص إلى نتيجة مؤداها أنه «بدلاً من أن توفر العولمة عملية تؤدي إلى الوحدة والتجانس يبدو أنه ستخلق أشكالاً مختلطة (hybrid) من الثقافة واللغة والتنظيم السياسي، وهذا ناتج عن توافق المؤثرات العالمية مع التقاليد والقيم والأوضاع الاجتماعية المحلية» (ص33). كما يعلق المؤلف بإسهاب على نمو «الاقتصاد اللامادي» والأسلوب الذي يبدو أن اللغة الإنجليزية ستسيطر من خلاله على الصناعات الجديدة كثيفة المعلومات (knowledge-intensive). وفي جزء عن التدفقات الثقافية يتعرض المؤلف لتدفقات وحركة الأشخاص والاتصالات والتمويل ويتوصل إلى نتيجة مفادها أن هيمنة اللغة الإنجليزية على جميع هذه المجالات ستضعف وتحل محلها تشكيلات أكثر تعقيداً تلعب فيها اللغات الإقليمية الرئيسية دوراً أكبر. وفي الجزء الأخير من هذا الفصل يعرض المؤلف بإيجاز بعض مظاهر عدم المساواة العالمية الناتجة عن سيطرة اللغة الإنجليزية والمرتبطة بها. وفي الفصل الرابع يستعرض المؤلف بعض الآثار المحتملة للاتجاهات التي سبق أن ناقشها في الفصل الثالث، وفي جزء عن استخدام اللغة الإنجليزية في مواقع العمل في ظل العولمة (ص43) يتوصل إلى نتيجة هي «... أن اللغة الإنجليزية يجب أن تكون في خدمة العديد من الأدوار والهوايات على مستوى المؤسسات، كما يجب أن تصلح للاستخدام بوساطة فرق العمل والاتصالات والتفاعلات التي تحدث في مجال الخدمات. وليس من المستغرب أن تزداد المطالبة برفع كفاءة الموظف أو العامل. ولم يبدأ تصميم برامج التعليم والتدريب بحيث تواكب اتجاهات العمالة والتشغيل إلا منذ فترة قصيرة». ثم ينتقل المؤلف إلى مناقشة قضايا التعليم والتدريب، ومن بينها توفير المعلمين، والاتجاه نحو التوسع في تدريس المواد باللغة الإنجليزية في التعليم العالي، والتوسع في تعليم الكبار، والنماذج المختلفة للتعلم عن بعد. وفي مناقشته لوسائل الإعلام العالمية يتنبأ (ص46) بأن «القنوات الفضائية- وهي

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

التكنولوجيا التي لديها القدرة على إغراق جمهور المشاهدين في العالم كله بمنتج متجانس- ستخلق تنوعاً لغوياً وثقافياً أكبر وستعمل على زيادة دعم اللغات المحلية أكثر مما كان مفترضاً في السابق». كما يبرز المؤلف الآثار الناتجة عن تفتيت الثقافة بفعل وسائل الإعلام ويناقش الآثار تنامي ثقافة الشباب في الأشكال والأنماط اللغوية، مؤكداً مرة أخرى احتمال التنوع ويقول: «إن الشركات متعددة الجنسيات التي تتبع «الموضة» ليس عندها ولاء خاص نحو اللغة الإنجليزية، إذ هي تتبع اتجاهات السوق... ومع عقود الامتياز والتراخيص والتوسع العام للشركات الكبيرة في الأسواق الرائجة فإن هناك احتمالا كبيرا لأن ينحسر انتشار اللغة الإنجليزية»(ص49). كما أن استنتاجاته بالنسبة لنمو الإنترنت تتسم هي الأخرى بالحذر، إذ يقول: «مع زيادة انتشار استخدام الكمبيوتر من المتوقع أن يتراجع حجم المواد الموجودة في الإنترنت باللغة الإنجليزية إلى 40في المئة من الحجم الإجمالي» (ص51).

وفي الفصل الخامس والأخير يحاول جرادون ربط الخيوط المتشابكة لآرائه ووجهات نظره التي عرضها وذلك من أجل «التصدي للقضايا الرئيسية الخاصة بمستقبل اللغة الإنجليزية» (ص55). وأول قضية تطرق إليها هي اللغة الإنجليزية العالمية. وبالنسبة للمعيار فإنه يتنبأ بحدوث تطور نحو تعدد المراكز، كما أنه يتنبأ (ص57) بأن المزايا التجارية التي تجنيها المملكة المتحدة من استخدام اللغة الإنجليزية، ومن إنتاج الملكية الفكرية وتسويقها بل حتى من السيطرة على السوق العالمي لتعليم اللغة الإنجليزية، ستتضاءل إلى حد كبير بسبب جهات أخرى عاملة في السوق في كل من أوروبا وآسيا، ويقول: «سيتوقف مستقبل اللغة الإنجليزية البريطانية في العالم جزئيا على مدى كفاءتها في إدارة «علامتها التجارية» (brand image) بحكمة وبصورة متواصلة. وفي الجزء الذي يتطرق المؤلف فيه إلى اللغات المنافسة يقول مستنتجا «... إنه لن تحتل لغة بمفردها في القرن الواحد والعشرين المركز الاحتكاري الذي نجحت اللغة الإنجليزية تقريبا تماما في تحقيقه بحلول نهاية القرن العشرين. والاحتمال الأكبر هو قيام عدد صغير من اللغات العالمية بتشكيل «احتكار القلة» (oligopoly) بحيث يكون لكل منها مناطق نفوذ وقواعد إقليمية خاصة بها»(ص59). ويستخدم المؤلف نموذج «engco» لتكوين مجموعات تتنافس على النفوذ اللغوي مع استمرار بقاء اللغة الإنجليزية على قمة المجموعة مع الكثير من اللغات المنافسة قريبة منها، كما أنه يلاحظ- للأسف الشديد- أن «التحول من الاحتكار (الفردي) إلى احتكار القلة في مجال اللغة يجلب معه التعددية من جهة، إلا أنه ينتج عنه فقدان التنوع من جهة أخرى. والشيء الوحيد الذي يعوض ذلك جزئيا هو قيام عدد متزايد من اللغات المختلطة التي ينشأ معظمها عن احتكاكها باللغة الإنجليزية» (ص59). وهو يتنبأ بأنه رغم استمرار تزايد الطلب على اللغة الإنجليزية فإن المؤسسات البريطانية العاملة في مجال تعليم اللغة الإنجليزية ستواجه منافسة متزايدة وتتعرض لخطر فقدان حصتها في السوق. كما أن عمل القنوات الفضائية سيصبح محصوراً في النطاق المحلي بصورة متزايدة، وستتقلص هيمنة اللغة الإنجليزية على صناعة الكمبيوتر وبالتالي سيقل استخدامها في الإنترنت، وسيتم نقل التكنولوجيا باللغة الإقليمية بشكل متزايد. ومن بين

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

التوصيات التي يقدمها المؤلف لـ«إدارة المستقبل» وضع «إطار أكثر أخلاقية... ما هي المسؤوليات الاجتماعية المرتبطة بالترويج للغة الإنجليزية وتعليمها؟... هناك حاجة في المستقبل إلى توجه أكثر حساسية يدرك أن اللغة الإنجليزية ليست دواء يشفي جميع العلل والأمراض الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وأنه يجب تطويع أساليب التدريس والمواد التعليمية والسياسات التربوية بحيث تتلاءم مع الظروف المحلية»(ص63).

تقييم مقارن للكتابين

في مقارنتي لهذين الكتابين أدرك تماما أنني لا أقارن شيئين متشابهين، إذ يختلف الكتابان- بل واختلافا جذريا في بعض الأحيان- في عدة أبعاد: الهدف، ونوعية القارىء، والمواقف ووجهات النظر، والأسلوب، والنتائج. وسأتناول كلا من هذه الأبعاد على حدة.

الهدف المعلن من كتاب كريستال هو الإسهام في خلق «مجتمع مسالم ومتسامح» من خلال إيجاد تفهم لقيمة لغة مشتركة مع المحافظة في الوقت نفسه على قيمة التعددية اللغوية. والحافز الذي دفع كريستال إلى تأليف هذا الكتاب قد أتى من «رئيس منظمة اللغة الإنجليزية الأمريكية، وهي أكبر منظمة... تقوم بحملة للدعوة إلى جعل الإنجليزية اللغة الرسمية للولايات المتحدة الأمريكية (صix). وهذا يلقي بظلال من الشك على الدوافع من وراء تأليف هذا الكتاب، إلا أنه يقول إنه «لم يؤلف هذا الكتاب وفقا لأية أولويات سياسية» (ص X). وسيحكم القراء بأنفسهم على مدى نجاحه في تحقيق هذه الدرجة من التجرد وعدم التحيز. ومن المؤكد أنه في مناقشته لقضية جعل الإنجليزية اللغة الرسمية للولايات المتحدة ليس متجردا أو عادلا تماما.

وأما دراسة جرادول فقد كتبها برعاية المجلس الثقافي البريطاني كجزء من مشروع المجلس المسمى «مشروع اللغة الإنجليزية 2000». والهدف من الكتاب إذن توفير المعلومات وتقييم التطورات المستقبلية التي تساعد المجلس على الترويج لبريطانيا وللغة الإنجليزية في شتى أنحاء العالم بصورة أفضل. وسأتطرق في جزء لاحق من هذا العرض إلى مدى الوفاء بتوقعات المجلس وطموحاته.

من الواضح أن نوعية القارىء الموجه إليه كل من الكتابين مختلفة تماما: فكتاب كريستال موجه «لأي شخص ومن أية جنسية له صلة باللغة الإنجليزية...» بما في ذلك «القارىء غير المتخصص وأي شخص محب للغة»(الغلاف الخلفي للكتاب).

وأما كتاب جرادول فهو موجه إلى «رجال التربية والتعليم والسياسة والمديرين- أي شخص لديه سلطة اتخاذ القرار أو أي فريق مسؤول عن التخطيط ولديه اهتمام مهني بتطور اللغة الإنجليزية في أرجاء العالم كافة»(ص1). وتنعكس هذه الاختلافات على المواقف ووجهات النظر التي يتخذها كلا المؤلفين بالنسبة لهذا الموضوع. فكريستال يسعى أساسا نحو إيضاح الأهمية الحالية للإنجليزية وذلك بالإشارة إلى الموضوع، ولذلك فإن مناقشته للمستقبل قليلة نسبيا، ورغم أن النغمة السائدة في الكتاب ليست نغمة التباهي، فيبدو أنه يعتبر استمرار هيمنة اللغة الإنجليزية أمراً مفروغا منه. وأما جرادول فهو أكثر اهتماما بالنظر إلى المستقبل واستشراف آفاقه مع التساؤل عن دور الإنجليزية في عالم «التدفق» متعدد المراكز. ورسالة كريستال في نهاية المطاف هي للطمأنة:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كل شيء سيكون على خير ما يرام في حينه وبمرور الزمن، وأما جرادول فهو يحاول إظهار أن دور الإنجليزية يتعرض لمشكلات، مع التشكيك في الآراء التي يؤمن بها الكثيرون، وهو أمر يدعو إلى عدم الطمأنينة بالنسبة للبعض (ربما بمن فيهم الجهة الراعية لكتابه نفسها).

ونظرا لأن كتاب كريستال موجه إلى القارىء غير المتخصص فإن أسلوبه مباشر ويخلو من المصطلحات الفنية وسهل في قراءته ومقسم إلى أجزاء وأجزاء فرعية واضحة، إلا أنه للأسف الشديد لايضم قائمة مراجع بمعنى الكلمة، بل مجرد ستة كتب مقترحة للمزيد من الاطلاع في هذا الموضوع. وعلى العكس من ذلك فقد وجدت أن كتاب جرادول صعب في قراءته، ليس فقط لمجرد أن محتواه يتسم بطابع فني أكثر بل أيضا بسبب تصميمه وإخراجه. ففي الكتاب عدة أحجام مختلفة للأحرف (البنط) (ستة على الأقل) وهي مطبوعة باللون الأسود، وبعض العناوين والأشكال والجداول مطبوعة بدرجات مختلفة من اللون الأخضر الداكن.، وصفحات الكتاب من قياس (A4) مع صفحتين متقابلتين في معظم الأجزاء. ومن المفترض أن يكون ذلك لتسهيل عملية القراءة، إلا أن كثرة الهوامش تفسد ذلك وتشتت انتباه القارىء عن متابعة النص الأصلي. والانطباع العام هو عدم الترابط وعدم الترتيب. وتكرار المعلومات نفسها في أجزاء مختلفة من الكتاب يزيد من صعوبة قراءته. والصفحات الموجودة في نهاية كل فصل وتحمل عنوان «ملخص» هي في الواقع اسم على غير مسمى، فهي نادرا ما تلخص جميع المعلومات الواردة في الفصل، بل كثيرا ما تخلو من أجزاء كبيرة من هذه المعلومات (الفصلان الثالث والرابع على وجه الخصوص). والانطباع العام الذي يتركه الكتاب لدى القارىء هو كثرة المعلومات غير المنظمة والتي يصعب الحصول عليها واستيعابها، الأمر الذي يدعو إلى الأسف لأن القضايا التي يطرحها الكتاب- وإن كانت معقدة وحافلة بالتفاصيل- تحتاج إلى بحث جاد. والمصادر الموجودة في آخر كل فصل تضم معلومات غزيرة مستقاة من عدة مصادر مختلفة.

يتضح مما سبق أن الكتابين يخلصان إلى نتائج مختلفة إلى حد ما. فكريستال متفائل بالدرجة الأولى، ويرى أن استمرار سيطرة اللغة الإنجليزية هي مسألة معروفة نتيجتها مقدما بالفعل، وأما جرادول فهو أقل تفاؤلا وأكثر حذرا. وقد لا تشعر الجهة الراعية لكتابه بالارتياح من تنبؤاته بقيام عالم يزداد فيه تعدد الدوائر والتشابك اللغوي بحيث تفقد فيه اللغة الإنجليزية وضعها المهيمن وتفقد فيه المؤسسات البريطانية العاملة في مجال تعليم الإنجليزية حصتها في السوق، كما قد لا يشعر المجلس الثقافي البريطاني بالارتياح من توصيته بأنه إذا كان المجلس وغيره من الجهات يرغبون في المحافظة على مركزهم فيتعين عليهم أن يتخذوا موقفا أقل تفاخرا وأكثر تشاورا مع «زبائنهم» في شتى أنحاء العالم.

وكلا الكتابين يعتبران إضافة كبيرة للبحوث والدراسات التي كتبت عن الإنجليزية كلغة عالمية. وقد حقق كتاب كريستال ذلك من خلال وضوحه وأسلوبه الرائع في حشد الدعم الشامل لاستمرار سيادة اللغة الإنجليزية وتفوقها، كما أسهم كتاب جرادول في ذلك من خلال استكشافه المتعمق لآفاق مستقبل اللغة الإنجليزية الذي هو موضع جدال، ودعوته إلى مواصلة الحوار حول هذا الموضوع.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أنا والزمن

بقلم: د. إدوارد سعيد

ترجمة: د. شعبان عبدالعزيز عفيفي

كل أسرة تصنع والديها وأبناءها، وتجعل لكل منهم قصة، وشخصية، وقدراً ونصيباً، بل وحتى لغة. وقد كان هناك دائما خطأ ما في الكيفية التي جرى بها صنعي والتي كان القصد منها أن أتلاءم مع عالم يعيش فيه أبواي وشقيقاتي الأربع. ولم أستطع أن أتبين طوال معظم سنوات عمري المبكرة ما إذا كان السبب في ذلك هو أنني أخطأت باستمرار في فهم دوري أم بسبب عيب متأصل في تكويني. وقد كنت في بعض الأحيان عنيداً وصلب الرأي، وكنت أفخر بذلك، بينما كنت في أحيان أخرى أشعر بأنني إنسان عديم الشخصية بالمرة وخجول ومتردد وفاقد الإرادة إلا أن الشعور الذي كان يغمرني هو أنني كنت دائما في غير مكاني الصحيح، ولذلك فقد تطلب الأمن مني قضاء ما يقرب من خمسين عاماً لكي أتعود على اسم «إدوارد»، أو على الأصح لكي أكون أقل ضيقاً بتلك التسمية الإنجليزية السخيفة مقترنة باسم العائلة العربي الواضح «سعيد». وفي الواقع أنني سميت «إدوارد» نسبة إلى أمير ويلز الذي كان شخصية مرموقة ومحترمة في عام 1935، وهو العام الذي ولدت فيه، كما أن الكثير من أعمامي وأخوالي وأبنائهم كان اسمهم «سعيد». إلا أن الأساس الذي بني على اسمي انهار عندما حاولت ربط اسمي الإنجليزي الأنيق بقرينه العربي. وكنت لسنوات طويلة، وبحسب الظروف في حينه، أتعمد أن أمر بسرعة على اسم «إدوارد» وأبرز اسم «سعيد»، وفي أحيان أخرى كنت أفعل عكس ذلك وأقول الاسمين معاً وبسرعة بحيث لا يكون أي منهما واضحاً. والشيء الوحيد الذي لم أكن أطيقه، وإن كان علي في أحيان كثيرة جداً أن أتحمله، هو رد فعل الناس وعدم تصديقهم: إدوارد؟ سعيد؟... مما كان يضعف من عزيمتي ومعنوياتي.

Out of Place: a memoir
by Edward W Said
Granta, £25, 298pp

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العنوان الأصلي للمقال:
Keeping Time ونشر في London Review Of Books عدد 29 إبريل 1999

ومما زاد الطين بلة تلك الورطة الأخرى المزعجة التي كنت أتعرض لها عندما كان الأمر يتعلق باللغة. ولا أعرف حتى الآن ما هي اللغة التي بدأت أتحدث بها- العربية أم الإنجليزية، أو أيهما كانت لغتي دون أدنى شك. وأنا أعزو عدم الاستقرار المبكر هذا إلى والدتي، التي أتذكر أنها كانت تحدثني بالإنجليزية والعربية معاً. وكانت تخلط كلامها باللغة العربية ببعض الكلمات الإنجليزية، مثل «naughty boy» (ولد شقي) وكذلك اسمي بالطبع والذي كانت تنطقه «Edwaad» ولا يزال صوتها يتردد في أذني، وفي نفس الزمان والمكان، وهي تناديني «Edwaad»، تلك الكلمة التي كانت تسري في الأفق قبيل مغيب الشمس في حديقة الأسماك وقبل أن تغلق أبوابها مباشرة، كما لا أزال أذكر أنني لم أعرف هل أرد عليها أم أظل مختبئاً فترة أطول، مستمتعاً بالنداء علي وبأنني شخص مرغوب فيه، مع ذلك الجزء من كياني الذي لا ينتمي إلى إدوارد بصلة ينعم براحة لذيذة من خلال عدم الرد عليها إلى أن يصبح سكوني أمراً لا يطاق.

وخلال سنوات نشأتي الأولى في القدس والقاهرة كنت أتمنى دائما لو كانت أمي هي الإنسان الذي يشاهدني وأنا ألعب كرة القدم أو التنس، أو لو كانت هي وحدها التي تتحدث إلى أساتذتي، مع إعفائها من مسؤولياتها كشريك لأبي في البرنامج المشترك الخاص بإصلاحي وتهذيبي. وكنت أجد نشوة بالغة في ارتمائي بين ذراعيها عندما كانت ترغب في ضمي إلى صدرها وتدللني وتمسح بيدها على وجهي، إلا أن هذه العناية كانت أمراً مستحيلاً بالمرة. وأذكر أن من أشد لحظات الألم والعذاب في طفولتي ومراهقتي المبكرة تلك التي كنت أحاول فيها دون جدوى أن أشغلها عن أداء دورها كمسؤول صارم ومتشدد وأن أستميلها نحو الرضا عني ومساندتي. وكنت إذا قمت بعمل طيب أو حصلت على درجة عالية في الامتحانات أو عزفت قطعة موسيقية على البيانو بشكل جيد فإن ذلك قد يؤدي إلى تغير مفاجئ في قسمات وجهها وارتفاع مثير في نبرة صوتها، وكانت تفتح ذراعيها بصورة مذهلة وهي تضمني إلى صدرها قائلة: «برافو إدوارد، يا ولدي الحبيب، برافو، برافو. دعني أقبلك». إلا أنها كانت في معظم الأوقات مدفوعة بإحساسها بالواجب كأم وربة بيت لدرجة أن صوتها الذي لا يزال يلازمني هو ذلك الذي كانت تصدر فيه الأوامر لي: «تدرب على البيانو يا إدوارد»، «عد إلى عمل واجباتك المدرسية»، «لا تضيع وقتك: ابدأ في كتابة موضوع التعبير»، «هل شربت الحليب وعصير الطماطم وزيت كبد الحوت؟»، «أكمل تناول ما في طبقك»، «من الذي أكل الشوكولاته؟ لقد اختفى صندوق كامل يا إدوارد!».

ويبدو أن الزمن كان ضدي وفي غير صالحي إلى الأبد، وباستثناء فترة قصيرة في الصباح كنت استكشف فيها ما يمكن عمله خلال اليوم فقد كنت مثقلا بالجداول والمواعيد والأعمال المملة والمهام الشاقة، دون أية لحظة للاسترخاء أو الترويح عن النفس أو التأمل. وقد قدمت لي أول ساعة، وهي من ماركة «تيسو» Tissot لا شكل لها، وأنا في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمري؛ وقد استحوذت هذه الساعة على ذهني تماماً وأصبحت هاجسي الأول، ولم تتوقف بالمرة عن التأثير عليّ بحركتها التي لا يعوقها شيء، والتي زادت من شعوري كل يوم تقريباً بأنني متأخر. وأنا لا أذكر أبداً أنني كنت محباً للنوم، بل أتذكر جيداً جرس المنبه الذي كان يوقظني في

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الصباح الباكر والذي كان يدق في موعده المحدد تماماً، وحرصي على النهوض بسرعة من فراشي. ولم يكن لدي وقت بالمرة أضيعه في التلكؤ أو التسكع، رغم أنني كنت ميالاً لذلك. وقد بدأت عندئذ عادة ظلت تلازمني طوال حياتي وهي التعامل مع الوقت على أنه زائل، مع التصدي له في الوقت نفسه وذلك بالقيام بالمزيد من الأعمال «القراءة خفية وبتلصص، النظر من النافذة، البحث عن أشياء غير ضرورية كالمطواة أو القميص الذي كنت ارتديه في اليوم السابق» في اللحظات القليلة قبل المواعيد المحددة التي يجب أن التزم بها. وكانت ساعتي عوناً كبيراً لي عندما كانت تبين لي أن لدي متسعاً من الوقت، إلا أنها كانت في أغلب الأحيان تراقب حياتي كحارس يحمي النظام الخارجي المفروض علي من قبل الآباء والمدرسين والمواعيد الصارمة.

وكنت في مرحلة المراهقة المبكرة مسيطراً تماماً على الوقت الذي يمر كسلسلة من المواعيد المحددة وكان ذلك شيئاً ممتعاً ومزعجاً في آن واحد- وظل الأمر كذلك منذ ذلك الحين. وقد حددت لنفسي برنامجاً للقيام بالمهام الرئيسية الواجبة طوال اليوم وذلك في مرحلة مبكرة نسبياً من تلك الفترة ولم تتغير منذ ذلك الوقت. فالاستيقاظ من النوم يكون في الساعة السادسة والنصف، ثم يبدأ العداد في العد في السابعة والنصف، وعندئذ أدخل في نظام صارم ينقسم إلى ساعات وأنصاف ساعات يتحكم فيها الذهاب إلى المدرسة وإلى الكنيسة وحضور الدروس الخصوصية والقيام بالواجبات المنزلية والتدرب على البيانو وممارسة الرياضة إلى أن يحين موعد النوم. وهذا الإحساس باليوم مقسم إلى فترات من الأعمال المحددة لم يفارقني بالمرة، بل لقد تزايد.

وكانت ساعتي تشكل المحور الرئيسي وراء كل ذلك، أي كانت بمثابة انضباط مفروض علي عمل بشكل ما على استمرار هذا النظام، وكانت الراحة والاستجمام شيئاً بعيد المنال. وأنا لا أزال أتذكر بوضوح مذهل أوامر والدي لي بعدم الاستمرار في ارتداء (البيجاما) بعد ساعات الصباح المبكرة، كما أن لبس (الشبشب) كان موضع الاستهجان والاحتقار. ولا يمكن حتى الآن أن أقضي أي وقت متكاسلاً مرتدياً (البيجاما): إذ يتملكني الإحساس بالذنب عند إضاعة الوقت سدى أو الإتيان بعمل غير لائق من قبيل الكسل. وكمحاولة للالتفاف حول النظام فإن المرض (المتصنع أحياناً والمبالغ فيه أحياناً أخرى) جعل حياتي بعيداً عن المدرسة شيئاً مقبولا للغاية. وقد أصبحت أضحوكة العائلة لأنني كنت أجد لذة خاصة في وضع ضمادة لا لزوم لها على أحد أصابعي أو ركبتي أو ذراعي، بل حتى كنت أتوسل إلى أن أضعها. أما الآن، ومن قبيل المفارقات المؤسفة، فهأنذا مصاب بسرطان الدم (اللوكيميا)، هذا المرض العضال الخبيث، الذي أحاول- كالنعامة التي تدفن رأسها في الرمال- أن أطرده من ذهني تماماً، جاهداً بدرجة لا بأس بها من النجاح على التعايش مع نظامي الخاص بالوقت والعمل والإحساس بالتأخير والمواعيد المحددة وذلك الشعور بعدم تحقيق قدر كاف من النجاح والإنجازات الذي أدركته قبل خمسين عاماً والذي أصبح يشكل جزءاً من كياني. ولكن- وللمفارقة العجيبة أيضاً- فإنني أتساءل في داخلي ما إذا كان نظام الواجبات والمواعيد المقررة قد ينقذني الآن، رغم أنني أعلم بالطبع أن المرض يزحف ويتسلل خفية إلى جسمي وبصورة أكثر خبثاً

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من الوقت الذي ظهر على أول ساعة حصلت عليها والتي كنت أحملها دون أن أدري كثيراً كيف كانت تحسب حياتي التي لها أجل محتوم، وقسمتها إلى فترات كاملة وثابتة من الزمن الذي لم يتحقق دوماً وإلى الأبد.

وفي الشهور القليلة الأخيرة لمرض أمي كانت كثيراً ما تذكر لي، وهي تئن وتتوجع من شدة الألم، أنها تحاول أن تنام. وكانت هي في واشنطن، بينما كنت أنا في نيويورك، وكنا نتحدث معاً باستمرار ونلتقي مرة كل شهر على الأقل. وكنت أعرف أن السرطان ينتشر في جسمها، وقد رفضت العلاج الكيماوي وكانت تقول: «ما بدي أتعذب». وبعد بضع سنوات عانيت أنا من عذاب العلاج الكيماوي لمدة أربع سنوات ولكن دون جدوى، إلا أنها لم تستسلم ولم ترضخ أبداً حتى لإلحاح الطبيب. ولكنها كانت عاجزة عن النوم ليلاً وقالت لي إن الأدوية المسكنة والأقراص المنومة والمشروبات المهدئة ونصائح الأصدقاء والأقارب والقراءة، - كل ذلك لم يفلح معها البتة. وقالت لي ذات مرة بصوت مرتجف ومثير للعطف والشفقة مازلت أسمعه وأنا أسطر هذه الكلمات: «ساعدني لكي أنام يا إدوارد». ولكن كان المرض حينئذ قد وصل إلى مخها، وظلت في غيبوبة تامة طوال الأسابيع الستة الأخيرة من حياتها. وبالنسبة لي كان جلوسي إلى سريرها مع شقيقتي جريس وفي انتظار أن تفيق من غيبوبتها، أشد لحظات اللوعة والتناقض التي شهدتها في تجربتي معها.

وقد أدركت الآن أن عجزي أنا عن النوم ربما يكون آخر شيء ورثته عنها، وكفعل مضاد لصراعها من أجل النوم. فالنوم بالنسبة لي شيء يمكن أن أتغلب عليه بأسرع ما يمكن، إذ بإمكاني أن آوي إلى فراشي وأخلد إلى النوم في ساعة متأخرة من الليل واستيقظ عند الفجر. وأنا مثلها لا أمتلك سر النوم ساعات طويلة، مع أنني وعلى عكسها قد وصلت إلى النقطة التي لا أحب النوم الطويل عندها، فالنوم عندي هو الموت، مثله في ذلك مثل أي نقص في الوعي والإدراك، كما أن الأرق هو حالة أنشدها وأبتغيها مهما كلف الأمر، إذا لا شيء ينعشني أكثر من التخلص من حالة نصف الوعي في ظلام ليلة ضائعة وإعادة تنبهي أو عودتي إلى الأشياء التي ربما سبق أن فقدتها تماماً قبل ذلك بساعات قليلة. وأثناء فترة علاجي الأخيرة- وهي محنة استمرت اثني عشر أسبوعاً- كنت في غاية الضيق بسبب الأدوية التي كان يجب أن أتعاطاها لكي أتجنب الإصابة بالحمى والقشعريرة ولمحاولة جلب النعاس، والإحساس بأنني كنت أعامل معاملة الأطفال. وكنت أقاوم الأدوية المنومة والمخدرة بشدة، كما لو كان وجودي متوقفاً على تلك المقاومة.

وبين الحين والآخر أجد نفسي كمجموعة من التيارات المتدفقة، وأنا أفضل ذلك على فكرة الذات المتكاملة، وهو الكيان الذي يعلق عليه الكثيرون أهمية كبيرة. وهذه التيارات، مثل أفكار الإنسان في الحياة، تنساب طوال ساعات اليقظة، وهي في أفضل حالاتها لا تحتاج إلى التكيف أو التواؤم أو الانسجام. وقد تكون هذه التيارات في غير مكانها الصحيح، إلا أنها على الأقل في حالة حركة دائمة، وفي وقتها بالضبط، وعلى هيئة خليط غريب متحرك، ليس بالضرور إلى الأمام، ولكنها أحياناً تتحرك ضد بعضها بعضاً أو قد تكون متزامنة ومتناسقة، كمن يعزفون مقطوعة موسيقية، ولكن دون أن يربط بينها لحن رئيسي واحد.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com